

تنوير المؤمنات

الجزء الأول

عبد السلام ياسين



عبد السلام ياسين

تنوير المؤمنات

الجزء الأول



الطبعة الرابعة : 2018 /1439
ISBN: 9772780062

بشامون - الطريق العام ـ مجمع بشامون الصناعي
هاتف و فاكس : 00961 - 5813203
البريد الإلكتروني: dar@darlubnan.com
الموقع الإلكتروني: www.darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي
Name: DAR LOUBNAN LIL TIBAA WAL NASHR
ACC: 1578046
BLOM BANK SAL- MAIN BRANCH
RACHID KARAMEH STREET
BEIRUT LEBANON
IBAN: LB61 0014 0000 4002 3041 5780 4614
(CURRENT USD)
SWIFT CODE: BLOMLBBX

خطبة الكتاب

الحمد لله نور السماوات والأرض لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، خلقنا سبحانه من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء زيادة في الخلق ومددا.

أشهد أنه الله لا إله إلا هو الملك الوهاب، ذو الطول شديد العقاب، أنذر الخلق وبشر وأهاب، حيث قال في محكم الكتاب: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[1]

أحمده حمد عبد بادي العجز والكلال، وأسترحمه واقفا بباب الكرم والنوال، وألجأ إليه مستشفعا بحبيبه محمد سيد ولد آدم في يوم لا بيعٌ فيه ولا خِلال، وأستغفره من رديء الخلق وسيئ الأعمال، وأعبده حزينا على تقصيري والإهمال، وأستعينه ليهدينا صراط الذين أنعم عليهم من المقربين أهل الكمال.

وأصلي وأسلم على نبي الرحمة، الذي جاءنا ببلاغ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.[2]

صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه من الأنصار والمهاجرين، وإخوانه من الأولين والآخِرين، وسلم تسليما.

أما بعد فأقدم كتابي هذا بضاعة مُزجاة، للصالحات القانتات الحافظات للغيب بما حفظ الله، ثم لكل منيب أواه، ولِلاهية في عبث زينة الدنيا ولاه. عسى يعود ربنا الحليم الكريم علينا بتوبة، ويمن علينا بيقظة وأوبة، ويكشف عنا غُمة الغفلات والحوبة.

---

(1) سورة غافر، 40

(2) سورة الروم، 20

إنه سبحانه القدوس السلام. فاتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام.

رجائي فيه سبحانه أن يجعل مكتوبي هذا جِلاءَ غَمام، وتنويرا العقبات الاقتحام، ودَليلا لمن يطمح إلى ذِرْوة السنام، لا ترضى همته أن ترتع مع السائمة في سفوح الانهزام والاستسلام.

أستعين بالله وأستخيره وأستقدره في بسط قضية المرأة في محنتها، وفتنة أمتها.

طموح هذا الكتاب يمتد إلى واسع الحاضر وفسيح المستقبل معا، مراقبة واستكشافا وتطلعا. لكنه يحرص منذ البداية على جلب الأنظار، وتوجيه الأفكار، وجمع همم البصائر والأبصار، على قضية القضايا، المنسية المكبوتة في الزوايا. ألا وهي قضية مصير العبد إلى ربه.

لا يحب هذا الكتاب ولا يريد أن يصنف في خزانة التوعيات: مجرد توعية بقضية المرأة المسلمة إلى جانب التوعية السياسية، والأخرى الثقافية، والثالثة الفنية الجمالية. وما شئت من حمولات تُفرَغ في أوعية الأدمغة وبواطن النفوس، تتفاعل أو لا تتفاعل، تتوالد ويتغذى بعضها ببعض، والوِعاء زاخر عجاج بهوامّ الأفكار ومَحْشَر الهوس. أفْرَغَت التوعيات الكونية الدماغ المثقف بثقافة العصر، والنفس المائجة مع حركات الدنيا، من هم الآخرة وهم المصير. وأخرست الصوت الفطري السائل عن معنى وجودي وحقيقة حضوري وغاية مروري من هذه الحياة العجيبة الغريبة. لا أعجب من هذه الحياة إلا لغز وجودي، ولا أعجب من الأعجب إلا رُضوخي القطيعيُّ حين سِرْتُ في الدرب الهائم مع ماشية الزاعمين أن الكل عبث في عبث.

سعادة هذا الكتاب أن يوقظ الواسن ويحرك الساكن لتمسك المؤمنة القارئة، والمؤمن الباحث، بتلابيب نفسه وهواه، ويحمل فكره على المكروه الذي تهرب منه النفس الراكدة في خبثها. ألا وهو مواجهة الذات بالسؤال المليح الصريح: أي إيمان هو إيماني؟ وما قضيتي مع ربي؟ ضاعت ونُسيت في ضجيج الحركية فهل إلى تلافي الأمر من سبيل؟ أم إن المنطلق الأول كان خطأً حين اندفعت في

حماس أزعم أني مهاجر إلى الله ناصر لدين الله مجاهد في سبيل الله بينما قلبي هواء وخواء؟

سعادة هذا الكتاب وطموحه ورجاؤه من المولى الكريم الهادي أن تلتقي صراحته بقلق المؤمنة والمؤمن، وتطلع المرتقبة والمرتقب، وشك الغافلة والغافل، فتنقدحَ في قرارة نفسي أنا أمة الله، وأنا عبد الله، وأنا الجاهل بما أنا، ومضة اليقظة، وشعلة الحسرة، وحرقة الشوق. وتسكنَ في سويداء قلبي هموم مصيري الأخروي، ولواعج الأسف على غفلتي، والسؤال الدائم المزعج المنجي: ما ثقتي بربي، ما صدقي معه، ما صدقي في طلب رضاه، أين أنا من الصادقين الذين يعبدونه رَغَبا ورَهَبًا، ما حظي من يقين الصادقين، ما رضاي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، ما مسارعتي بين المسارعين إلى نيل الدرجات في الجنة عنده؟

متى انجمع همي وتوحد، ومتى أصبحت قضيتي مع ربي أم القضايا، عندئذ تأتي القضايا الأخرى في مرتبتها حيث تخدم الوسائلُ الغاية، وحيث يلتحق الفرع بالأصل، وحيث لا تغطي الشروط على المشروط.

طموح هذا الكتاب أن تهُبَّ على مناجاته ومناشدته إرادات نعست على فراش خمولها واستقالتها، وأخرى تتمطى على إيقاع حركةٍ مصارِعة لأبناء الدنيا على الدنيا، أو لطواغيت الحكم على الحقوق، أو للنظير والجار على الزعامة والشفوف.

وسعادته أن تَعْقُبَ الهَبَّةَ القلبيَّة واليقظَة الإحسانيّةَ محاسبةٌ ومراجعة ومتابعة.

ما حياتي لو صارحت نفسي وكنت الشجاع الآمر لا عبد الهوى إلا لقطات وهزات ونزوات وفرص تضيع وقفزات. بيت غفلتي لو صارحت نفسي وأمسكت بخناقها قلعة أحصنها بخسيس الركام، وبإرضاء أنانية عاتية وسط الزحام.

كمالكِ كمالُكِ يا امرأة! كمالك كمالك يا رجل! وما الكمال؟ وما الوسيلة؟ وما المعنى؟ ومن قال؟ وما قيل؟ وما فعل هؤلاء وأولئك؟ وما أفتى المترخص؟ وما بدَّع الـمُتشدد؟

هل من رحلة إلى السعادة الكبرى لا يكون في طريقها عقبات ولا امتحان، ولا إرادة ولا اقتحام!

نَم هادئا.

رجاء العبد الكاتب أن يجمع الله بقراءة الكتاب شمل من شاء من إمائه وعباده على نفحات الرحمة تقوده في سلاسل الحاجة إلى الله أو في رفارف العناية السابقة من الله إلى طريق كماله.

تذهب مع رياح الهوى وعاصفات التجاذُب والتعصب نفحات الرحمة وخواطر الهداية التي تخطب وُدَّك. وتشتبك أشواك الشك والتشكيك في ثوب إرادتك الفطرية. وتعترضك عقبات من صنع نفسك وصنع عدوك. وإذا أنت معوق مريض مختلط هائم على وجه الزمن.

نم هادئا! أو اصحب صفحات هذا الكتاب بصبر. واقرأ مقصده من عنوانه. فالنية –صححها الله– أن يتنور عقل المؤمنات والمؤمنين بعلم تزكية النفوس، مقترنا مسايرا قائدا لحركة إنصاف المرأة في قضاياها. ولتنسلك الحركة على ضوء علم التزكية في نظام عمل التزكية. تزكية نفسي وتطهير قلبي الذي به ألقى الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

عِقد إيمانكِ أيتها المؤمنة الحرة من الشرك الجلي والخفي ينْتثر، وجذوة إيمانك تخبو وتندثر، إن لم تنتظم خطرات نفسك وخلجات قلبك، وعبادة جوارحك في سلك نوراني يُنير الحَلَك، ويرفعك من مهاوي الدوابية إلى طهر الملك. ما إيمانكِ إلا شتات لا ينجمع، في صراع مع الهوى والشيطان، تارة يلين لهما وتارة يمتنع. حتى إذا عقدت مع الله عز وجل عقدا أن تكوني له الأمة المطيعة، ولرضاه الطالبة الأبدية، وشمرتِ أذيال إرادتك، وكففت نوازع الروغات بصدق لا يرتاب ولا يرتد، ووجهت وجهك لله، وفرضت على نفسك ما تكرهه من استقامة مستديمة على ما شرع ربك وفرض، وسن رسوله صلى الله عليه وسلم وعرض. عندئذ تعرفين في طريق آخرتك نافِعتَك من ضارّتك.

أم أن أمواج هذا الهم لا تلطم شواطئ قارتك!

إذاً فنامي هادئة!

وإلا فتعالي نتصفح بطائن قلوبنا وظواهر هذا العالم الـمَوَّار على صفحات كتاب «تنوير المؤمنات»، لنعلم أي جهاد يُقبل منا، ومن أين يبدأ الجهاد وكيف.

اللهم أنت الخليفة في الأهل والصاحب في السفر. فاجعل سفرنا سفر هداة مهديين. واهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعَمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين.

الفصل الأول

قضية المرأة المسلمة والتغيير الشامل

- اقتحام العقبة
- المنهاج النبوي و«نحلة الغالب»
- المرأة كم مهمل أو دمية معبودة مكدودة؟
- ما فعله فينا الاستعمار
- «تحرير المرأة»
- الدعاة على أبواب جهنم
- الدرجة
- «لا يجوز»
- التغيير بين التنزيل والتجديد
- التغيير بين الواقع والمثال

اقتحام العقبة

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.[1]

هكذا أجاب ابن آدم المحسود أخاه الذي هدده بالقتل غيرة وحسدا لما تقبل الله قربانه ولم يتقبل من أخيه، كما قص الله تعالى علينا قصتهما في سورة المائدة.

ثم قتل أخاه فكان من الخاسرين. خسِر نَفسه كما خسرها أصحاب النار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾.[2]

تطغى على أبناء الدنيا وبناتها أنفسهم، يتحكم فيهم الهوى ويمسك بزمام إرادتهم ليقودهم إلى الهلكة الأبدية والخسران المبين. نفسهم أهلكتهم، هواهم أسقطهم في مهواة. خسروا أنفسهم لما آثروا النزوات واستجابوا للغرائز السافلة الدنيا معرضين عن النداء الأعلى إلى الله و إلى الأخرى.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.[3]

الصنف المفلح الرابح هم الذين ينهون النفس عن الهوى، تقودهم إرادتهم الصامدة في وجه الهوى، يزَعُهم الخوف من مقام ربهم. ولهم الجنة في الآخرة. ولهم بها الوعد والبشرى. وهم المتقون الذين يتقبل الله عملهم. يُقَدِّمهم على غيرهم صالح الإيمان وصالح العمل وثابت العزم لا النزعات الساقطة الخسيسة.

وعد الله المتقين الحسنى ووعده الحق سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾[4]. الغرفة

(1) سورة المائدة، 29.
(2) سورة الأعراف، 52.
(3) سورة النازعات، 37-40
(4) سورة الفرقان، 75-76.

الجنة، أعالي الجنة، أعلى مقام في الجنة. من أحلى ما فيها التحية والسلام من ملائكة الله الذين يدخلون عليهم من كل باب. أعلى ما فيها من نعيم النظر إلى وجه الله الملك الوهاب.

لا مكان في تلك المقامات لإماء الهوى وعبيد النفس الهابطة. إنما المستقر والـمُقام لعباد الرحمن، وهم المتقون.

صفتهم البارزة التي نالوا بها الجزاء السني والمقام العلي هي الصبر كما قرأنا في الآية الكريمة: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾[1] وتحية الملائكة لهم كما جاء في آية أخرى: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.[2]

هذا الصبر الذي هو أبو الفضائل وأمها ما هو؟ قال أئمة اللغة: «الصبر الإمساك. والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه».

الصبر صبران إذاً: صبر على وصبر عَن. «صبر عن» هو الإمساك عن ما يقتضي العقل والشرع الإمساك عنه. و«صبر على» هو حمل النفس وإرغامها وإن كرهت على أفعال وأخلاق وعبادات وأقوال يأمر بها العقل والشرع.

نهي النفس عن الهوى يشبه زجر الدابة ومنعها من علفها. وذاك هو الأصل اللغوي لفعل «صبر». قالت العرب: صبرتُ الدابة أي حبستها عن العلف.

هكذا نرى أن معالجة النفس وزجرها عن اتباع الهوى وعن زلقات الغريزة وخُطْوات الشيطان وحملها على الطاعات لله عبودية له وخوفا منه وتصديقا بوعده هي الخصلة التي تدور عليها سعادة المرء وشقاؤه، خسرانه أو فوزه.

جاء وعد الله عز وجل للمتقين الذين صبروا بالغرفة والتحية والسلام في أواخر سورة الفرقان، بعد سرد صفات عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾.[3]

(1) سورة الفرقان، 75.
(2) سورة الرعد، 25.
(3) سورة الفرقان، 74.

انظري يا أخت الإيمان في مصحفك من الآية 63 من سورة الفرقان، وادرسي وابحثي في التفاسير وناقشي مع المؤمنات صفات عباد الرحمن، وتعلَّمي أن كتاب الله تعالى جاءنا بلسان عربي مبين، والعرب تخبر بصيغة المذكر عن الجمع من نساء ورجال. تغليب لغوي فقط. وعباد الرحمن هم النساء و الرجال الذين اكتملت فيهم الصفات الخلقية الصبرية الواردة في الآيات الكريمة. تحكّم الرجل والمرأة في الهوى هو المعيار لا الجنس.

والسعادة الأخروية لا يحتكرها من يدعيها من المترهبين. هاهم أولاء عباد الرحمن مستقرين أزواجا في أسرهم مع ذرياتهم. من فضائلهم الحميدة وأخلاقهم المجيدة وعباداتهم الرشيدة أنهم يدعون ربهم هنا في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾.[4] يقوله الزوج الرجل وتقوله الزوج المرأة. والذرية الصالحة والوُد بين الزوجين سعادة تبدأ من هنا في الدنيا قرةَ عين. قرة العين غاية السرور. والذي يفرح له المؤمن وتفرح المؤمنة فوق كل شيء الاطمئنان إلى أنهما وذريتهما سائران في طريق السعادة الأخروية.

كيف اكتساب الفضائل الإرادية القوية الممانعة للهوى المتحكمة في النفس وفي وجهة السير. بعبارة أخرى كيف السبيل إلى السعادة؟ وهل الصبر يُسعد خارج الإيمان؟ هل هو فضيلة بشرية في الفِطر كلها أو هو والإيمان كسب وتربية؟ كيف يتجدد الإيمان وكيف يبلى، كيف يزيد وينقص؟ كيف تتدرب الإرادة وتقوى؟ كيف تنهى النفس وتصرف عن الهوى؟

أسئلة جوهرية يأتي البحث فيها إن شاء الله.

ونتأمل هنا طريق السعادة التي يسلكها المتقون عباد الرحمن. إنها طريق شاقة. إنها عقبة. إنها امتحان وابتلاء. إنها بكل المعنى الثقيل ثقلا بليغا لكلمة «صبر». إنها مسؤولية. إنها قوة. إنها إرادة. إنها اقتحام. و كلمة اقتحام تحمل معاني جِساماً. قال أهل اللغة رحمهم الله: «الاقتحام توسُّط شدة مخيفة».

(4) سورة الفرقان، 74.

في سورة البلد دعوة ملحة من الله عز وجل للإنسان ليقتحم العقبة. دعوة للإنسان ذكرا وأنثى. وقد تحدثنا في غير هذا المكان عن فهمنا للعقبة واقتحامها. فنعود إلى الدلالة اللغوية لكلمتي «صبر» و«اقتحام»، و لمقتضيات الصبر والاقتحام في عالم يفور ويثور ويمور. والأخت الصالحة مدعوة لكسب الفضائل ومقاومة الرذائل وامتلاك القوة الإيمانية الإرادية لتَرقَى صعُدا في معارج الكمال الروحي والكمال العلمي والكمال الخلقي والكمال الجهادي.

قدمنا في هذه الفقرة الأولى من الفصل الأول الحديث عن القوة الذاتية للمؤمنة والمؤمن، لأن القوة الذاتية في خوض معركة الإسلام ضد الجاهلية هي العامل الحاسم. لأنها الشرط في تنزل نصر الله. أقصد بالقوة الذاتية قوة الإيمان الفاعلة المعزَّزَة بأخلاق الإيمان وإرادة الإيمان المتوجهة الوجهة المرضية عند الله، الواعية بصعوبة الطريق السعادي ووعورتها وعقباتها، السخية بالمال والنفس تبذلهما ثمنا بخسا لجزاء الغرفة والتحية والسلام والنظر إلى وجه الله الكريم.

وفي عشرات الصفحات التالية. إن شاء الله مجال فسيح لننظر في حاضر الإسلام والمسلمين، وحاضر العالم، وعقبات الواقع، ومغريات الهوى، ومسالك خطوات الشيطان، ومشاكل السياسة، وعويصات الاقتصاد، وتردي وضعية المرأة والرجل، وواجبات النهوض بالمسلمين، وملامح مستقبل تنذر بوادره بمعارك ضارية لابد للمسلمين والمسلمات من خوضها.

نقع في أُحموقة من الجهل بديننا إن نحن وقعنا في بسط مشاكل العالم حاضره ومتوقَّع مستقبله ساكتين عن الجوهر. والجوهر الجوهري هو معرفة إلى أين يسير هذا الذي ينطق بالإسلام، وهذه التي تهتف بحياة الإسلام، وهؤلاء الذين يرفعون الشعارات الإسلامية، ويعنفون أو يتسيسون، ويساومون أو يستعصون، ويقاومون الطاغوت الحاكم في بلاد المسلمين ويصانعون.

تلك وذاك وهؤلاء ما يحركهم؟ ما منتهى علمهم بالله؟ ما حقيقة إيمانهم؟ وما التربية التي تلقوها وأداروها فيما بينهم؟

أحموقة في الدين، وجهل بمعنى الجهاد، وتخل عن السلاح، وخوض في الباطل إن نحن قاومنا الطاغوت الخارجي و فينا، في نفوسنا، طاغوت الهوى يصول ويجول، لا ندري كيف نعالج سطوته، بل لا نعي أيَّ شيء يستبد بنا: أهو الغضب لله والاستجابة لنداء الله، أم هي غريزة الدفاع والمقاومة والتكتل ضد الظلم التي يستوي فيها الناس على صعيد الوطنية والإديولوجية والقومية؟

يهدد وِجهتنا وخلوص إرادتنا التسطح الـمُعدي مع النظراء والخصماء والأمثال والأضداد. في ميدان الاجتماعيات تتربص بالمؤمنات والمؤمنين دواعي القعود. في ميدان المواجهة تتربص بهما منازعة الأعداء والخصوم: تقرع ويقرع، يفعل وترد الفعل. فلا تشعر يوما إلا وقد طرحت فكرك وحدت عن وجهتك وتبنيت أسلوب الآخر واصطبغت بصبغته ولبست لبوسه.

قوم يريدون تغيير حال المسلمين بحمية. نساء فُجعن بفظاعات البوسنة والهرسك. طالبة تحجبت حماسا. أخرى تأثرت بموعظة. واحدة مات قريبها فانزجرت أياما وتخشعت.

مساكين هم، مسكينة هي: زارهم وزارهن طيف توبة لم تتحقق. واحدة ما فتحت المصحف، أخرى سمعت آيات الله تعالى تتلى فما وجِل قلبها ولا ازداد إيمانها. والكل يجري في تباشير الفجر الإسلامي على الأصوات العديدة للصحوة الإسلامية المباركة.

إلى أين و كيف؟ ما إرادتك وما قدرتك على الاقتحام؟ هذا أولا. والحمد لله الأول والآخر.

المنهاج النبوي و«نِحلة الغالب»

العقبة طريق صاعد وعر، أوعر ما فيه العقبة النفسية التي تعالَج بفضيلة الصبر، وخطوات الهوى والشيطان طريق منحدر سهل مفض إلى الهاوية مباشرة في السُّفل، ثم العقبة الخارجية الكونية وما تعج به من مغريات، وعدو متربص وخصوم وأصدقاء، وحاجات اقتصادية وصحية، وعوائق ترجع لتخلف المجتمع، وأخرى تنتج عنه وتتجدد.

والمرأة أمام العقبة المزدوجة بين باعث يدفعها لفعل الخير وخاذل يثبطها. الخاذل عميق الجذور في الفكر والعادات والفقه المنحبس الذي رسخ في المرأة على مر العصور الانحطاطية الشعور بالدونية والعجز، وكسر ثقتها بنفسها وبربها. بترت منها حاسة المسؤولية خارج نطاقها الضيق وأشغالها الخاصة وهمومها وآلامها وأميتها.

والباعث نداء الإسلام الأصيل، خفت صوته زمنا طويلا، وهو اليوم كلمة تسمعها المرأة ويسمعها الرجل فيصحوان ويسألان: ما العمل؟ وما الطريق؟

في الفقرة السابقة قرأنا أن نداء الله عز وجل للعباد ذكرانا وإناثا هو أن اقتحموا العقبة. واقتحامها «توسط شدة مخيفة». اقتحامها جهاد وصعود وعر وضبط نفس وحملها على السير. اقتحامها صبر النفس بالمعنى الذي قرأناه. والوِجهة الله تعالى ورضاه، والجائزة الغرفة والتحية والسلام. والمعيار العقل والشرع. والشرع سبيل ومنهاج. ما العمل؟

ما تغني المزايا والفضائل النفيسة والأخلاق التي يستبطنها عباد الرحمن إن لم تتحقق في عمل يتقبله الله. وهو سبحانه إنما يتقبل من المتقين. والمتقون هم جمع، رجالا ونساء، من المؤمنين ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا**

رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.[1]

افتحي مصحفك يا أخت الإسلام واقرئي من أول سورة البقرة. وانظري كيف تَسامت صفات المتقين أعمالا قلبية اعتقادية جوارحية ليتوجها ويطبعها بطابع الكمال اليقين بالآخرة. اليقين لا مجرد اعتقاد مضبب.

الموقنات بالآخرة والموقنون جادون لا يعبثون. فهن وهم يحتاطون أن لا تَحبَطَ أعمالهم، فيتقون الله لتُودَعَ لهم في سجلات القَبول. ثم إنهن وإنهم يتوخون أفضل الأعمال، فيجدون أنها الأعمال المرتبطة بالفروض الجهادية.

واقرئي يا أخت الإسلام في سورة النساء قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.[2]

لو أصبح المسلمون فردا فردا على أتقى قلب واحد منهم، ولو اجتهدوا في الأعمال الصالحة الفردية ما اجتهدوا، ثم لم يؤلفوا قوة اقتحامية جماعية تكون المرأة فيها فعالة لفاتهم فردا فردا درجة الجهاد، ثم لفات الأمة ما فاتهم، ولتَرَدَّت الأمة بترديهم عن الدرجة العالية، ولتبدد حاضرها وضاع مستقبلها بتبدد إرادتهم وتشتتها.

ألِفنا فيما نقرأ من الأدبيات الإسلامية أن نتحدث كثيرا عن حال الأمة ومصيرها مفصولين عن حال المؤمنات والمؤمنين في الآخرة.

قوة اقتحامية لماذا؟ أولا لأنال أنا الدرجة عند الله. ما تربية الجماعة المقتحمة وتنظيمها وزحفها وانتصارها مما يعنيني في شيء إن لم يكن كل ذلك مما يقربني

(1) سورة البقرة، 2-4.
(2) سورة النساء، الآيتان: 95-96.

إلى ربي ليرفع درجتي عنده. هذا أولا وأخيرا. و أنا بعدُ حريص كل الحرص على إنجاح مشروع الأمة والنهوض بأعبائه. أحذر من مغاوي النفس أن يحبَط عملي لو اندفعت حميّة وحماسا هائجا.

يرسم منطق التقوى ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، ويرسم منطق الجهاد ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾ خطوط الطريق الصاعدة. فنستنير بالهدي النبوي لنتأكد من المنهاج التطبيقي بعد أن اطمأن قلبنا بما علمناه من كتاب الله تعالى أنها عقبة تقتحم.

المنهاج ما جاءت به السنة كما قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه وعن أبيه. وكلمة «منهاج» وردت في حديث نتخذه إماما، هو **قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد بسند صحيح ينتهي إلى حذيفة: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكا عاضا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت»**.

قال الحافظ العراقي: حديث صحيح. فنحن على موعد إن شاء الله مهما طال الزمن و مهما تعسرت الطريق ومهما تعوصت الأسباب.

ونصل إلى الشطر الثاني من عنوان هذه الفقرة (نحلة الغالب) لنفحص فعل الزمن الماضي الطويل وما يعسر من طريق وما يعوص من أسباب. نفحص ونعمق البحث في العائق النفسي والعقبة الذاتية، فينا أفرادا وفي الأمة جماعة. هذا أولا. لا أعني أن نوقف حركة الحياة وعجلة التاريخ وندخل في مصحة هادئة حتى نعالج أمراض نفوسنا ومجتمعنا. بل أعني الأسبقية الاعتبارية، والاهتمام المركز. والحياة متحركة، وعجلة التاريخ دائرة. وسط المعمعة لا خارجها. لا يستوي القاعدون والمجاهدون. تموت وتنتهي إن تخلفت عن ركب لا ينتظر.

عبارة «نِحْلَةُ الغالب» صاغها ابن خلدون رحمه الله وأودعها ملاحظته الثاقبة المشهورة التي تقول: إن المغلوب يقلد الغالب. ولنسمع كلامه.

قال رحمه الله في المقدمة: «فصل في أن المغلوب مولَع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده».

«والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقَر عندها من تعظيمه، أو لما تُغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب. فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به».

كلمات نتأملها لنكشف المداخل النفسية من تعظيم الغالب لقوته، ثم الانقياد له، ثم مغالطة النفس وإقناعها أن الغالب القوي أكمل، ثم رسوخ كل ذلك عقيدة، ثم انتحال جميع مذاهبه والتشبه به والاقتداء في الشعار والزي وسائر الأحوال والعوائد. ونزيد نحن: والثقافة والسياسة التابعة والاقتصاد الاستعماري وتبرج النساء وتفسخ الأخلاق. إلى آخر الأوبئة.

في فصل آخر من المقدمة يتحدث ابن خلدون رحمه الله عن «دين الانقياد». يقصد بذلك ما تتوارثه الأجيال الرازحة تحت نِير الملك العاض والجبري من عادة الخضوع للحاكم، إلى أن يصبح ذلك الخضوع عقيدة راسخة متجذرة في النفوس، لا تنكر ولا تغير ولا تتحدث عن إنكار النفوس المتدينة لذلك الدين المتدنية المنحطة.

النِّحلة لغة الدين. فهما مرضان في جسم الأمة ممتزجان في مرض واحد: مرض موروث عن انحطاط قرون، ومرض طارئ هو ما أصابنا من الاستعمار. هما دينان يصبان في عقيدة واحدة: دين الانقياد ونحلة الغالب حسب تعبير حكيمنا ابن خلدون رحمه الله. مرض ونحلة ساكنان في جسم الأمة وعقلها ونفسها.

في أسفار التاريخ وفي ذاكرة الأمة سرد لما ارتكبه الاستعمار ويرتكبه من مخاز ومظالم وفظائع. يا لَلمسلمين والبوسنة في هذه الأيام الأليمة تعاني ما لا يصفه القلم من عدوان مجرم!

تزول مع الأيام الآثار العمرانية الاقتصادية مما يجنيه الغالب في حق المغلوب. وتبقى الإصابات الذهنية النفسية الثقافية التي تخضع لها النفوس تتجرعها كرها، ثم تبررها مغالطة، ثم تتبناها تقليدا للنحلة الغالبة، ثم تصطفيها عقيدة ومذهبا ونمط حياة وأسلوب حضارة وغاية وجود. رواسب فينا متراكمة طبقا عن طبق.

مع الهوى الفردي ونزغات الشياطين يسكن في أعماق نفوس المسلمين مثبط التشبه وخاذل المماثلة. وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشبه بالكفار في أحاديث كثيرة أوصلها بعض الحفاظ إلى ثمانين حديثا.

«نحلة الغالب» ميل من نفس المغلوب وانهزام، حتى ولو لم تكن للغالب خطة «لتنحيل» المغلوب. فكيف والاستعمار الحاضر له خطة واستراتيجية وتكتيك للغزو الثقافي الاقتصادي السياسي، ووسائل إعلامية مالية عسكرية!

كيف والغالب أصبح له بين ظهرانينا من بني جلدتنا خلفاء ووكلاء متشبعون ومتشبعات بمذهبه وعاداته وفكره. مخلصون ومخلصات لقضيته في صميم الأمر وإن كانوا وكن يدعون الوطنية والنضال لنصرة القوم!

عصرنة لاييكية قبل كل دين. هذا نداء الغالب يردده بين ظهرانينا الوكلاء والوكيلات. و يدعو الله ربنا إلى اقتحام العقبة، ويرسم رسوله صلى الله عليه وسلم المنهاج الواعد بالرشد للأمة والفلاح للمتقين. فما مكانة أخت الإيمان من القوة الاقتحامية، ما حظها من الجهاد؟ ما نصيبها من حمل العبء الثقيل؟

المرأة كم مهمل
أو دمية معبودة مكدودة؟

انحطت المرأة المسلمة بانحطاط المسلمين. بدأ الانحطاط منذ تدهور نظام الحكم من خلافة على منهاج النبوة إلى ملك عاض وراثي بمقتضاه ينتخب الوالد ولده و يعهد إليه أمر المسلمين يورثه إياه كبعض ما يُوَرَّثُ من المتاع. ولم تلبث المرأة أن أصبحت سلعة في السوق وجارية في القصور ومحظية وكما مهملا. حتى إذا جاء عصر اللاييكية عصر وكلاء الاستعمار يبشرها بأنها دخلت عصر الحرية لتكون كمثيلاتها الكاملات في الغرب سيدة جسدها انتحلت المغربات نحلة الغالب، فهن داعيات مناضلات بجنب حقوق الإنسان، أي حقوق المرأة في أن تنعتق من ربقة كانت فيها كما مهملا وسلعة.

كيف حصل هذا الانحدار درَكا دون درَك؟

لم تنحط المرأة وحدها، بل انحطت بانحطاط المجتمع، وانحط المجتمع بانحطاط الحكم وانتقاض عروته، وانحبس الفقه، وسد باب الاجتهاد، ودارت الفتوى في حلقة ضيقة مقلدة، رابط في أركانها المركنة جهابذة العلماء للحفاظ على سائر عرى الإسلام أن تنتقض، ولصيانة الحياة في دائرة الشرع. وغفا العقل المسلم الذي كان ذات يوم رائدا في مجالات العلوم الكونية كما كان سابقا في فقه الشرع غفوته التي توشك أن تعقبها صحوة شاملة ونهضة عاملة وحرية حقيقية كاملة للمسلمة والمسلم.

مثالان على انحطاط المجتمع وحط المرأة وانحباس الفقه، مرتبطا ذلك كله بالمؤسسة العضية التي أباحت لحامل السيف أن يقتطع من البِلاد ما يدفعه لخلفه كما منقادا. المثال الأول الرق. والثاني عينيٌّ تاريخي.

والمثالان معا يعطيان صورة عن اشتباك شأن المرأة بشأن المجتمع بشأن الحكم. قضية المرأة المسلمة وقضايا المسلمين الأخرى شأن واحد. والحديث

عن تحرير المرأة وإنصافها، وعن تاريخ بلائها دون ربط ذلك بالسياق التاريخي السياسي الاقتصادي الفقهي الاجتماعي فصل اعتباطي لما لا ينفصل.

الرِّق مدرسة لتخريج المؤمنين والمؤمنات. أسير الحرب وأسيرته لا يحشرون في معسكرات، بل يوكل شأن المرأة منهم والرجل للأسر المسلمة لتحسن إليهما، ولتؤلفهما بالإحسان، ولتحبب إليهما به الإيمان. «**إخوانكم خولكم**» كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. «**النساء وما ملكت أيمانكم**» آخر وصية له. وأمر صلى الله عليه وسلم من بيده عبد وأمة أن يلبسهما مما يلبس وأن يُطعمهما مما يَطْعَم.

وأمر الله عز وجل أن تحرَّر الرقاب بمناسبات تتعدد في حياة المسلمين. فالفُرص لتخريج أفواج من المؤمنين والمؤمنات كثيرة. يرجع الرجل المحرر والمرأة إلى ديارهما وقومهما يحملان دعوة الإسلام وينشرانها بعد أن عاشا في الكنَف الرحيم الذي عاملهما المعاملة الإنسانية الرحيمة وآواهما بعد قسوة الحرب إلى ظله الظليل.

تدعو المرأة المحررة والرجل إلى دين أحباه ودخلا فيه لما أحبا أهله وعايشاهم ورأيا منهم من الخير وحسن المعاملة والإحسان ما عوضهما عن الأهل وأنساهما ماضيهما.

في تسع مناسبات أمر الله عز وجل عباده المسلمين بتحرير الرقاب. ذُكرت الرقاب مرة واحدة في القرآن مقرونة بالضرب. وذكرت الرقبة والرقاب تسع مرات مقرونة بالتحرير.

تحرير الرقاب كفارة للقتل، و كفارة للظِّهار، وكفارة لليمين. تحرير الرقاب يخصص له نصيب من ثمانية أنصباء من الزكاة المفروضة على كل مسلم ومسلمة يملكان نصابا. وانظر كم يبقى من أسير في بلاد المسلمين لو طبقنا شرع الله بروحه ومقصده التربوي السامي ووسائل تمويله الهائلة ومناسباته المتعددة اليومية.

فك الرقبة أول دليل على أن المؤمن والمؤمنة قد أخذا في اقتحام العقبة. وتقرأ أخت الإيمان سورة البلد. وهنا دعوة مفتوحة مطلقة لتحرير الإنسان بمناسبة

وبغير مناسبة. تحرير الرقبة قربة إلى الله تعالى وعمل صالح ونشر للدعوة وتزكية للنفوس المحرِّرَة والمحررة معا.

هكذا كان الهدف السامي. يشير إلى ذلك ويؤكده ويشرعه أن التحرير المعتبر شرعا المجزي هو تحرير الرقبة المؤمنة. المؤمنة لتحمل إلى الآفاق والأقوام دين الله، لا مجرد رقبة تتخلص من الأسر وتعود إلى كفرها وترجع إلى ديارها لتعزز جيوش العدو وملة الكفر.

هذا هو القصد السامي الشرعي القرآني. فكيف آل أمر الأرقاء المساكين إلى أن أصبحوا سلعة رخيصة في سوق النخاسة. وكيف تكيف الفقه ليواكب مصالح الناس لأن الأرقاء الذكور كانوا يدا عاملة مجانية، ولأن الجارية الحسناء بضاعة مطلوبة في الحريم؟ انحطاط لاشك. و يُسأل عنه أولا سكان القصور: هذا «الخليفة» له من الجواري خمسمائة للفراش، وآلاف من الوَخْش للخدمة. وذاك الغني أهدى لهذا الأمير مائة جارية. وهكذا.

المثال الثاني الذي يجمع في رمزية مركزة ملامح الانحطاط نأخذه من تاريخ ملوك الطوائف في الأندلس. ونتخذ الدكتور شلبي دليلا في كتابه «التاريخ الإسلامي».

يمتد عصر ملوك الطوائف من سنة 422 إلى سقوط طليطلة سنة 478 ثم إلى سنة 484.

ملوك الطوائف نموذج للحكم العاض في أكثر صوره انحطاطا، وتمزقا، وضعفا، ومغالطة، وتمالُؤاً مع الكفار ضد المسلمين، وانقيادا مع الهوى. كان التفوق الحضاري للمسلمين الموروث عن زمن عزهم على عهد الدولة الأموية ثم العامرية مانعا من أن ينتحل المسلمون «نحلة الغالب». لكن قاموس ابن خلدون تشرئب أعناق ألفاظه لتلتقم مجتمعا آئلا للسقوط.

يقول الدكتور أحمد شلبي عن عصر ملوك الطوائف: «عصر مليء بالاضطراب والفوضى والتناحر والقبلية الصارخة والأنانية الهدامة(...) وأصبح في الأندلس حوالي عشرين أسرة حاكمة».

تفتت، وأنانية صارخة، وعلى كل مدينة ملك، وتناحر، وقبلية. لو زدنا أوصافا أخرى مثل «قومية» و«لبرالية» و«اشتراكية» و«لاييكية» و«تبعية اقتصادية سياسية» لحسبنا أننا مع الحكام الجبريين المعاصرين.

ينقل الدكتور شلبي عن مؤرخ يدعى «ستانلي لين بول» صورة لذلك العصر ولأولئك الحكام، ولتلك الدناءة، و لتلك الخيانة. يقول شلبي: «يصور لنا ستانلي لين بول هذا العصر تصويرا دقيقا فيه عظة لمن يتعظ، وفيه ضوء لمن يحب أن يعيش في النور.(...) قال:

«تمزقت الدولة إلى إمارات صغيرة في الوقت الذي وحد فيه ألفونس السادس تحت إمرته استرياس وليون وقشتاله. وقد عرف ألفونس ما يجب أن يفعله تمام المعرفة، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمد حبله لملوك الطوائف مَدا كافيا ليشنقوا به أنفسهم».

«لأن هؤلاء الجهلة لم ينظروا في العواقب، ولم يُعْنَوْا إلا بأنفسهم، ولم يتركوا جهدا دون أن يبذلوه لإضعاف منافسيهم. وكانوا يجثون عند قدمي ألفونس لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين. وتقربت كل الدويلات إلى ألفونس بتقديم الإتاوات».

«وكان ألفونس يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته لأنها ثمن عطفه وحمايته...»

«وكان ألفونس يقدم خطوطه في كل فرصة، و يستولي على الحصون والقلاع واحدة إثر أخرى. حتى وثب وثبة استولى فيها على طليطلة سنة 478هـ. و قد أحدث بوثبته هذه فزعا كبيرا في صفوف المسلمين بإسبانيا».

قلت: وكان سقوط طليطلة إيذانا بسقوط الأندلس كلها بعد مقاومة المجاهدين من المرابطين والموحدين من عدوة المغرب طيلة أربعة قرون.

الرمز من هذا المثال هو أن حاكم طليطلة «القادر» كان يحمل في يده عندما أخبروه أنها الهزيمة والرحيل أُسْطُرْلابـًا يرصد به النجوم ليعرف الطالع السعيد لوقت رحيله. شعوذة وهزيمة وفُسولة وهِرَرَةٌ تحكي صَوْلة الأسد.

قل لي: والمرأة أين كانت في كل هذا؟ الجواب تقرأه في أشعار الغزل وأخبار الجواري والقصور. وتمر إلى أخبار الخيانة غير منفصلة عن أخبار المرأة.

فتقرأ في سجل الخيانة عن آخر ملوك الطوائف أبي عبد الله الذي باع كل المثل من أجل أطماعه الشخصية، وحارب أباه من أجل الملك، ووضع يده في يد حامييه وسيديه فِرْدِنَانْدْ وإيزابيلاًّ الكاثولوكية لإسقاط أخيه، وتصدت جيوشه لعمه. فلما انتصر النصارى ودخلوا غرناطة بعث بالتهنئة على النصر لفردناند.

وسجل عليه التاريخ خزي الدنيا عندما طرده فردناند. فبكى وفر إلى المغرب ليعيش متسولا مشردا. ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

ما فعله فينا الاستعمار

مد ألفونس لملوك الطوائف حبلا شنقوا به أنفسهم كما عبر المؤرخ. وأخضعهم بقوته العسكرية، وأخذ منهم الإتاوات، وضرب بعضهم ببعض.

وهذا كيد بدائي إذا قورن بالكيد الاستعماري المعاصر. في ذلك العصر كان للمسلمين تفوق حضاري كبير، فلم تكن الهزيمة إلا عسكرية وانحسارا عن الأرض، وهي خسارة فادحة. أفدح منها الانحسار والاندحار الشاملان في عصرنا أمام الغزو الثقافي العسكري الاقتصادي.

زاد من فداحته أنه أصاب فينا مقتلا هو قابليتنا للاستعمار على حد تعبير مالك بن نبي رحمه الله، ثم تفوق الغزاة علينا تفوقا ساحقا في ميادين العلوم والصناعة والتنظيم والاقتصاد والقوة العسكرية.

نقرأ في هذه الفقرة كيف وصلت دعوة «تحريرالمرأة»، وكيف وصل صوت الحريات الإباحية إلى ديارنا. في الفصل المقبل إن شاء الله نقرأ كيف يراد لنسائنا أن يكنَّ دُمى معبودة، ومعنى الدمية ومعنى العبادة. في فصل لاحق بإذن الله نرى كيف هي مكدودة متعبة موزعة الخاطر ممتهنة في الغرب امتهانا جذابا خداعا.

أين كانت المرأة المسلمة حين أخذ ذاك المأفون المهزوم أُسطرلابه يستشير النجوم في طليطلة؟ أين كانت حين قاتل ذلك الخائن الجائر أباه وعمه وأخاه وسلّم بلاد المسلمين في الأندلس لعدو المسلمين؟

كانت في الحريم مع مئات الجواري والأربع الحرائر التي يستبدل بقديمهن الجديد كما تستبدل الأحذية.

يَقِفُني هنا المعجب بالحضارة الإسلامية. وهي حضارة راقية بكل المعايير عدا نظام الحكم. ليسألني فيم هذا التحامل على تاريخ المسلمين والنقمة؟

أجيب أن هناك سببا رئيسيا وجيها حيويا هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمَّى النظام التسلطي غير الشوري ملكا عاضا. وبذلك جرَّحهُ بلغته العفيفة الـمُنيفة ليزيل عن أعيننا غشاوة التضليل والتزوير الذي سماه خلافة. فمن أصر على نعْت الحكم الأموي والعباسي إلى سائر ملوك العض باسم مزور فإنما يصر على أن تبقى على أعيننا غماضة وضعتها علينا الدعايات الملكية، وسكت عنها المسلمون هذه القرون محافظة وخوفا على وحدة الأمة.

فإن نحن تمادينا في إغماض أعيننا فهي مغالطة ودين انقياد وانجراف مع تيار الانحطاط لن نستطيع معه أبدا أن نبصر النور النبوي من خلال غيوم تاريخنا. ومن ثم فلن نستطيع أن نتبين طريقنا إلى مستقبل الخلافة الثانية الموعودة، تجاوزا «لنحلة الغالب» وتعتيم الغزو الثقافي.

ما قبحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغته العفيفة الرؤوفة لم أكن لأُحَسِّنه. فإنما أنا متبع لإشارته صلى الله عليه وسلم، أتتبع مواطن النهش والخدش والتزوير والخيانة في تاريخنا، غير مستهين بشيء من جهاد المسلمين وإنجازاتهم الرائعة وعلومهم العظيمة وصداهم الفخم الكريم بين مآثر الأمم.

إن انصياعنا مع الممجدين للخلافة المزعومة ومكابرتنا في الدفاع عنها، متترسين بالأحاديث النبوية الواردة بالسمع والطاعة لأولياء الأمور، إنما هو مغالطة وتبرير ورثاء للنفس.

من يخاصم دعاة التغريب والإباحية واللاييكية والإلحاد وظهره مستند إلى ركن الانحطاط في تاريخنا ومنبعه، فإنما يريد العودة بالمرأة المسلمة إلى عصر الحريم والجواري، ويريد بالمسلمين الخلود تحت وطأة حاملي الأسطرلاب. في عصرنا يتخذ الحاكم العاض مستشارا له في رصد الطوالع واستشارة النجوم في باريز ولندن. ترقينا!

إن اتكأنا على «دين الانقياد» -وهو الخضوع المذهبي والعلمي لتاريخ الحكم العاض ومخلفاته وحاضره- فإنما نستند إلى باطل. معنا سلطان الإدانة النبوية. فمقاومة «نحلة الغالب» الإباحية من جانب الباطل غلط ومغالطة، واسرد ما شئت من القاموس الخلدوني الفَطِنِ.

تاريخنا جزء من كياننا لا ننكره. بل نعتز بصمود المسلمين أمام موجات حاملي السيف، وبما حققه المسلمون رغم فساد القمة. رغم!

أستغفر الله العظيم. هو سبحانه حفظ دينه بعنايته، عبر الفتنة المقدرة بحكمته. الخلق خلقه، والبلاء بلاؤه.

إذا تقرر هذا في أذهاننا، فإن ما فعله فينا الاستعمار يأخذ مكانته وحجم مسؤوليته عن حالنا. ويكون فقه ذلك وترابطه وتداخل أمراضه بأمراضنا الموروثة عن الانحطاط مفتاحا للمستقبل على منهاج النبوة وجِلاء عَين وتحرير عقل.

إن الحكام المعاصرين على رقاب المسلمين صورة لملوك الطوائف الانهزاميين، والتجزئات القطرية المعاصرة ما هي إلا فتل في الحبل الذي يمده لنا الاستعمار المعاصر لنشنق به أنفسنا. أجيلي النظر وارجعي البصر هل ترين من الحكام العاضين على رقاب المسلمين من وصل إلى الحكم بغير القوة العسكرية مباشرة أو وراثة عن جدود. يورث الشعوب الإسلامية والد لولده؟ لا يوجد.

صبرا يا أخت الإيمان، فنحن مع قضية المرأة ومع التغيير الشامل، لا سبيل إلى إنصاف المرأة وتغيير ما بالأمة إن لم نغير ما بأنفسنا. والخطوة الأولى إلى الشفاء معرفة الداء. وأخت الإيمان معنية بالعملية أول من يُعْنَوْن.

قال رائد الصحوة الإسلامية الأستاذ حسن البنا رحمه الله في رسالته «بين الأمس واليوم» يصف ما فعله فينا الاستعمار: «و قد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة جميع البلاد الإسلامية.(...). وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي إحكاما شديدا، واستعانوا بدهائهم السياسي، وسلطانهم العسكري، حتى تم لهم ما أرادوا.(...). وتمكنوا بعد ذلك من أن يغيروا قواعد الحكم والقضاء والتعليم. وأن يَصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصبغتهم الخالصة في أقوى بلاد المسلمين (يعني تركيا وما فعله مصطفى كمال).

وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات، وخمورهم، ومسارحهم، ومراقصهم، وملاهيهم، وقصصهم، وجرائدهم، ورواياتهم، وخيالتهم (لعله يعني السينما)، وعبثهم، ومجونهم. وأباحوا فيها من الجرائم ما لا يبيحونه في ديارهم.

«وزينوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة التي تعج بالإثم وتطْفَحُ بالفجور في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء وذوي الرأي فيهم، وأهل المكانة والسلطان».

«ولم يكفهم هذا حتى أنشأوا المدارس والمعاهد العلمية والثقافية في عُقر ديار الإسلام، تقذف في نفوس أبنائه الشك والإلحاد، وتعلمهم كيف ينتقصون أنفسهم، ويحتقرون دينهم ووطنهم، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ما هو غربي، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة».

قلت: تأملي أخت الإسلام هذا الوصف المركز «لنحلة الغالب» من رجل عانى وكابد وجاهد. الحرقة على دين الله تكاد تخرق الطروس. والإدراك العميق لعملية الامتساخ النفسي للمستَعْمَر المستحمر. والوسائل المكونة لحبل الشنق الممدود.

قال رحمه الله: «واحتوت هذه المدارس على أبناء الطبقة العليا وحدها، وصارت وقفا عليها. وأبناء هذه الطبقة هم العظماء والحكام ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هذه الأمم والشعوب. ومن لم يتِمَّ نضجه في هذه المعاهد الموضعية، فإن في البعثات المتلاحقة ما يكفل لهم بالتمام».

قلت: ما فعله فينا الاستعمار من تخريب الديار وقتل الأنفس ونهب الثروات أمر هين وإصابة في الحواشي. لكن النكاية العظمى والمكر الماكر والداهية القاصمة هي إصابة الأجيال التي فتحت أعينها على النموذج المتفوق، ودربتها المدارس، وعلمتها الكتب، وتمثلت أمامها الحضارة الغازية في النساء الكاسيات العاريات، والمراقص والسنمات. وتمثلتها الثقافة الواردة، وابتلعتها، وشوهت فيها الفطرة، ومحت العقيدة، ودمرت الشخصية.

قال رحمه الله: «ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح. فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب، طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري أضعاف الأضعاف».

قلت: رحم الله رواد اليقظة الإسلامية ما كان أدق نظرهم، وأبعد مرمى بصرهم. ونحن نرى بعد خمسين سنة ويزيد على كتابة هذا الإنذار بالوباء «الطويل العمر القوي الأثر» كيف تربع خريجو مدارس التغريب على كراسي الحكم ومنصات الجامعات ومواطن اتخاذ القرارات والتوجيهات. فمن الفقه العميق لما حل بنا من انحطاط أمس البعيد والقريب يبدأ التغيير. والله العلي القدير.

«تحرير المرأة»

كان عنوان الكتاب الذي خرج به قاسم أمين على المسلمين في مصر «تحريرالمرأة» سنة 1899. كتاب أحدث في زمنه زلزالا فكريا ورد فعل عنيفاً من جانب العلماء الفضلاء. ولقي من الجانب الآخر، من النساء المقهورات الرازحات تحت نير التضييق والجهل، المكتشفات لأضواء المدنية الغربية الجذابة، إقبالا. جعلنه لواءً يقاتلن تحته ويناضلن.

فلما بلغ الإفساد التغريبي أشده، وبرزت الدعوة الإسلامية، مالت على التبرج وميوعة المرأة وتمييعها تشديدا معاكسا، مستندة في ذلك على أضيق التأويلات الفقهية وأعسر المذاهب في حق المرأة، حتى لم يبق للمؤمنات متنفس بين ميوعة أولئك وتشديد هؤلاء.

وقيض الله الشيخ عبد الحليم أبا شقة فجمع في دراسته الجليلة تحت عنوان «تحرير المرأة في عصر الرسالة» من نصوص الكتاب وعمل السنة من البخاري ومسلم ما جلّى به صورة من حياة المؤمنات على عهد النبوة هي أبعد ما يكون عن فقه سد الذرائع واتقاء الفتنة الذي حشر المسلمة المتمسكة بدينها في ركن حرج مَرِج.

يطول القول وتبعد الشقة لو جئنا نستعرض كيف دخل علينا الكفر، وأنشب الغزو الاجتماعي المميع أظفاره في كل قطر قطرٍ من بلاد المسلمين. فالمستعمر الغازي واحد النية والأسلوب، أنجليزا كان أو فرنسيسا أو طليانا. والمسلمون حين فاجأهم من بأس أوربا وسطوة صناعتها وبهرج حضارتها متحدون في معاني التخلف ومظاهر البأساء والضراء.

الطبقة التي استسلمت وانقادت وتميعت ووقفت من الوافد الغازي موقف الاندهاش ثم الانخذال ثم الخنوع أو الانكماش أو الاستباق إلى الهاوية تتميز بنفس الخصائص.

سواء في ذلك النساء والرجال. سواء في ذلك الزعيم القومي التركي ضياء كوك ألب الذي دعا إلى الانسلاخ عن التقاليد أي الإسلام، والانخراط في الحضارة الغربية.

ومثله سيد أحمد خان في الهند الذي بدأ حياته مصلحا مسلما، ثم عاش في أنجلترا سنوات حيث عاشر الطبقة الراقية وغشي القصور ومحافل الكبراء والمفكرين، وافتتن وانقلب على عقبيه، ثم رجع إلى الهند وقد تغلغل الإلحاد والدهرية في أحشائه، مع زعمه أنه يدافع عن الإسلام.

تلك الطبقة المنبهرة بأضواء المدنية البهرجية وعلومِها وسلطانها وقوتها قوم بعضهم من بعض، تضاءلت في نفوسهم دواعي الإيمان، وتضخمت صورة الحضارة المادية الماثلة بعزتها وفنونها وإغرائها وأفكارها وفلسفتها ونمط سلوكها. فمحقت في نفوسهم معالم ما كان معهم من إسلام موروث، وفتحت للرجال والنساء المندهشين المائلين المتسوقين أبواب الافتتان مترعة.

وقام في وجه التغريب والتمييع و«تحرير المرأة» علماء وفضلاء وكتاب وشعراء في الهند وتركيا وإيران وسائر بلاد الإسلام. و أشد ما كانت المعركة في مصر.

فنخلص إلى معترك قضية المرأة وتحريرها بَدْءاً بهذه الملاحظة الجوهرية، هي أن المرأة المراد تحريرها لا تنتسب في عبارة القول لشيء غير جنسها. فهي امرأة من مصر أو الهند أو تركيا صلتها ببنات جنسها في باريس ولندن وروما هي بطاقة تعريفها، بقطع النظر عن كل دين. الدين أمره منسي لا يذكر في المحافل الحضارية. الدين عيب. وفي أحسن الأحوال مسألة شخصية.

عاد رافع رفاعة الطهطاوي من بعثة كلفه بها محمد علي حاكم مصر وأحد أبالسة الحكم العاض بعد أن قضى بباريز أربع سنوات. فكان الداعية الأول والنافذة الأولى للمصريين وللعرب على بلاد الكفار.

ثم كان أول من رفع الشكوى ضد مظلومية المسلمات رجل نصراني قبطي يدعى مرقص فهمي، فلقي سندا وتأييدا من القصر وأميرته نازلي.

ونصل إلى صاحبنا قاسم أمين الذي أخرج كتابه «تحرير المرأة». انزلق قاسم أمين شيئا فشيئا حتى تبنى كل أفكار مرقص مستشهدا بالقرآن والحديث مؤولا مبررا. انزلق كما انزلق طغام الناس لقوة النموذج الماثل بجسمه في شوارع القاهرة ودواوينها ومحافلها. مشاهد النساء الإنجليزيات الكاسيات العاريات وغيرها من مشاهد المنكرات كانت تقشعر منها الجلود وتجفلُ النفوس. ثم ألفت العيون المنكر فأصبح معروفا، وقبلت النفوس الهزيمة فباتت فضيلة، وانتحل الناس «نحلة الغالب» دينا، أو انكمشوا -عامتهم وطغامهم من النساء والرجال- في «دين الانقياد» وصمت الخمول.

وتقرأ حيرة عقلاء المسلمين وتذبذبهم بين إسلام موروث ونموذج فاتن في شعر أعظم شعراء العرب أحمد شوقي رحمه الله. بعض قصائده تمثل القمة الشامخة في التعبير عن الولاء للإسلام مثل «نهج البردة». وبعضها من الوطنيات التي يشيد فيها بالزعماء تمت إلى الوثنية بصلات. وهو بين ذلك يسخر من قاسم أمين ويدافع عن الحوزة فيقول:

ولك البيان الجزل في ... أثنائه العلم الغزير
في مطلب خشن كثـ ... ـير في مزالقه العثور
ما بالكتاب ولا الحديـ ... ـث إذا ذكرتهما نكير
حتى لنسأل هل تغـ ... ـار على العقائد أو تُغير

انتقلت فكرة السفور و«تحرير المرأة» من مجال النظر إلى مجال التطبيق على يد الزعيم سعد زغلول بعد أن شاركت المرأة المسلمة الوطنية في نضال 1919 بتاريخ النصارى. في محفل عام كشف الزعيم بيده حجاب المناضلة هُدى شعراوي التي تمثل رمز تحرير المرأة. حملت لواءه، وتناولته من بعدها أيد عابثة،

ثم أيد فاجرة كافرة من مثل ما نشاهد في بلاد المسلمين من صحفيات وأستاذات وفنانات وطبيبات ومحاميات تمردن على إسلام أمهاتهن، وتمردن على المجتمع الرجولي الذي قهر المرأة المسلمة فعلا. فهن ينبذن الإسلام ويرفضنه، ويعتنقن قومية المرأة وعالمية حقوقها، ولاييكية ديمقراطية تنصفهن وتمكنهن من ملكية جسومهن يفعلن بها ما يشأن.

وصل الغزو الثقافي أوجَهُ في مصر عندما أقنع المخططون الإنجليز بالكلمة النافذة والسلطان المنفِّذ بضرورة «إصلاح» الأزهر، هذا «الوكر الخطير للتعصب الديني». أقنعوا المسلمين أن دينهم لن يبقى حيا إن لم يفهموه فهما يتفق مع الفكر العلمي الصائل الهائل.

وكُلف الشيخ محمد عبده رحمه الله بالإشراف على «الإصلاح». فنصب الشيخ الجليل رحمه الله على رأس الأزهر وأجهزته «متنورين» ما لبثوا أن تناولوا الإيمان بالغيب بملقط الفحص المخبري، ونظروا إليه تحت مجهر التجربة الوضعية. ولم يسلم الشيخ الجليل غفر الله لنا وله من لطمة الاندهاش العام، فلحق بذلك أعلى مرجع في البلد بالشارع والمتعرجات فيه المتبرجات.

ما يحبس البلاء أن يتقاطر ويهطُلَ على العامة إذا كانت المظلة العالمة التي تحمي العقيدة قد تثقبت وتخرمت؟ ينعت الغالبون المختالون بعلومهم وقوتهم وسطوتهم الإيمان بالجن والشياطين والملائكة نوعا من الخرافة البدائية التي تليق بقبائل أفريقيا المتوحشة. فيؤوِّل الشيخ غفر الله لنا وله الطير الأبابيل والحجارة من سجيل الوارد ذكرها في سورة الفيل بأنها جراثيم مرض الجُدَري مثلما يؤول المستشرقون، ويتقدم العبدَوِيُّون من مدرسة الشيخ ليزعموا أن الجن ما هو إلا عبارة عن مكروبات خفية.

ويكتب حسنين هيكل كتابه «حياة محمد» (أقول صلى الله عليه وسلم) ليبرزه بطلا عبقريا عظيما، وقائدا محنكا، وما شئت من أنواع الاعتزاز. إلا أن تقول إنه نبي ورسول يوحى إليه، فذلك مما يطعن في عقلانيتك، ويُريق ماء وجهك أمام أرباب العلوم.

نعم، عندما تلعب الشياطين بالغربيين، وتحرك لهم المقاعد والموائد، ويصرح مشعوذوهم المحترمون بأن العملية تحضير أرواح، يومئذ لا بأس بالحديث عن شيء من الغيب يشبه ويردد في لغة محلية مقبولة المقولات الرائجة في الوسط الراقي الأوربي. أما أن تسبق خطوة فهو حمق و بلادة.

عن النبوة يكتب الشيخ محمد عبده غفر الله لنا وله ما يلي. وأنقل عن الكتاب القيم للدكتور سعيد رمضان البوطي «كبرى اليقينيات الكونية».

قال: «أقول: قد يُعرَّف النبي بإنسان فُطر على الحق علما وعملا. أي بحيث لا يعلم إلا حقا ولا يعمل إلا حقا على مُقتضى الحكمة. وذلك يكون بالفطرة. أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر. فإن فطر أيضا على دعوة بني نوعه إلى ما جُبل عليه فهو رسول أيضا. وإلا فهو نبي فقط».

فطرة. كلمة مبهمة. لا تتحدث عن الوحي فيستحمقوك.

من هذا العقل المتخلف الذي يتحدث عن الوحي وجبريل والمعجزات والغيب! أيهما يمثل الدرك الأسفل في الهزيمة: نساء تبرجن وتمردن، أم حكام انخذلوا، أم مثقفون ابتلعوا، أم علماء خنسوا!

الدعاة على أبواب جهنم

روى الشيخان وأبو داود عن حذيفة قال: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**». قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دخَن**». قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**». فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**». فقلت: يا رسول الله: صِفْهم لنا. قال: «**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**». فقلت: يا رسول الله، فما ترى؟ -و في رواية: فما تأمرني؟- إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفِرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**».

المقصود من هذا الحديث العظيم الذي ينير لنا تقلبات التاريخ بومضات من الوحي أن نعيِّن بالنوع أولئك الفعلة القوّالين الذين نزلوا بالخير الذي هو النبوة والخلافة الراشدة إلى شر الفتن التي عرفها المسلمون في فتنة قتل عثمان ثم علي رضي الله عنهما حين نزا بنو أمية على الحكم. ثم معرفة من فعل ومن نظَّر ومن برر نظام حكم السيف جيلا بعد جيل، ودخَنا بعد دخن، حتى تسلط على المسلمين جبابرة مثل عبد الناصر، وسفاحون مثل ما ترين من معاصريك، وزنادقة ومنافقين يُصَلّون لكِ على التلفزيون، وملاحدة مثل مصطفى كمال أتاتورك.

الدَّخن في اللغة الكدورة في شيء غير صاف ولا خالص. وأصله من الدخان، وأصله من كدورة اللون في الدابة.

مصطفى كمال الذي سمى نفسه أتاتورك -أي أب الأتراك- تربى منذ شبابه على أفكار داعية التغريب والانسلاخ عن الدين ضياء كوك ألب الذي كان يتنبّأ بسقوط الدولة العثمانية.

ذلك كان يتكلم ويكتب وينظر. فلما وصل الطاغية العسكري مصطفى كمال إلى الحكم متوجا بتاج البطولة، بعد أن قاوم الجيوش الأوربية بنجاح، فعل وطبق الآراء وسن لمن بعده من الطواغيت سنة الجرأة على الدين، وسفك دماء المسلمين، وتحويلهم بقهر السلطان عن الملة.

كان السلطان العثماني تحالف مع الألمان في الحرب العالمية الأولى. فلما انهزم الألمان هجم الفرنسيس والأنجليز على الأمبراطورية العثمانية المتداعية للسقوط بعد أن شاخت وهرِمت. فقاوم الجنرال مصطفى كمال مقاومة الأبطال حقا. لكنه ما فرغ من الحرب والصلح على إبقاء تركيا حرة بعد تجريدها من أطراف الأمبراطورية في البلقان وفي بلاد العرب حتى أخذ الجنرال يطبق أفكار معلمه بقوة ونشاط، وحتى قوض ذلك البناء الذي كان يوما شوكة الإسلام.

بدأ مصطفى كمال قتاله للدين ومؤسساته ورجاله متوجها لإبادة الدين وتحريمه والقضاء على التي تؤمن أن هناك إلها. وتأله هو ودعا الناس إلى عبادة الإله الأعظم. الحضارة الغربية بكهربائها وعلومها وصنائعها وسلاحها ونظامها، وخمرها أيضا ودعارتها، فقد كان عربيدا فاجرا لا يتستر عن فواحشه كما لا يستر استهزاءه بالإسلام.

استدعى شيخ الإسلام يوما، فلما خالفه في الرأي رماه بالمصحف على رأسه. وفزع المسلمون للخبر، لأن إهانة المصحف جريمة لا يخطر على بال مسلم أن يتجرأ عليها مجنون، فكيف برئيس الدولة.

وفرض تغيير اللباس: حرم العمامة على الرجال والحجاب على النساء. وأمر الرجال بلبس القبعة والنساء بنبذ الموضات البالية. وكانت الحرب التي شنها على العمامة والحجاب حربا دموية. ثار الشعب التركي المسلم واضطرب، فرُكبت المحاكم، ونصبت المشانق، وأعدم العلماء.

قرر الطاغية الضيق الفكر القوي الإرادة أن يحرر تركيا من ماضيها «المتعفن» وأن يقطع صلتها بالإسلام، فحرم الحرف العربي، وفرض الحرف اللاتيني. وبذلك استغنى عن إحراق خزائن الكتب الزاخرة العامرة.

سهر على إنشاء المدرسة اللاييكية التي تناهض الدين، فنشأ جيل علموه أنّ أباه هو مصطفى كمال صاحب الأمجاد البطولية. وقهر المسلمين على تغيير عاداتهم ونمط حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية ليماثلوا الحضارة الغربية السيدة التي كان بها مغرما ولها وليا.

كان الطاغية يرفع قبضته إلى السماء ليهدد ربا لا يؤمن بوجوده.

الآن وقد مضى سبعون عاما على جريمة الطاغية الشنيعة، أبى الله عز وجل إلا أن يبعث في الدعوة الإسلامية التي لم تمت يوما حياة جديدة. فالحركة الإسلامية في تركيا من أنشط الحركات وأقواها. والحمد لله رب العالمين.

هذا هو النموذج الكامل للدعاة على أبواب جهنم. كافر صرف.

ومن المنافقين من لا تقل نكايته في الإسلام عن نكاية الكافرين. وهل لبورقيبة حظ في الإسلام وقد أمر بترك صوم رمضان وفعل الأفاعيل؟

كان في تونس نسخة من قاسم أمين محرر المرأة ومدمجها في حزب الإناث العالمي. رجل اسمه الطاهر الحداد، يدافع عن المرأة، ويشجب استعباد المدنيات واضطهاد البدويات، ويدافع عن الفتيات العاملات بأجور بئيسة في الخياطة والخدمة في البيوت. ويحارب الحجاب الذي شبهه بكُمامة توضع على خرطوم الكلب. واحتج على ضآلة نصيب المرأة في الإرث وعلى الحق المخول للرجل في الطلاق.

وتمضي خمس وعشرون سنة بعد أن نشر الحداد أفكاره، يقضيها المحامي المناضل الحبيب بورقيبة في مصاولة الاستعمار. وتستقل تونس وينتصب الزعيم «المجاهد الأكبر» كما يسمي نفسه على رأس الدولة.

قبل الاستقلال كان بورقيبة يخطب ويكتب أن محافظة التونسيين على تقاليدهم هي الضمان لبقاء شخصيتهم، إذ هي السمة المميزة لهم، والحماية الأخيرة لهويتهم القومية المعرضة للخطر. عندما يتحدث هذا الصنف من المغربين عن

«التقاليد» فإنما يقصدون مجموع العادات ومنها الدين وطقوسه التي لا تعني شيئا زائدا عما تعنيه كيفية اللباس وفنون الطبخ.

بعد خمسة أشهر من استقلال تونس سنة 1956 بتاريخ النصارى أصدر الزعيم قانون حقوق المرأة الذي يُعد إلى الآن أكثر القوانين في بلاد المسلمين جرأة على الشرع وهتكا لحرمته. حرم تعدد الزوجات وفوض الطلاق للمحاكم. وبما أن في هذا القانون بعض إنصاف للمرأة مثل حقها ألا تطرد من بيتها عند الطلاق فقد لقي القانون من النساء قَبولا حسنا، مر باطله في خفارة حقه.

والحركة الإسلامية التي اضطهدها بورقيبة وحاكم رجالها كانت في حرج لتميز خبيث كفريات بورقيبة من إنصافه. وخرِف بورقيبة وطرده من الحكم جنرال طاغية فعل بالإخوان الإسلاميين ما فعله مصطفى كمال بعلماء تركيا. دمره الله.

اتخذ بورقيبة من قانونه مطية لترويج أفكاره، وتوطيد مكانته وزعامته، ونيل الحظوة عند الأوربيين غرمائه بالأمس أصفيائه لما اطمأنوا إلى أن البورقيبية أضمن لمصالحهم من الاستعمار المباشر، وأسرع في تدمير الإسلام والمسلمين.

سعى بورقيبة في البلاد طولا وعرضا يصرخ ويشتم ويدين استعباد المرأة وحجبها وسجنها في البيوت وحرمانها. ويسخر من العلماء الذين كتبوا عرائض ضده. ويزعم أنه هو الأحق بالاجتهاد لأنه بذل من حياته وجاهد لنيل الاستقلال ما لم يفعله هؤلاء الخاملون العاكفون على فقه عتيق رديء.

ويثور على تقاليد العفاف في المجتمع، ويصرح أن معطيات العلم تحرم علينا أن نضفي على قطرات دم تسيل ليلة الزفاف الأهمية التي تعلقها عليها التقاليد.

الحجاب عنده «كفن أسود» و«خرق بالية».

عاش بورقيبة في فرنسا ورجع يتأبط الفرنسية ماتلدا التي كانت شريكته في نضاله. فلما اضطر لمفارقتها حين أصبح رئيس دولة اختار أكثر النساء عُريا وتبرجا.

أكل في نهار رمضان وأمر الناس بالأكل وأرغم عليه الجيش. وطالب بحقه في الاجتهاد محتجا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفطر وأصحابه في رمضان ليَقْوَوْا على جهاد الكفار. ومن الجهاد أن لا ينزل مستوى الإنتاج ليقوى التونسيون على جهاد عدوهم المتمثل في الفقر والذل والانحطاط والتخلف.

الفقه الإسلامي عند هذا المجتهد الفذ مهزلة. فهو وأمثاله دخَن في الإسلام ومدسوسات جَهنمية شيطانية عند رأس المسلمين. اتكأ مصطفى كمال على بطولته العسكرية، وبورقيبة على زعامته الوطنية، فنفذا ما كان يحلم به الكتبة الأدباء المغربون. ويتخذ القوالون من المجرمين والفعالون قضية المرأة ومظلوميتها راية ليحاربوا من خلفها الإسلام. ألا ساء ما يزرون.

الدرجة

عالج دعاة «تحرير المرأة» وبغاة تدميرها أوضاعا للمسلمات مزرية بئيسة. كلمات حق أريد بها باطل هي كلماتهم عن إنصافها. لو كانوا حاكموا مظلومية المرأة ولو يحاكمها معاصرونا من صنفهم إلى الكتاب والسنة لقلنا مرحى. لو ردوا الاجتهاد إلى المؤهلين له أو لو اكتسبوا هم المؤهلات الاجتهادية وفي مقدمتها التقوى والعلم لقلنا نعِما فعلوا. لكنهم يحاكمون الإسلام والفقهاء إلى الحريات الغربية، ويدعون إلى الانسلاخ عن الإسلام، و«يجتهدون» رائدهم التطور ومراجعة الدين لإخراج الدين وإخراج المرأة المسلمة من «دياجير» الإيمان بالغيب والطاعة لله ورسوله.

نعم، المرأة المسلمة كانت مظلومة ولا تزال، هي زميلة الرجل المسلم في ما تعانيه أمس وهي سجينة أمية، واليوم وهي بين نار الدعوة التغريبية ورمضاء المخلفات الانحطاطية. ما من شكوى يبثها حال المرأة المسلمة ويلغط بها دعاة «تحريرها» أمس واليوم إلا ولها نصيب كبير من الصحة: استعباد المدنية، والمعاملة المهينة للبدوية، والأمية الأبجدية، والجهل، والأجور البئيسة، واستغلال الصبيات في معامل تأكل من عرقهن البطون الحرامية، والتعدد الاعتسافي، والطلاق الجائر، وإكراه الفتيات على الزواج، والتحايل على نصيب المسلمات من الإرث. والقائمة طويلة.

لكن ما بالنا نطوي هذه المآسي في كُم النسيان ونسكت عنها ليشتد عويلنا فقط على مآسيها الطارئة: التبرج، والخلاعة، والدعارة، والجرأة على الدين، وزندقة الزنديقات، والتمثل بالأوربيات؟

ما طرأت هذه المآسي إلا لأن تلك القديمة المقيمة لم تجد حلا من صميم الفقه الإسلامي وعمل الحاكم الإسلامي. عاث إفسادا في الأرض مصطفى

كمال وبورقيبة، وفجر قاسم والحداد، واستجابت طائفة من النساء وتطلعن لمنقذ يكذب عليهن باسم الإسلام فيصدقن لجهلهن، ويسوقهن بعصا الطغيان، ويمنيهن بوعود، ويقنن لهن أن من حقهن أن لا يطلقن ذات ليلة فيُخرجن من بيوتهن مع سرب من الأطفال والرجل في دفء بيته.

ظُلامات المرأة المسلمة يجب أن يفحصها الإسلاميون جميعا مع مآخذ الإسلاميين على إصابات التمييع والتغريب، لا منفصلة عنها. يجب أن يرسموا منهاج الحل العملي لما وقع على المرأة المسلمة من غبن التقاليد وما يقع عليها من مسخ التغريب والتعصير. هذا المسخ ما تمكن إلا لمكان ذلك الغبن.

إن لا نفعل فإن الظلم المتفاحش اللابس ثوب الاجتهاد زورا، المقلد لفقه واقعي متشدد مهمل للمرأة، فإن المرأة المسلمة تتجنس بالجنسية العالمية، وتنخرط في حزب المرأة العالمي بعيدا عن كل دين.

وأنت يا أخت الإيمان لو قرأت في فتوى الفقه المنحبس ما يخالف صريح السنة وصحيحها ماذا كنت تتبعين؟

يدور نضال المدافعين عن حقوق المرأة من جانب التغرب والإباحية حول مطلب محوري هو المساواة بين الرجل والمرأة. ومن ثَم شطب كل الأحكام الخاصة التي أفردت بها الشريعة المسلمات بَدْءاً بإنكار أن للرجال على النساء درجة.

إن الإيمان بدرجة الرجال على النساء إيمان بالقرآن، والكفر بها كفر بالقرآن. فهذا فيصل ما بيننا وبين أعداء الدين. الدرجة للرجال على النساء مزية ثابتة بالكتاب والسنة. قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[1] جاءت الآية في سياق أحكام الطلاق. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الفقهاء. فتثبت الدرجة للرجال في الشأن الخاص في الحياة الزوجية، وفي الشأن العام في الحياة السياسية الاجتماعية.

(1) سورة البقرة، 226.

لكن ما مضمون هذه الدرجة؟ أهي براءة تمنح للرجل وتفويض لكي يدوس المرأة تحت قدميه أم هي مسؤولية رعاية أمينة و قيادة رحيمة؟

القرآن حمال أوجُهٍ كما قال الإمام علي كرم الله وجهه. والسنة القولية والفعلية هي الضابط والتفسير والنموذج التطبيقي.

السنة تقول: «**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. فالإمام الأعظم الذي على الناس راع، وهو مسؤول عن رعيته. والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم**». الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متفق عليه.

يفسر الفقيه الواقعي الذي ينزل الفتوى على ما هو كائن في عصره وما هو ممكن مفهوم الدرجة والرعاية والمسؤولية تفسيرا واقعيا. فالدرجة في تفسير الحافظ ابن كثير هي درجة «في الفضيلة والخَلْق والخُلُق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة».

بعبارة موجزة فهي «مواطنة» من الدرجة الثانية في الدنيا والآخرة. وهذا ما يصادم صدر الآية الذي جعل ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.[2] ويصادم في ما يرجع لفضل الآخرة قوله تعالى مخبرا عن السعداء أولي الألباب: ﴿اسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾.[3]

في بعض روايات حديث الرعية والمسؤولية: «والرجل راع في أهل بيته». «في» بدل «على». والفرق شاسع بين «على» الاستعلائية التسلطية التي كان بها الحاكم العاض أميرا على المؤمنين، وبين «على» المسؤولة القائمة بالقسط. الفرق شاسع بين «على» التي يخضع بها الرجل رقبة المرأة ويغمطها حقها وبين «على» مسؤولية القيادة الرفيقة.

(2) سورة البقرة، 226.
(3) سورة آل عمران، 195.

ورواية «في» تكسير من غلواء «على» التسلطية. الرجل في أهل بيته نجد نموذجه في رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان في خدمة أهله إذا دخل البيت، وكن ينازعنه ويراجعنه في حكم ولا يغضب، ويتلطف ويداري.

الراعي «على» كان في مجال الحكم، بعد سقوط الحكم من مرتبة الكمال، مستبدا فيه دَخن، ثم شريرا، ثم داعيا «مجتهدا» على أبواب جهنم. ومع هبوط الرعاية السياسية انعكس الانحطاط على ما كان ينبغي أن يكون رعاية مسؤولة للرجال على النساء فإذا بالضعيفة المرأة في أسفل الاضطهاد.

هبطت رعاية الرجال للنساء مع الهبوط العام فأصبحت الزوجة والأم والأخت عضوا منكمشا محبوسا لا يكاد يظهر له أثر في مجمل النظام الاجتماعي الاقتصادي.

وساد فقه السجن الذي يريد للمرأة أن لا تخرج من البيت إلا مرتين: مرة من بيت أبيها إلى بيت زوجها، ومرة من بيت زوجها إلى القبر.

كانت «على» الاستعلائية هي الأداة التي نقَّصَتِ المرأة في كل الميادين، لأن الفقه الواقعي سحب على المرأة من حيث هي امرأة الحكم القرآني الجزئي، وعمم على كل أحوالها الدونية الموهومة في كون شهادة الرجل تساوي شهادة امرأتين، وكون نصيب الابنة بين إخوتها من الميراث نصف نصيب الذكر.

وما الحكم القرآني يقضي بالدونية ولا بأن المرأة نصف إنسان. لها نصف ميراث الذكر لأن الذكر مسؤول عن النفقة أبا وزوجا. وتذكرها صاحبتها عند الشهادة لما في النساء من غفلة وغياب عن مواطن النزاع والخصومة.

الدرجة والرعاية ثابتة للرجل ليقود السفينة ويجنب القافلة الفوضى. ولئن استحالت الطاعة المفروضة شرعا إلى إكراه القوي الرجل الضعيفة المرأة كما أكره الحاكم الغاصب الرجل المقهور، فإن طاعة الزوجة لزوجها وطاعة الذين آمنوا لأميرهم المنتخب على شورى ورضى لا تشم منها رائحة المهانة. بل هي طاعة لله وشرف وقربة.

نرتفع بحذاء النموذج النبوي الذي يصور لنا المرأة شخصا محترما مكرما مستقلا شجاعا عالما متعلما مشاركا في الحياة لا كما مهملا. شخصا تحترم حقوقه العامة ويدلل في البيت ويُتلطف به. ويصور الراعي ذا الدرجة رحيما رقيقا لا جبارا عنيدا.

روى البخاري عن أبي بُردة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران**».

يوصي صلى الله عليه وسلم بالمرأة، أضعف ما تكون المرأة، أن يحسن إليها وتُؤدب وتُعلم وتعتق. هذه الوصية. والفعل تقرأه عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: «كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت». أمة هي رمز لتواضع المرتبة. وتأخذ بيد صاحب الدرجة والرعاية. وتنطلق به. حقها من القداسة بحيث يسعى الإمام الأعظم بنفسه يده في يدها ليرفع عنها الظلم. هذا هو الفقه، مباشرة. وهذا هو الراعي في ممارسة مسؤوليته العامة. فكيف كان في خصوصية البيت ودرجته ورعايته؟

كتب ابن قيم الجوزية رحمه الله في «زاد المعاد»: «كانت سيرته مع أزواجه حسن المعاشرة، وحسن الخلق. وكان يُسرِّب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها. وكان إذا هَوِيَتْ شيئا لا محذور فيه تابعها عليه. وكانت إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشرِب. وكانت إذا تعرقت عَرْقا وهو العظم الذي عليه لحم أخذه فوضع فمه على موضع فمها. وكان يتكئ في حجرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها وربما كانت حائضا. وكان يأمرها وهي حائض فتتزر ثم يباشرها. وكان يقبلها وهو صائم. وكان من لطفه وحسن خلقه مع أهله أنه يمكنها من اللعب، ويريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده وهي متكِئة على منكبيْه تنظر. وسابقها على الأقدام مرتين، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة».

سبحان الله كيف سد المسلمون على أنفسهم نوافذ النور. سبحان الله كيف السبيل إلى خرق سدود التقليد الواقعي ليخرج المسلمون والمسلمات من أزِقَّة، ويتحرروا من رِبقة. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾.[1]

(1) سورة الأحزاب، 21.

«لا يجوز»

من خصال عباد الرحمن أن يكونوا أشداءَ على الكفار رحماء بينهم، يدعون ربهم أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين وأن يجعلهم للمتقين إماما. من يقتدي بغير رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتخذ من دونه إماما تكن له الزوجة ويكن لها الزوج سُخونة أعين، وتكن الذرية ويكن المجتمع مجتمع كراهية، ويكن إسلام المتشدد المتنطع منفرا صادا عن سبيل الله.

رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام الأعظم، الزوج الراعي المعلم الذي يسن للأمة ويوصينا ربّنا عز وجل أن نتخذه أسوة حسنة، هاهو ذا تتكئ الزوج المصونة عائشة على منكبيه، وتتفرج على حبشة يلعبون. وأين؟ في المسجد. ثم لا تنتهي الفرجة بملل الزوج الرسول القدوة حتى تكون الزوج الحريصة على اللهو كما أخبرت عن نفسها في حديث البخاري هي التي تسأم. هكذا تُعامل أم المؤمنين وعليها ما ليس على النساء.

أهذا هو ديننا الرفيق بالمرأة زوجا، المتواضع الرحيم بالمرأة أضعف ما تكون المرأة حين تأخذ بيده تذهب به حيث شاءت ليدافع عن حقها؟

أم أن ديننا هو التجهم والتعسير والتكشير وترجيم الأقوال الأشد غلظة على المرأة؟

ماذا وراء البرقع والجلباب الفضفاض والسجن المتنقل الذي يفرضه بعضهم على إماء الله؟ إذا كان تحت ذلك ووراء جدران بيت الزوجية حبيسة مؤمنة خاشعة عابدة تتقي ربها وتصبر على تعسف من يسيء استعمال سلطة الدرجة ومسؤولية الرعاية قلنا وسكتنا. وأمسكنا عن الخوض في شأن خاص شاذ.

لكنا نقول ولا نسكت إن زعم زاعم أن ديننا عسر لا يسر فيه، وتنفير لا تبشير، وإكراه لا رضى، وحيف لا عدل، وحرَج ما معه فرج.

إذا كانت رباطة الجأش في نصرة المظلوم مروءة وخلُقا فاضلا، فإن الدين يعزز المروءة لتكون كلمة الحق في إنصاف المسلمات ونبذ لومة اللائم في سنة رسول الله الرفيقة بهن من أوجب الواجبات.

ما دون سنته صلى الله عليه وسلم الناصعة المضيئة كالشمس من شبهة في صحة النقل، أو نسخ طرأ، أو خاص لا يعمم أو مقيد ما له إطلاق، أو دلالة لفظية مشتركة. السنة من مقام العصمة تقول: هكذا فكونوا مع الزوج التي تحرص على اللهو، ومع المظلومة التي تريد النصَفَة. ويأتي المتشدد ومعه العبارة الجامعة المانعة: «لا يجوز!»

هو مِنَّا وإِلَيْنَا ذلك الصادق في إيمانه، الغيور على دينه، الغاضب لله ورسوله، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر. لكنا لا نقبل منه أن يأتينا بترجيحات شاذة مقدسة عنده لما تقادم عليها الزمن وذاع صيت الفقيه المرجح حتى أصبح قوله هو السنة وما سواه بدعة.

الدليل!

أفتحتاج الدلالة اللفظية في حديث البخاري عن الزوج تتفرج وعن الأَمة تقود الإمام الأعظم باليد إلى استنباط وتأويل وشرح؟ في متناول كل مسلمة لها نصيب من العلم باللغة أن تقرأ النص وتدرك معنى حبشة تلعب، ومعنى المسجد، ومعنى زوج تتكئ على منكبي زوجها، ومعنى جارية تحرص على اللهو وتتفرج حتى تسأم والزوج صابر لها موافق راض.

كل مسلمة في متناولها أن تدرك معنى أَمة، ومعنى تأخذ بيده، ومعنى تنطلق به أينما شاءت. وهو أمر آخر غيرُ مصافحة الرجل للنساء التي ورد الحديث الصحيح بمنعها.

وفي متناول كل لبيبة ولبيب أن يستنتج من هذه الأعمال النموذجية أن روحًا من الود والرفق والمساعدة والإنصاف والاحترام كانت تسود المجتمع النبوي والبيت النبوي.

هل يعني هذا أن الاجتهاد في متناول كل مسلمة ومسلم معهما نصيب من العلم باللغة ودلالتها اللفظية؟ كلا ليس في المسألة المعروضة اجتهاد للفهم، لكن اجتهاد لاتباع سنة ثابتة بالقطع دالة بالنص الصريح الواضح.

للاجتهاد أهله وشروطه، في مقدمتها التقوى والعلم، ثم تحصيل الأدوات المنهاجية الأصولية. للاجتهاد موضوعه وهدفه، وهو استنباط الحكم من نصوص تتعارض، أو تحتمل التأويل، أو تشترك في لفظها معان متعددة، أو خصص نص آخر مفهوم النص المطروح للبحث أو عممه أو أطلقه وقيده.

وهذا لا مجال فيه للواعظ التقي الغيور على دينه ما لم يبن على أساس متين من التلمذة على المدرسة الأصولية ومناهجها التي هي أنفس ما تركه لنا وشيده وأقام صرحه العظيم فقهاؤنا الجهابذة رضي الله عنهم.

تجد غالبا المتنطعين المانعين إما جامدين على تقليد مقالة تقادمت فتقدست وصارت سورا لا يتجاوز، وغمامة قاتمة تحجب ضوء شمس السنة النبوية. وإما قارئين للقرآن والحديث قراءة حرفية جزئية بعقلية سطحية تبسيطية تقسم العالم قسمين ساذجين: يجوز ولا يجوز. ويزعم أحدهم أنه باستطاعته واستطاعة كل من فك كلمات الكتب الستة أن يجتهد ويحكم في الحلال والحرام. ولا تجد عند مثل الجامد المقلد المنحاز للرأي الشاذ و«المجتهد» وليس معه ماعونُ الاجتهاد أية دراية بمراتب الأحكام من وجوب إلى استحباب، ومن حرمة إلى كراهة، ومن حسن إلى خلاف الأَوْلى.

لا مجال للغيور على دينه والغيورة أن تتصديا للاجتهاد حتى يستوفيا الشروط. وإن باب الاجتهاد الذي فتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجوز لأحد أن يغلقه. الاجتهاد له شروطه المعتبرة الضابطة التي ليست بدعة في الدين، لكنها لجام للعابثين بالدين والمتهورين في الدين.

حُجة الاجتهاد وضرورة تجديده يتذرع بها أمثال قاسم أمين وبورقيبة والملحدات والإسلامولوجيون، فيحتقرون الفقه الموروث، ويتباهَون باطلاعهم الواسع على التاريخ، وعلى أحوال العالم، والقوانين الاجتماعية للتطور، ودورات

الاقتصاد العالمي، وحاجات البلاد الإسلامية المتخلفة، وإمكانياتها، وأسباب قهر المرأة سابقا ولاحقا، والعلاقة السلطوية الاقتصادية بين الرجال والنساء وبين الزوج وزوجه.

هؤلاء إباحيون يعرفون الداء ويؤولون الآيات والأحاديث على مَنْحىً يؤيد هوَسهم الذي يقترحونه دواء. والغيور المتحرك بإيمانه، القوي بإرادته، يصطدم بمظاهر الفتنة ومنها تبرج النساء المسلمات فيرى منكرا يجب أن يغير، وليس معه نصيب من معرفة الداء وطوايا الفتنة وعمق جذورها، وأسباب استفحالها، وحبال الجاهلية الرابطة بين المسلمين وبين العالم بروابط المدنية والصناعة والتجارة والإعلام والسياسة.

يعرف الدواء معرفته تلك التبسيطية، الجامدة أو المتهورة، وتغلي في نفسه الغيرة الصادقة، وتستفزه المظاهر البدعية الكفرية الخليعة، فلا يجد معه إلا سلاح «لا يجوز» يذب به عن الحوزة.

إن شرع الله أينما كانت مصلحة المسلمين. ومن لا يعرف واقع المسلمين ومنابع الفتنة في تاريخه، وحاضرهم في العالم وحضورهم، وطبيعة الصراع الدائر بين الإسلام والصليبية اليهودية، لا يستطيع أن ينزل شرع الله على واقع يستعصي، ويمتنع، ويماطل، ويتحكم في السلطة من لا يحبون الإسلام ولا يريدون لأهله خيرا. وتشتد وَطأَة البلاء فتكون «لا يجوز» تعبيرا عن الرفض، وتغيب ضرورة الصبر والتدرج.

رعاية المصلحة كانت رائد فقهائنا الأقدمين حين أصدروا فتوى جواز إمارة المستولي بالسيف. بهذه الفتوى أدخلوا ثورة الثائرين في إطار الشرع ليستوعبها مخافة أن ينخرق شمل الأمة وينفتق رتقها.

هذا الهم السياسي من جانب فقهائنا رحمهم الله كان وراء تغليب مصلحة على مصلحة، وارتكاب أخف الضررين، ودَرْء مفسدة كبيرة بمفسدة أصغر.

واصطبغ الاجتهاد بصبغة الاضطرار فيما عدا العبادات الفردية من طهارة وصلاة وصيام وحج. وتقلص الفقه في حدود ضيقة لما وقع على العلماء ضغط الحاكم الذي يريد الناس على طاعة لا يخولها له الشرع. فهجر الفقهاء قضايا الحكم، وأخلَوْا الساحة، ففقه الحكم في تراثنا يكاد يكون قاعا صَفصَفا. وفقه حقوق المرأة تابع. ضاعت حقوقها مع حقوق الكافّة.

يأتي المقلد الجامد فيدخل علينا الوهْن في الدين حينما يتبنى الفتوى القديمة بقطع النظر عن مصدرها الظرفي. يجيزها بلا سؤال ولا التفات إلى نصيحة الأسلاف رضي الله عنهم الذين أوصونا أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال. كلمة «أحوال» هذه تقول لنا بصريح العبارة لمن يفهم ما تخفي السطور: ها نحن اجتهدنا في حدود ما تسمح به ظروفنا السياسية، فكونوا رجالا في ظروفكم! كلمة «أحوال» تعني ظروف الحكم العاض الذي يغلق باب الاجتهاد فتضمُر حاسة الفقه الحي ويعيش المقلدون على جثت فقهية ورِمَمٍ اجتهادية، ينظرون بأعين الموتى إلى واقع حي يحركه غيرهم فينزعجون ويغضبون ويصرخون: «لا يجوز».

ويأتي المتهور «المجتهد» بفقه حرفي مجرد يحلق في سماء المثاليات ويلتصق بحضارة الجمل والبادية وحبشة تلعب، لا يجوز إن لم يكونوا حبشا، وفي المسجد، لا يجوز أن يلعبوا في غيره، وهكذا هذا العالَم لا يجوز لأنه ليس صورة طبق الأصل. وكأن الله عز وجل خلق هذه الكرة لنا لا لغيرنا، وكأن بلاءه سبحانه للعباد لا مكان له في الاعتبار.

من لا يتصفح مع نصوص القرآن وصحيح الحديث صحيح الواقع المتغير الذي جعل الله تغيره بلاء يَعْجزُ عن عبادة الله وعن الاجتهاد.

انحط الاجتهاد زمانا منذ نهاية القرن الرابع بانحطاط الحكم منذ ما بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة. نفَسٌ من قوة دفْع النبوة والخلافة الراشدة ارتفع بالعقول المجتهدة في «أحوالها» أربعة قرون. الآن تسبق الصحوة

الإسلامية الاجتهاد التجديدي الضروري وتفرضه. وتجعله شرط حياة. فهل ينتظر منتظر الإمام المهدي ليزجرنا عن كلمة العجز «لا يجوز»؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

التغيير بين التنزيل والتجديد

مقالة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أيدينا تَكون مفتاح فقه التغيير. نتأملها في هذه الفقرة لنختم الفصل الأول من هذا الكتاب إن شاء الله في الفقرة التالية بالحديث عن إرادة التغيير وعقبات التغيير. فقه بلا إرادة خيال وحلم. وإرادة بلا فقه يضم في نظرة واحدة العلم بما أوجب الله وبما سن رسول الله إلى العلم بما خلق الله في الكون وما ابتلى به الناس بعضهم ببعض توشك أن تؤول إلى تخبط عنيف: موجة عارمة ثم تنكسر. انتفاضة غاضبة تهدم لكن لا تبني. جعجعة ولا طِحْن.

روى الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» أن عمر رضي الله عنه قال: «قد علمت ورب الكعبة متى تهلِك العرب. إذا ساسهم من لم يدرك الجاهلية ولم يكن له قدم في الإسلام».

قدم في الإسلام. سابقة فضيلة وجهاد، ورسوخ وثبات.

ما هي قضية المؤمنة ومسؤوليتها؟ أن ترضى بـ«الدرجة» و«الرعاية» يتصرف بمقتضاهما الرجل تجاهها على هواه لتبقى عالة ولتنكمش في خصوصياتها تتفقه في أحكام النساء لا تتطلع إلى ما وراء ذلك؟ أم أن لها قضية ومسؤولية في تغيير المنكر وبناء المعروف متقربة بذلك إلى ربها؟

يجيب عن السؤالين مفتاح الفقه في قولة عمر رضي الله عنه. من لا يعتبر بالتحول الشاسع الذي حمل المرأة من هوان جاهلية ما قبل البعثة ولم يتفقه بالحياة النشطة ومشاركة الصحابيات رضي الله عنهن في بناء الإسلام كان ما يُهلك من كيان الأمة أكثر مما يبني. وهل يتصور بناء دون مشاركة المؤمنات؟

هذه قراءة لقولة أمير المؤمنين من زاوية المؤمنات. وقراءة أخرى عامة هي أن من لم يعش في الجاهلية ويواكب الجهاد الصابر الطويل النفس الذي عالج

به رسول الله صلى الله عليه وسلم النفوس والأوضاع، ويعتبر بالرفق الذي ليَّن به الصعاب، والتؤدة التي قابل بها تعجل الجاهلين إلى الشر، والحلم والمداراة، يوشك أن ييأس عند أول عقبة تعترض، وأن يفاصل المجتمع ويكفره ويهرب من الميدان، أو يكسر ما يخالف إرادته من إنسان وأوان.

من نشأ في مجتمع قارٍّ على إسلام لا يعرف الناس غيره، ولم يعرف من تاريخ التحول من جاهلية لإسلام إلا ما يقرأه غير مكترث ولا معتبر في كتب السِّيَر، وسكنته الرغبة الحميدة في أن يرى هذه البِدعَ تقمع، وهذا الهوان ينقلب عزة، وهذا الضعف يتحول قوة فالصورة أمام عينيه ظلام ونور، جاهلية وإسلام، حق وباطل. لا انفكاك حتى يغلب الحق، وينجلي الظلام وتضمحل الجاهلية: الآن.

عمر رضي الله عنه حين قال مقالته يتذكر قصة إسلامه هو حين توشح سيفه وخرج يريد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتذكر حين بطش بخَتنه سعيد ابن زيد، وحين ضرب أخته فاطمة وشجها. ويتذكر ما أَلْحق هو في جاهليته بالمسلمين الذين سبقوه بالإيمان من أذى. ويتذكر ما عاناه الصحابة رضي الله عنهم حين هاجروا للحبشة ثم إلى يثرب وتركوا العشيرة والمال والديار.

في التنزيل كان الرفق والتدرج والصبر والمعاناة. من لا يعتبر بالسنة العملية مفصلة في السيرة الجهادية يوشك أن يبغيها طفرة واحدة.

وهذه في كتاب الله آية مفاصلة بين المؤمنين وأزواجهم المشركات. متى نزلت؟ متى افترق الصحابة ممن لم يسلم أزواجهم عن الكوافر؟ قال الله تعالى من سورة الممتحنة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.[1] قرآن نزل في السنة السادسة للهجرة بعد ثمان عشرة سنة من البعثة، بل تسع عشرة.

بعثت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاتنا زينب قلادتها من مكة لفدية زوجها أبي العاص بن الربيع وكان أَسِرَ في بدر. مؤمنة في عصمة مشرك.

(1) سورة الممتحنة، 10.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يَرِقّ لها ويقول لأصحابه: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا**».

نزلت آية المفاصلة فطلق عمر يومئذ زوجه المشركة قريبة بنت أمية بن المغيرة، وطلق طلحة بن عبيد الله وهو من كبار المهاجرين وعظماء المسلمين زوجه المشركة أَرْوَى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

هذا مستمسك نعتصم به ونعتبر ونتعظ.

ونعتصم ونتفقه بالسنة الحية التي تخبرنا فيها أم المؤمنين عائشة تقول: «إنما نزل ما نزل منه (أي من القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار. حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء: «لا تشربوا الخمر» لقالوا: لا ندع الخمرَ أبدا. ولو نزل: «لا تزنوا» لقالوا: لا ندع الزنا أبدا». الحديث. رواه البخاري.

وروى الشيخان وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال: «**إنك تَقدُمُ على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل. فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذُ من أغنيائهم وترد على فقرائهم. فإذا أطاعوا فخذ منهم وتوَق كرائم أموالهم**».

ولنا المستمسك الوثيق الأوثق في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.[2]

أرأيت الذين كتب عليهم الجهاد والقتال والشدة والغلظة على الكافرين كانوا يتماسكون بغضب ثوري أو حمية قبلية؟ كلا، بل الرأفة والرحمة منبعثة من قلب

(2) سورة آل عمران، 159.

القائد النبي الأمين تسري إلى القلوب وتتألفها وتحبب إليها الإيمان. قال الله عز وجل يخاطب الأمة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.[1] أهذا إخبار في الهواء، نسمعه ونتلوه ثم نكون نحن في خاصة حياتنا الأسرية مع الزوج التي لنا عليها درجة وفي حياتنا العامة نماذج للغلظة والخشونة؟

يقول القائل: تلك كانت جاهلية خالصة دخل عليها الإسلام. أما في عصرنا فالمسلمون بعد أن عرفوا الإسلام ارتدوا إلى الجاهلية. ويستشهد القائل بالرائدين العظيمين المودودي وسيد قطب يحمل كلامهما ما لا يحمله لينشئ لعنفه وسياسته المهلكة مرجعا.

نرى إن شاء الله في فصل لاحق من هذا الكتاب ما هي الجاهلية وكيف تكون المعاصي مهما غلظت ثلمة في دين المرأة والرجل دون أن تخرجهما من دائرة الإسلام.

كلا والله ما أنزل الله علينا آيات الرأفة والرحمة واللين، وما قبّح لنا الفظاظة وغِلَظ القلب إلا لنتخلق بالجميل ونتحلى، ولنتطهر من القبيح ونتخلى.

والأمر بذلك والترغيب فيه مؤكد في السنة المطهرة.

روى الشيخان والترمذي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**». الحديث. وفي رواية للبخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**يا عائشة! عليك بالرفق، وإياك والعُنفَ والفُحشَ**».

وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خُير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما». الحديث.

ما بال أحاديث التدرج والرفق واللين واليسر ترويهما امرأة؟

(1) سورة التوبة، 129.

القلب الرحيم لا شك، وحس المؤمنة المجبولة على تعهد الحياة وبناء الإنسان محمولا في البطن، وموجعا من أجله في الوضع، ومُرْضَعا مَحْنُوّاً عليه، ومفطوما مفصولا برقة، وصبيا يلعب في الحجر، وغلاما مشاكسا، ويافعا ثائرا، وزوجا بعد وأبا. كل ذلك يطلب من المعاناة والصبر واللين والحب والرفق ما تقدُره المرأة حق قدره، فتسمعه من الوحي، وتخزنه لنا ذاكرتها. فللمؤمنة في فقه التغيير وتفقيه الرجال بأسلوبه المرتبة الأولى. وكم أمامها من معاناة لتقنع الشباب المتحمس أن إكراه المتبرجات على ستر شعرهن إنما يبلد الشعور وينفر القلوب.

هذه وقفات مع السيرة الحية والآيات البينات، والأحاديث المطهَّرات من زمن التنزيل. ونمُر على زمن التجديد لنقف عند رجل من أعاظم الرجال وأئمة الإسلام مجدد القرن الأول عمر بن عبد العزيز الخليفة الخامس رحمه الله لنجد الرفق.

كانت الأمراء من بني أمية يكيدون لابن عمهم عمر ويعدون العدة لإسقاطه كراهة لما يصلح من شأن الأمة وما يرد من ظلامات ارتكبها جبابرة الملوك من قبله. ويستحثه ابنه الصالح عبد الملك للإسراع في الإصلاح قائلا: «مالك يا أبت لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أُبالي لو أن القُدور غَلَت بي وبك في الحق!».

فتى لا يخاف الكيد المحيط ويستعجل، فيجيبه الرجل الكامل قائلا: «لا تَعْجل يا بني. فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة. وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدعوه جملة، فيكون من ذا فتنة».

عمر الثاني حفيد عمر الأول نَسبا وتلميذه فيما قرأنا من قوله، وتلميذ عائشة فيما نظرنا من حديثها عن التدرج في التنزيل، لا جَرَم أن يكون بريئا من الشِّرَّة الثائرة بشباب الإسلام ثابت القدم في السنة. روى الإمام الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقد بلغه أن رجالا من أصحابه ينصَبون في العبادة نصبا شديدا: «**إن لكل شيءٍ شِرّةً، ولكل شِرّة فَترةً. فإنْ صاحبُها سدَّد وقارب فارجوه، وإن أُشير إليه بالأصابع فلا تعدوه**».

ينقطع الغالي في الدين الضاري فيه ويتساقط ويفشل. سواء الذي ينصَبُ في عبادته الشخصية والذي يعنف على الناس. ونعوذ بالله من شر الوسواس الخناس.

التغيير بين الواقع والمثال

كان من أول ما فعله الأمير التائب، العالم المجتهد عمر بن عبد العزيز بعد أن تخلى عن العهد الذي ولاه به سليمان بن عبد الملك، وبعد أن التف الناس حوله وبايعوه بيعة جديدة أعطته مشروعية شعبية كما نعبر في عصرنا، أن أعتق جواريه وخيَّرهن بين الانطلاق أو المكث في كنفه على علاقات مستأنفة، لا شأن له بهن وقد أصبحن أجنبيات عنه إلا من حيث كونه ولي الأمر يرعاهن كما يرعى سائر الناس. هذا في شأنه الخاص.

وفي الشأن العام كتبت له فرتونة السوداء مولاة ذي أصبَحَ رسالة تشكو أن لها حائطا قصيرا وأنه يقتحم عليها منه فتسرق دجاجاتها. فيكتب رئيس الدولة إلى ضعيفة الضعفاء، ويكتب إلى عامله أيوب بن شُرَحْبيل يذكر له أمر فرتونة ويأمره أن يذهب بنفسه ليسهر على تحصين الحائط القصير وصيانة الدجاجات.

كان العدل تأخذ الأَمَةُ بيده تنطلق به أنى شاءت ليرفع عنها الظُّلامة. وهاهو العدل في زمن التجديد يعيد سيرة زمن التنزيل. تحرك جهازه رسالة من سوداء مسكينة تمكنت من إسماع صوتها بعد أن حرر عمر قنوات الاتصال بين القمة والقاعدة من الحصار الإعلامي والاحتكار لوسائل الاتصال. ذلك أن البريد كان على عهد سلفه جهازا في خدمة الدولة ينقل المراسلات من كابر إلى كابر، فأمر عمر أن يصبح البريد في خدمة الشعب، تدفع إليه الفرتونات شكاياتهن، فلا يلبث الراعي المسؤول عن رعيته أن يلبي النداء.

كان حزم عمر المجدد رحمه الله في تصفيته مظالم أمراء بني أمية لا يعدِلُه إلا الحزم في إنصاف الضعيف. وكان مع الحزم رفق وتدرج كما قرأنا في الفقرة السابقة. من رفقه وتدرجه أنه كتب إلى عامله عدي بن أرْطأةَ وقد استأذنه في تعذيب أناس سرقوا مالا عظيما ليستخرجه من أيديهم فقال: «أما بعد، فإن العجب كل العجب استئذانك إياي من عذاب بشر كأني لك جُنّةٌ، وكأن رضائي

عنك ينجيك من سخط الله عز وجل. فانظر من قامت عليه البينة، ومن أقر لك بشيء، فخذه بما أقر به. ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله. وَايْمُ الله لأن يلقوا الله عز وجل بخياناتهم أحب إلي من أن ألقى الله عز وجل بدمائهم. والسلام».

رفق تجديدي وعفو وحقن للدماء يحكي رفق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة منتصرا وطوى صفحة الماضي فعفا عن المشركين بالأمس الداخلين في الإسلام سراعا لما سمعوا كلمة الرؤوف الرحيم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

حكمة التنزيل أنارت الطريق أمام عملية التجديد. وبيننا نحن وبين تلك الحكمة الأصلية حجُب القرون المتراكمة. كلما ازددنا انحطاطا ازدادت الكثافة الحاجبة وازداد العنف باستفحال دواعي العنف.

همة رجل فذ هو عمر بن عبد العزيز خرقت ما كان غَشَّى الأفق بين العهد الأول وبين عهده، وكان حافلا بالفتن والمآسي.

همة رجل. فأين همم النساء بعد نحو قرن من الهجرة؟ أين تلك النهضة التي أبرزت خديجة أم المؤمنين، وسمية أول شهيدة في الإسلام، وعائشة العالمة، واللاتي غزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واللاتي عرضن نحورهن فداء لنحره، واللاتي جادلهن عن حقوقهن ونازعن حتى أنزل الله قرآنا يتلى في فصل خصومتهن ورد حقهن، واللاتي هاجرن إلى الحبشة، واللاتي هاجرن إلى المدينة، واللاتي آوين ونَصرن؟

من أخمد تلك الجذوة؟ من أطفأ ذلك النور؟ من هبط بالمرأة من معاني الحياة السامية، النابضة بالقوة، السخية بالعطاء، إلى حضيض واقع الجواري في القصور، إن أعتقهن عمر بعد أن هجر القصر وأوى إلى بيت متواضع فقد بقين في المجتمع المسلم بضاعة تُسَوَّق. عمر تاب وأعتق الرقاب كما يريد الله للرقاب أن

تعتق لأن أسرها ما كان أسلوبا لاستغلال القوة العاملة واقتناء الجواري الحسان. إنما كان مدرسة للإيمان.

لا نجد بعد عهد النبوة والخلافة الراشدة ذكراً للنساء بفضل، وكأن الفتن التي ابتلعت من الرجال أنفة الخضوع للسلطان الجائر عقّمت النساء من الفضائل التي كان يتحلى بها الجيل الباني المشارك الحي من الصحابيات رضي الله عنهن.

همة امرأة وثباتها وعطاؤها كانت الأساس الخلقي المعنوي الذي رُكِّزَ عليه لواء الإسلام. أمنا خديجة رضي الله عنها حاطت محمدا بعنايتها، وتزوجت، وأنفقت. وهي زوّدته لغار حراء يتبتل. وهي أول من آمن به وصدقه وثبته لما جاءها يرجُف من رؤية الملك الذي جاءه بالوحي. قالت له وقد بث إليها أنه خشي على نفسه: «كلا! أبشر! فوالله لا يخزيك الله أبدا! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمِل الكَلَّ، وتكسِبُ المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق». الحديث رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها.

يلومنا المشككون في الدين من الإسلامولوجيين أننا حين نتعلق بعهد التنزيل والتأسيس إنما نتعلق بتاريخ أسطوري جمَّله في خيالنا الحنين إلى المثال الرفيع ونحن في الحضيض، ونُشدان صور القوة ونحن ضعفاء، والتسلي بذكريات النصر ونحن مهزومون.

قد يكون شيء من ذلك لو أننا نقرأ السيرة العطرة دون أن نقف عند النقص البشري الذي لا تبخل علينا المصادر بأخباره، ولو أننا نُغْفِل المعاناة والصبر والتحمل وفضائل التدرج ووقائع الأخطاء التي عالجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقرب الناس إليه وفي الأعراب الجفاة.

لكن ما يرمي إليه الملحدون والشاكون المشككون وجنود إبليس أجمعون هو إنكار الغيب. الغيب عندهم مثال وخيال وعدم. وعندنا الهداية عنوانها الإيمان بالغيب وخاتمها اليقين بالآخرة.

قمة الكمال وكمال المثال في خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها التي نصدُق إن قلنا إنها نهض بها الإسلام كما نصدق إن قلنا إنها نهضت بالإسلام. ويجيئها وسام الشرف من رب العالمين. مثال وخيال عند القوم المجرمين، وعندنا نحن حق اليقين. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**أتى جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتْ ومعها إناء فيه إدام -أو طعام أو شراب- فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني. وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**».

القصب الذهب المصوغ.

لا إله إلا الله! أي فضل هذا نالته من حملت الإناء تطعم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسقيه وتحوطه بحمايتها وتثبته في أهم فترة من فترات لقاء الأرض بالسماء!

مثال عال. ونلتفت إلى واقع المسلمين والمسلمات في عصرنا فماذا نرى؟ إن تلك اللواتي تحدثهن عن الهمة القعساء، والإيمان السماوي، والطهر الملائكي، والقوة والثبات، والصبر على الشدائد، والصمود حتى الشهادة، غارقات في المشاكل الحضيضية. مشاكل محرقة ملحة: أزمة السكن، وعمل المرأة بأجور بخسة، وتعسف الرجل يطلق على هواه ويطرد من البيت الأم والأطفال، وغلاء المهور، والعزوبة الغاوية، والإعلام المهيج المسعور، وشوارع تنشر فيها الرذيلة، وتبرج المترفات يلعنه بؤس البائسات، والبغاء العلني والسري، والتخلف الحضاري، والانحطاط الأخلاقي، والهزيمة، والقائمة طويلة.

هل ينتظر من المؤمنات أن ترتفع همتهن متجاوزة الهموم المقيمة؟ بعبارة أخرى هل تستطيع المؤمنات الخروج من ربقة المظلومية والرّق والفقر دون أن يشاركن في اقتحام العقبة؟ عقبات هي متعددة المظاهر.

كُنّ الصحابياتُ رضي الله عنهن يقتحمن العقبة ويسندن الرجل يساعدنه في الاقتحام. أعيدي أيتها الأخت الكريمة قراءة ما كتبناه عن خديجة في الصفحة

السابقة. كانت المؤمنة الصالحة تقف في درجة الرجل لكي يسمو بنفسه فلا يتدحرج في خطوات الشيطان. كانت الواحدة منهن تخاف الله وترجو لقاء الله فتقول: يا أبا فلان! أطعمنا حلالا، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار وغضب الجبار.

مساندات كن ومانعات للرجل عن التدحرج. بل ومنهن من تقتحم العقبة لا تنتظر الرجل أن يسحبها معه كما يُسحب التابع. كم من صحابية أسلمت وتخلت عن المشرك الزوج، والمشرك الأب، والمشركة الأم، والمشركين العشيرة والقوم والحماية والرزق. كم منهن هاجرن إلى الله ورسوله ابتداء من ذاتهن وهمتهن ومبادرتهن.

كذلك إن شاء الله يزرع سبحانه في الأجيال الصاعدة همة الاقتحام فيلهمهن من الإيمان واليقين ما معه تهون التحديات.

منهاج اكتساب الإيمان وتربية القوة الاقتحامية نُلخصه هنا ونراجعه لنتهيأ في الفصل المقبل بحول الله لمطالعة حقائق العالم الذي يطلب إلى المؤمنات أن يشاركن في تغييره حاملات رسالة الإسلام إلى العالم متجاوزات الهموم اللاصقة بالأرض الملصقة بها.

صبر النفس وحملها على ما تكره من الاستقامة في طاعة الله عز وجل والانخراط في حزب الله مع عباد الرحمن الأشداء على الكفار الرحماء بينهم. لا تكون المؤمنات إماء للرحمن إن لم يجمعن بين الشدة في الحق والرحمة بالحق. الشدة الحذرة اليقظة في مواجهة سماسرة الباطل وسمساراته بين ظهرانينا. لولا وجودهم ووجودهن دخلاءَ ماكرين وولاؤهم لأعداء الإسلام ما قدر أعداء الإسلام أن يفعلوا بنا ما يفعلون.

على المؤمنات جهاد لاقتحام عقبات التقاليد، وعوائق العقل الذي ينبغي أن لا ينقاد إلا للحق، وعوائق العادات والأنانيات والذهنيات المتخلفة. قضية المؤمنات لا تحل إلا في إطار حل شامل يُشاركن فيه متزعمات مع الرجال لا تابعات. والله ولي حميد.

الفصل الثاني

المؤمنات في عالم موار

- خطاب الروح الصليبي وبطشه
- قانون الغاب
- عالمان
- شريعة الله وشريعة السوق
- الإنسان المصنع
- بائسات التحول
- بيئة وتلوث
- عصر الهوائيات
- تبرج الجاهلية
- الفتنة

خطاب الروح الصليبي وبطشه

يمور العالم من حولنا ويفور في سرعة مجنونة وتواصل إعلامي يقلص الزمن ويقصر المسافات، وتضطرب الأرض ومن فيها بأفكار وعداوات وتحالفات وحروب وأسلحة تسوق أو تحضر. وعالم غني مستكبر، وآخر فقير منهوب. ومنافسة عاتية بين جبابرة الاقتصاد الرأسمالي. وصناعات وأموال وبضائع. وعلوم ومخترعات وكشوفات مذهلة ثورية. وتلوث الأرض والماء والهواء. وتصحر أراضي المستضعفين في الأرض. وقوانين دولية يصول بها المستكبرون على المستضعفين، ويتحكمون في قرارات الحرب والسلم، وفي توازنات العالم، ويبرمون أو ينقضون من فوق رؤوسنا أمور البشر على سطح الكرة/ القرية التي نتساكن فيها مع بني الإنسان.

كيف تنظر المؤمنة المستيقظة بإيمانها منذ قريب إلى نفسها ومهمتها في العالم الموار؟ شخص متواضع ضعيف منشغل بمشاكل الحضيض اليومية منصرف إلى شأنه الخاص يعاني في صمت؟ أم مؤمنة مرشحة للعضوية في الحركة الإسلامية، وإرادة ماسكة متماسكة مع إرادات المؤمنين والمؤمنات يعنيها مصيرها إلى الله في الآخرة كما يعنيها مصير أمتها؟ تتجاوز همتها الأفق الضيق المحدود الذي رسمه لها تاريخ الإسلام التقليدي، أم تتطلع لاقتحام مجالات جهاد البناء والتغيير حاملة مع الحاملين والحاملات رسالة الإسلام وكلمته إلى العالم؟

أما الأقوياء المستكبرون في الأرض فلا يخطئون عندما يرون في حجاب المؤمنة رمزا مهددا بالزحف الإسلامي. منذ سنوات قليلة تزعزعت في فرنسا الدولة بكامل أجهزتها الحكومية والبرلمانية والقضائية لقضية كبرى في عين الطبقة السياسية يوم وضعت فتاتان مسلمتان من بنات العمال المتغربين على رأسيهما رمز يقظة المرأة المسلمة.

حجابك أخت الإسلام رمز حياة جديدة ونهضة وقوة في نظر العالم، فلا يكن مجرد مظهر تحته الخواء الروحي ورقة الإيمان. تفوز المؤمنات وينتصر الإسلام وتخسرين آخرتك إن كان رمزك على غير مرموز.

لا يخطئ الأقوياء المستكبرون في العالم عندما يرون في الصحوة الإسلامية وقد انخرط في حركتها المسلمات وعدا بتحرير الأمة يهدد سيطرتهم ومصالحهم. إنه تَحَدٍّ كبير أن تتجمع قوة الإسلام بعد أن ظنوا أن الإسلام انتهى. يكثر همهم وتساؤلهم: كيف حدث هذا؟ وما العمل؟

لا يعني عندهم رجوع المسلمين والمسلمات إلى دينهم يصحححونه ويسيرون على ضوئه إلا استيقاظ الخطر القديم. فيستيقظ الروح الصليبي ليستأنف، بل ليواصل ما لم ينقطع، من حملاته على الإسلام. ويجتهد الروح الصليبي عملا وفتكا بالمسلمين وقولا جاهرا ونية مبيتة وكيدا ينفذه الخائنون والخائنات من المرتدين عن دينهم والمرتدات من بنات جِلدتنا وبنيها.

أعلن الرئيس جورج بوش رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن خرب بغداد في خطاب له قال: «قضيتنا عادلة، قضيتنا إنسانية، قضيتنا جيدة».

ما هي هذه القضية؟ أهي القضية التي حوكمت في الأمم المتحدة ومجلس أمنها ضد صدام حسين طاغيتنا الصامد العنيد الذي صبر بحكمة وقوة حتى خرب الأعداء البلاد بعد أن أعطاهم الفرصة؟

كلا، إنما القضية قضية قديمة، يتجدد خطابها على مر العصور، ويُبطَشُ فيها بالأضعف الأذل. إنها الحرب الصليبية بين الإسلام وأعداء الإسلام منذ تسعة قرون.

قال البابا أُرْبَان الثاني سنة 1095 بتاريخ النصارى، أربان رأس النصرانية، في خطاب له يحرض ملته على حرب المسلمين: «إن جنسا ملعونا، جنسا مُعرضا عن الله بكليته، قد هجم على أرض النصارى(...) فلا تكونوا جيلا لقيطا. لِتمُتْ

فيكم كل الأحقاد التي بينكم. لتنته كل النزاعات. ولتقف كل الحروب. خذوا طريق الضريح المقدس (عقيدتهم المزيفة أن عيسى عليه السلام صُلب ودفن) لتنتزعوا هذه الأرض من الجنس الملعون ولتخضعوها لسيطرتكم (...). هذا ما يريده الله».

وبعد تسعة قرون، وبعد حروب بين النصارى انتهت بحربين عالميتين يتصالح أهل الكفر ويحتلون الأرض المقدسة في فلسطين يسكنون فيها حلفاءهم اليهود. ويخطب الرئيس بوش الخطاب الصليبي بلهجة عصرية ليبلغ قومه وملته نفس الرسالة الصليبية. عجز نصارى أربان، وهم اليوم يبطشون بنا في فلسطين وبغداد والبوسنة.

تضعف السلطة البابوية في القرن التاسع عشر بتاريخهم، وتنتصر اللاييكية الملحدة، لكن الروح الصليبي ينطق على لسان أبعد الناس عن الدين وأكثرهم عداوة للنصرانية. يكتب رنان الفرنسي سنة 1862: «إن الشرط الجوهري في الوقت الحاضر كي تنتشر الحضارة الأوربية هو تحطيم الإسلام. هناك الحرب الأبدية. الحرب التي ستنتهي عندما يموت آخر أبناء إسماعيل من البؤس، أو يكون الإرهاب قد ألجأه إلى فيافي الصحراء -إن الإسلام هو النقيض الأتم لأوربا-(...). ستستولي أوربا على العالم، وستنشر دينها الذي هو القانون، والحرية، واحترام الإنسان، وهذه العقيدة التي تؤمن بأن في الإسلام شيئا إلهيا».

تسامح مطلق عند المؤرخ الفيلسوف داعية الحرية واحترام الإنسان!

منذ رُنان داعية الحرب الصليبية التي تحمل اسم «الاستعمار» تعززت في الغرب ديانة القانون، وحقوق الإنسان، وحق التدخل العسكري. بعد الاستعمار المباشر استعمار اقتصادي ثقافي شامل. و«التسامح» الغيور على احترام الإنسان يعطيك حرية الاختيار بين أمرين: إما أن تتحول عن دينك وهويتك لتندمج في دين الأقوى وإما أن تمحق محقا.

دين الأقوى يتلخص من وراء نفاق القانون والحرية وحقوق الإنسان في اقتصادية سوقية حولها يدور كل شيء. الهوية الحضارية للغرب المسلح المتخم تتبخَّر شيئا فشيئا، ويفقد شيئا فشيئا كل معنى لوجوده دُولا وأفرادا غير وظيفته الاستهلاكية الأنانية المستحوذة على خيرات العالم، المتربصة بكل من يصمد في وجه الغرب.

كن زبونا لصناعتي متماثلا بي، وإلا فلك الويل!

اندمجت اليهودية في الصليبية وتصالحت. وضخم اليهود المسيطرون على وسائل الإعلام في العالم ما فعله هتلر النازي بهم. فالغرب يشعر أن عليه دَينا لليهود. من يسدده؟ المسلمون طبعا. كتب جيل دُولزْ الفيلسوف الفرنسي: «إن الدَّيْن الذي لا حد له، والذي كان في عنق أوربا لم تبدأ في تسديده، وإنما أرغمت شعبا بريئا على أدائه، هو الشعب الفلسطيني».

المرض الجاهلي، مرض العنف الذي بلغ أوجه في الحركة النازية، لا يزال يعمل في أحشاء الغرب، ملتحما بالروح الصليبي، موجها ضد الإسلام.

دخل الغزو العقل الأوربي في القرن الثامن عشر بتاريخهم، وأسكره النصر في العلوم والإنجازات الصناعية، فأخذ ينظر إلى الأمم -خاصة المسلمين- كما ينظر الراشد إلى صِبْية متخلفين.

وحملت أوربا على المسلمين وعلى سائر المستضعفين نفس اللواء السيطري الكنسي الذي يحتقر «الجنس الملعون». تارة تسَمَّى الروح الصليبي «حضارة»، وتارة «ديمقراطية»، وتارة «حقوق الإنسان». والآن «حق التدخل».

ما فعلته دواوين التفتيش الكنسي «الكاثوليكي جدا» في المسلمين بالأندلس يفعله اليوم الهمج الصرب بالمسلمين في البوسنة بتواطؤ ورضى من اليهود والصليبيين.

«انتهى التاريخ»، وتوّج بأكاليل النصر الديمقراطية الغربية بعد انهيار الشيوعية. وإذا بمن ينازع ويصمد. من هنا كانت الغضبة الجارفة المحرقة على العراق.

كانت أوربا معقل الصليبية الغازية. الآن الحملة غربية أوربية أمريكية.

الحملة أمريكية، ودولة «النظام العالمي الجديد» أمريكية إلى حين.

اللواء تحمله الولايات المتحدة، وتمول، وتسلح، وتتخذ القرار، وتجر معها حلفاءها الأصدقاء اليوم، الأعداء المحتملين غدا عندما تتوحد أوربا، وعندما يتعاظم اليابان ويضع يده في يد الصين. الصين المهددة بحجمها وإمكانياتها وعبقريتها المتجلية في براعة الصينيين بطايْوان، وصناعة الصينيين بهونغ كونغ، ومهارة الصينيين بسنغافورة، وتفوق أبناء العم في كوريا.

همٌّ كامن، وخوف من المستقبل، وحرب اقتصادية تنِمّ بوادرها عن انشقاق الصليبيين ولو بعد حين لتصعد القوى الحقيقية في عالم اليوم: اليابان وألمانيا. والصين بعد حين. هم كامن وخوف وتوجس صرفته أمريكا إلى العدو القروني: المسلمين.

في أمريكا رأيان عن الاستراتيجية في التعامل مع إسلام صاحٍ مهدد. كتبت الواشنطن بوسط في 13/ 01/ 1992 و19/ 01/ 1992، وبَغْدَادُ تحترق، حوارا بين صانعي الرأي نقتطف منه ما يلي: «اتجاهان لكل منهما مؤيدوه: الاتجاه الأول يرى أنه لا خوف من وصول الإسلاميين للحكم. لأن ضرورات الحكم وإلزامات السياسة العالمية والاقتصاد ستضطرهم للاعتدال والتعامل مع الغرب بتبادل المصالح. الرأي الثاني يعبر عنه إيموس بيرمتر الذي يقول: «إن هذه الحركة لا يجوز الخَلط بينها وبين الديمقراطية. بل يجبُ وأْدها منذ الولادة».

«وقال بيرمتر»: حركة الأصوليين حركة ثورية عدوانية حربية متوحشة مثل الحركات البلشفية والفاشية والنازية القديمة. إنه يجب خنق هذه الحركات المعارضة في مهدها.

لا يوافق بيرمتر أصحاب الاتجاه الأول الذين يقولون: «إنه يجب على الغرب أن يتعلم كيف يعيش مع الإسلام، لأنه لا يمكن القضاء على الإسلام كما قضي على الشيوعية. فلا بد من التعايش السلمي معهُ».

أستغفر الله العظيم. طالعنا ما يضطرب في الكون لنسجل الوقائع. وما تفعل أمريكا والقوة لله وحده، وقانونه الأزلي أنه ينصر من ينصره، وأن العاقبة للمتقين؟

قانون الغاب

اقترن سقوط غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس باكتشاف الأوربيين للقارة الجديدة التي سموها فيما بعد أمريكا. كان المغامر القوي كرسطوف كولمب يفتتح سنة 1492 بتاريخ النصارى عهدا جديدا، عهدا دام منذئذ خمسة قرون ولا يزال مستمرا. هو عهد الاستعمار ونهب الشعوب وتَمَوُّلُ الغرب واستقواؤه على حساب أهل الأرض جميعا.

في الأندلس المسلمة المغلوبة نصبت محاكم التفتيش الكنسية «الكاثوليكية جدا»، وحرقت المسلمين الذين رفضوا أن يستبدلوا بدينهم دين النصارى. وفعل التعصب الكاثوليكي في أمريكا الجنوبية والمكسيك ما فعله من بعد البروتستانت في أمريكا الشمالية: إبادة حضارات الهنود الحمر وإفناءُ عشرات الملايين منهم. ولا تزال الإبادة مستمرة في محميات الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وفي الأمازون. إبادة مقنَّنة سليمة إدماجية مدروسة في كندا والولايات المتحدة، عنيفة وحشية لا تزال في البرازيل المتخلفة التي لا يزال قانون الغاب فيها بدائيا.

بدأت بنهاية القرن الخامس عشر بتاريخ النصارى خمسة قرون من الاستعمار شاركت فيه من الجانب العدواني دول أوربية تتقدمها إنجلترا صاحبة الأسطول العظيم، وتتلوها دول وسطى مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، وأخرى ضئيلة الحجم شديدة المراس مثل البرتغال وهولندا وبلجيكا. ومن جانب المعْدُوِّ عليهم ما كادت تسلم بقعة في الأرض فيها ثروة معدنية أو غابوية أو بشرية من المد الاستعماري والاحتلال والاستغلال بشتى أشكاله ودرجاته: مستعمرات احتلال، ومحميات، وانتدابات، وما إلى ذلك مما سماه القانون الدولي الذي نشر «الحضارة» في المعمور.

جلس الأوربيون على مائدة المفاوضات في مؤتمرات توزيع الأمم الغنائم فوضعوا بالمسطرة والبِرْكار خريطة للعالم ملونة كأنها على الورق مساحات تلعب

فيها يد طفل شغوف بتعريج الخطوط وتلطيخ الأحمر والأخضر والبنفسجي. وفي واقع الجغرافيا وحياة الأمم كانت ولا تزال كما أرادوها أقفاصا تحوز البشر في حيز يسمونه وطنا قوميا يفصل بين الناس وتاريخهم، ويمسخ هويتهم. هكذا مزقت وحدة المسلمين، بل أعطت الخريطة الاستعمارية للتمزق التقليدي صبغة الخلود.

ولعب الاستعمار الماكر بالولاءات القبلية القومية ليضرب الشعوب المستعمرة بعضها ببعض. وهكذا أنهض العرب أثناء الحرب العالمية الأولى واتخذ منهم حلفاء لتمزيق الدولة العثمانية التي كانت قرونا شجىً في حلق أوربا وشوكة للإسلام.

تقدم الأوربي النشط المغامر الشجاع الشرس المغرور يغزو أنحاء العالم، ويضم إلى حصيلة عمله ونتيجة اقتصاده الذي كان متواضعا إذ ذاك كنوزا من خيرات الأرض وفائض إنتاج أهل الأرض.

«فائض الإنتاج» مفهوم اقتصادي يعني المنتوجات الفائضة عن حاجة العاملين في الأشغال الضرورية للحياة والتي تصرف إما لرفاهية طبقة اجتماعية مسيطرة، وإما لتأسيس رأس المال والإنفاق على الأنشطة التي لا تنتج إلا بعد حين مثل بناء المدارس ورصد الأموال للتعليم والصحة والسكن، وتشجيع البحث العلمي والاكتشاف الصناعي، وإنشاء البنية التحتية الضرورية للتنمية الاقتصادية مثل بناء الطرق والجسور، والسكك الحديدية. فائض إنتاج الشعوب المستعمرة وكنوزها من معادن وغلات فلاحية وغابات وصناعات ثروة صبت مدى خمسة قرون في حصيلة أوربا، مستفرغة العالم المغلوب، مفقرة له، جالبة إلى مركز العالم وعاصمة الحضارة عناصر البناء والرفاهية والغنى والقوة.

على مدى خمسة قرون توغل الأوربي في تخوم الأرض ينهب ويستغني من عرق جبين الشعوب. وَساق إلى أمريكا الشمالية -والجنوبية أيضا- أجيالا من سود إفريقيا. سيقوا عبيدا أقنانا ليخدموا في حقول القطن التي غذت

صناعة النسيج الإنجليزي التي كانت، بعد الأسطول، من أهم وسائل السيطرة الاقتصادية الإنجليزية.

ودخل الإنجليز بلاد الهند فأسسوا فيها شركة الهند الشرقية التي عاثت في الأرض فسادا وكانت النموذج الأكمل للنهب الاستعماري. حولت الشركة الاستعمارية بلادا كانت مزدهرة إلى خراب. غزتها بالإدارة التعسفية، وغزتها بمنتوجات النسيج الإنجليزي من لِيفِرْبُولْ ومانْتْشِسْتَرْ لتخنق الصناعة التقليدية المحلية.

وتسابقت الدول الأوربية خلف الطرائد يتقاسمون الأرض. انتَضَوْا لتخريب الاقتصادات التقليدية، ولخنق الصناعات المحلية، ولقتل حضارات الشعوب سلاحين تطورا فيما بعد واتخذا أشكالا، ولا يزالان يتطوران وتطلق عليهما الأسماء المناسبة لتطور الزمان والمكان واللغة السياسية والتكنولوجية. السلاح الأول هو الآلة، والسلاح الثاني الحرية.

كلا الآلتين لا تعملان إلا في صالح المستعمِر وتدمير المستعمَر. مصالح القَوِيِّ في الغاب هي المعتبرة في جميع مراحل الإنتاج والتوزيع. هناك في المركز تخطط الاستراتيجيات وهناك يتخذ القرار، ومن هناك تصدر الأوامر. والعملاء المساعدون المحليون عبيد التنفيذ وسدنة الآلة ومديرو اليد العاملة الرخيصة على مستوى الوكيل المباشر للأشغال الملوِّثة.

الآلة الاستعمارية والحرية الاستعمارية ساعدتا الأوربي على بناء مجده. أقول «ساعدتا» لأن العامل الذاتي الأوربي في المكان الأول من الأهمية، يتمثل في نشاط الأوربي، وجَلَده، وحبه للمغامرة، وتقييمه للعمل المتقن، وعبقريته التنظيمية، وتمكنه من العلوم التجريبية، وباعثه الوطني القومي، وحرصه على السمعة والشرف، وحِسه بالانتماء لطبقة الأسياد في العالم.

قوة العامل الذاتي كانت هي الحاسمة ولا شك في تقدم الأوربي. وكان ضعف هذا العامل فينا ولا يزال سبب تخلفنا وهزيمتنا، ما أكل الذئابُ الخروف إلا لأنهم ذئاب وهو خروف.

وهكذا بمساعدة الثروات المنهوبة وبالنزاع عليها ارتفعت الصراعات بين الأوربيين إلى حكمة سياسية تسمى الديمقراطية وإلى حكمة تساكنية تسمى ميثاق الأمم المتحدة. ارتفعت الصراعات إلى الحكمة المستفادة من حربين عالميتين كان من وَقُودِهما المهم حشود العساكر من البلاد المستعمرة وكنوز الأرزاق والأقوات والموارد المعدنية من البلاد المستعمرة.

الديمقراطية المستفادة من دروس الحربين نظام حكم وسيادة وإنسانية وسلم اجتماعية وأمن واستقرار سياسي وازدهار اقتصادي في حقهم. وهي حين تُقذف إلينا لعبة ممتعة، وأكذوبة، ومضغُ كلام.

أكذوبة حين يوحون إلينا بأن الانسلاخ عن ديننا وشرعنا لننخرط في دين الديمقراطية اللاييكية شرط في انتشال أنفسنا من وهْدة التخلف والجهل والفقر والاضطراب والاستبداد. حيلة أخرى لنبقى أبناء مستهلكين للإديولوجيا الاستعمارية كما نحن مستهلكون للبضائع الاستعمارية.

تلاحظ أخت الإيمان أني تورَّكْتُ في هذا الفصل وسوَّدت حِبر الكتابة لإبراز خصائص الاستعمار. وكنت فعلت مثل ذلك في الفصل السابق لأبرز الفراغ الذاتي والمرض التقليدي الموروث عندنا. ذلك لكي تتجلى الصورة بمتناقضاتها وتقاطعاتها وخلافاتها وائتلافاتها.

وبسطت من خبر هذا وذاك للمؤمنات لأن دخولهن الضروري إلى ميدان المسؤولية عن مصير أمتهن لا طريق إليه إلا بعلم ما هي الأمور عليه.

وأبسط هنا مقالة لمصطفى صادق الرافعي رحمه الله يصف المستعمِر النموذجي في أشخاص إنجليز، والمستعمَر النموذجي في أشخاص مصريين.

كتب رحمه الله: «تأملتهم طويلا (أي ثلاثة من الإنجليز)، فإذا صرامة وشهامة، وسكينة ووداعة وحسن سمت وحلاوة هيئة. في جلسة رزينة موقرة، لا يشبهها في حِس النفس التي تعرف معاني القوة إلا وضع ثلاثة مدافع مُصَوَّبة. (...)

«أرى المصري كالمقتنع بأنه محدود بمدينة أو قرية لا يعرف لنفسه مكانا في غيرهما. فهو من ثَمَّ لا يرحل ولا يغامر ولا تتقاذفه الدنيا. وأرى الإنجليزي كالمقتنع بأن كل مكان في العالم ينتظر الإنجليز...

«وخُيِّل إليَّ والله أن رجلا من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتَدِّين بأنفسهم لا يهاجر من بلاده إلا ومعه نفسه واستقلاله وتاريخه وروح دولته وطبيعة أرضه. فهو مستيقن أن الله لا يرزقه أيَّ رزق كان على ما يتفق، بل رزقا إنجليزيا، أي فيه كفايتُهُ.

«ورأيت شيئا عجيبا بين طابع السلم على وجوه، وبين طابع الحرب على وجوه أخرى. ففي تلك معاني السهولة والملاينة والحرص على مادة الحياة. وفي هذه معنى العزم والمقاومة والحرص على مجد الحياة لا على مادتها.

«وتبينت أسلوبين من الأساليب الاجتماعية: أحدهما في فرد بَنَى أمره على أن أمة تحمله، فهو يعيش بأضعف ما فيه. والآخر في فرد قد وضع الأمر على أنه هو يحمل أمة، فلا يدع في نفسه قوة إلا ضاعفها.

«وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية: أحدهما بالطنطنة والتهويل والصراخ واستعارة غير ألفاظ الواقع للواقع، وتحميل الألفاظ غير ما تحمل. والآخر بالهدوء الذي يقهر الحوادث، والصبر الذي يغلب الزمن، والعقيدة التي تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره أن يقوم بها.

«وميزت بين أثرين من آثار الأرض في أهلها: أحدهما في المصري السمْح الوادع والألوف الحَيِيِّ الذي هو كرم الطبيعة. والآخر في الإنجليزي العَسِر المغامر النَّفور الـمُلحِّ على الدنيا كأنه تطفّل الطبيعة...»

قلت: هل كان مصطفى معجبا بالمستعمر الإنجليزي أو خائفا أو منافقا؟ كلا وإنما كان يعطي كل ذي حق حقه لِئلا تبقى الأبصار كليلة عن إدراك الحقائق. يؤتى الحكمة من يشاء.

عالمان

بعد أن تحدثنا في الفقرة السابقة عن محنة عالم المستضعفين المستمرة، وعن عدوان المستكبرين، نتحدث هنا بحول الله عن آثار الاستعمار ووقعه على عالم المرأة المسلمة.

شاذٌّ اليومَ في الغرب من يذكر عهد الاستعمار بخير. وصمة في جبينهم وعار على وجه حضارتهم يتحاشون الحديث عنه ويطوون الصفحة معرضين، يرمي اليسار منهم اليمين بالمناسبة بمسؤولية الاستعمار وتبعاته، ثم يحتشم الكل ويصمت. وفي قرارة أنفسهم وما تخفي صدورهم وما تنطق ألسنة حِداد لليمين المتطرف الحقد الصليبي على المسلمين، والاحتقار العنصري للشعوب الملونة. يتأجج فيهم الحقد والاحتقار تجاه المستضعفين منذ استفحل لجوء الفقراء من أفريقيا وتركيا وغيرهما من بلاد المسلمين إلى أوربا الغنية يلتمسون لقمة العيش. ويعبر هذا الحقد وذاك الاحتقار عن نفسه بالعداء السافر والشتم والقتل. وتبني التكوينات السياسية المتطرفة مجدها وشعبيتها على إعلان العداوة للواردين الذين يهددون الحضارة ويشتغلون لتبقى البطالة منتشرة ممتدة في صفوف المواطنين الكرام.

في واقع السياسة الغربية والاقتصاد والقانون الدولي لبس الاستعمار لَبوسا جديدا حربائيا منافقا. «قضيتنا عادلة، قضيتنا إنسانية، قضيتنا جيدة». هكذا ينطق رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. لا يقولها بفجاجة البابا الأول الصليبي: «اقتلوا الجنس الملعون!»

كان اليسار الأوربي يحمل لواء الدفاع عن العالم الثالث إبان الاستعمار في شكله المباشر. كان ثَمَّ عالم أول وآخر ثان وآخر ثالث. فلما انهارت العوالم الشيوعية تحدثوا عن شَمالٍ وجنوب تفاديا من استعمال مستَعمِر/ مستعمَر.

ونحن نعتمد على الهدي القرآني لنميز بين عالمين: عالم المستكبرين وعالم المستضعفين. من سمات الاستكبار الصد عن سبيل الله وهي السمة الأساسية، لأن سبيل الله عدل، وأخوة بين بني الإنسان، وتكريم للآدمية، وقسمة للأرزاق كريمة، واحترام للهويات الحضارية.

حركة العالم الثالث اليسارية كانت تدفعها للوقوف بجانب الشعوب الضعيفة مروءة مشكورة وإديولوجية كذبها فيما بعد انكشاف ما تحت الشعار الشيوعي من خبث. فلئن تحدثنا من قبل عن استعمار إنجلترا وفرنسا والأخريات للعالم وإفسادهن فيه دون أن نذكر استعمار روسيا لبلاد المسلمين في أذربيجان وتركستان وخزخستان وسائر ما يسمى الآن الجمهوريات الإسلامية، فذلك لأن الاستعمار القيصري الروسي ثم الشيوعي السوفيتي أبشع وأفظع.

بموازاة حركة الدفاع عن العالم الثالث واستيحاء من مبادئ «العالمثالثية» نشأت في أوربا وقَوِيت حركة تحرير المرأة. تلك الحركة النسوية التي بدأت في أوربا وأمريكا منذ القرن الفارط منادية بمساواة المرأة بالرجل ورفع الظلم عن المستَعْمر الأوربي: المرأة.

كما استفاد الرجال الحاكمون في أوربا المدبرون للسياسة حكمة الديمقراطية من صراعاتهم وحروبهم، كذلك استفادت نسوة أوربا من مشاهد نضال الحركات الوطنية التحررية التي آل نضالها إلى طرد جيوش الاستعمار، فناضلن لاكتساب حقوقهن وانتزاعها من عالم الرجال.

ونجحت الديمقراطية وقرينتها اللبرالية الاقتصادية في بلادهم، كما نجحت المرأة الأوربية في نضالها وحققت مكاسب مهمة. في مقدمة هذه المكاسب امتلاك المرأة لحرية التصرف في جسمها تفعل به ما تشاء، نبذا للفضيلة والأخلاق، وتدميرا للأسرة، وإشاعة للفاحشة كما تشاع البضاعة العادية.

يحاول الآن رجال الغرب أن يُصدروا إلينا بضاعة التملص من الدين مغلفة بغلاف براق اسمه الديمقراطية وحقوق الإنسان، وبداخل الحزمة اللاييكية وطرد

الدين من الساحة. وتحاول نسوة الغرب أن يصدرن إلى نسائنا بضاعة الانحلال والإباحية مغلفة في أستار المساواة في الأجور، والانعتاق من وصاية الذكور، ومنع تعدد الزوجات الـمُضر بوحدة الأسرة، وإنصاف المرأة في قسمة الميراث.

اللاييكية المغلفة بغلاف الديمقراطية وحقوق الإنسان بضاعة غربية يُرَوّج لها بين ظَهرانَينا وكلاء الغرب وقد ارتفعوا من مستوى الناظر على الشغالين إلى مستوى رؤساء الدولة والحكومة.

وتُروِّج بيننا البضاعة الإباحية المغلفة بأستار حقوق المرأة مناضلات وكيلات يعملن في مدارس الغرب، يتحدثن لغته، ويحملن دبلومات عليا، متشبعات بروح العِداء للدين. يكتبن ويخطبن ويضاهين النّموذج الأصلي في الصفاقة والجرأة على الدين، بل يتفوقن عليه.

هما إديولوجيتان متعانقتان وبضاعتان متكاملتان: اللاييكية والإباحية. اللاييكية للجميع مغلفة بغلاف الديمقراطية وحقوق الإنسان للجميع. والإباحية للجميع ملتفة في غلالة شفافة يُجسدها ويمثلها على مسرح الواقع نساء في بعض شوارع الغرب ما يسترهن إلا كيس من البلاستيك الشفاف كما يستر الزجاج خلفه البضاعة على واجهة المتجر.

تحررت المرأة الغربية من عنصرية الرجال. تلك العنصرية المتأصلة من نظرة الكنيسة إلى المرأة. على امتداد قرون تجادل أحبار الكنيسة هل للمرأة روح، وكيف تُحْرَق الساحرات، وكيف يتطهر الرجل من رجس الشيطان ومطيته: المرأة.

الكنيسة عدو المرأة، فكل دين كنيسة، والتحرر من الدين فضيلة كل امرأة حرة. وتجد داعيات التبعية الإباحية حججا في واقع المسلمين لمقارنة اضطهاد الكنيسة بالحيف الواقع على المسلمة. فالإسلام كنيسة يجب التحرر منها.

تعيش داعيات الإباحية عندنا، التابعات المناضلات، على مستوى من الرفاهية المادية مماثل لما تتمتع به نظيراتهن وأستاذاتهن في الغرب. لا يشعرن بحرمان.

لكن التماسهن للزعامة، وربما أيضا لغضب حقيقي على الحيف الحقيقي الواقع على المسلمة، وإنكار تردي وضع المرأة في بلادنا وهوانها، يدفعهن لرفع راية التمرد على رجال متخلفين فكريا لم يبلغوا درجة الاجتهاد الحر المحرر الذي يتربع عليه بورقيبة وأمثاله من المفتين.

التّوابع المغربات ينخرطن في تقسيم عالمي طُولِيٍّ: من هنا حزب المرأة، ومن هنا حزب الرجل. لحزب المرأة منظماته ومنشوراته ومؤتمراته ومداخله إلى الحكم وإلى مواطن الضغط والتأثير.

في الغرب وقع الصلح بين عالم المرأة وعالم الرجل بعد طول نضال على مبدإ الحرية. تلك الحرية المنتَزعة منذ الثورة الفرنسية من الكنيسة المتواطئة مع الملوك المستبدين كان شعارها: اشنُقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس.

إديولوجية الحرية وحدت وصالحت وسوَّت اللقاء بين مطالب الديمقراطية وحقوق المرأة كما تحب المرأة. وكما يحب الرجل ويشتهي أيضا.

فهل في ديننا الإسلامي مَغْمَزٌ ومطعَن يحتاج إلى فقهاء مجتهدين مثل بورقيبة وقاسم أمين والطاهر الحداد ليسدوا ثغرته؟ أم أن المغمز والمطعن من فعل المسلمين ومن انحطاطهم: تراكم الظلم على المرأة من جراء ثقل الظلم الذي جثم على صدر المجتمع الإسلامي؟

إن بدل الصلح على غرار الغرب بين عالم الرجل وعالم المرأة على بساط التحرر من الدين، هو الصلح على شريعة العدل والإحسان. شريعة العدل والإحسان دعت جنس الرجال وجنس النساء إلى التوحد على طاعة الله والعبودية له وحده. دعت الجنسين والعالمين إلى حياة انسجام وتعاون وتآزر وتكامل في حمل أعباء الدنيا وفي سلوك فِجاجها والتغلب على بلائها ليخلص الرجال والنساء إلى آخرتهم ليس على ظهورهم وِزر التظالم وغمط الحقوق.

عدل الإسلام وإحسانه يريدان عالما واحدا تسوده الرحمة والمودة والعطاء المتبادل، لا النزاع والعداوة.

عدل الإسلام وإحسانه وشريعته إطار تسامحي بين الرجال والنساء. كيان عَرْضيٌّ يندمج فيه عالم المرأة بعالم الرجل وينسجم.

النساء في شريعة الإسلام شقائق الرجال في الأحكام. شقائق أخوة في الدين، وتعاون على البر والتقوى، وتآزر على قطع مفاوز الحياة الدنيا. لا العداوة والشِّقاق.

فضائل الإحسان والرحمة والمودة تسود المجتمع الإسلامي المثالي، وتصون الحقوق الشرعية المفَصَّلة حواشيه كما يصون السياج الحديقة اليانعة الثمار. إن ظلم الرجال النساء، أو تعسف هذا الرجل في حق تلك المرأة، فإنما يحرث الفريقان الشوك.

ما وقع من خلل في الانسجام المثالي ومن قصور عن تحقيقه مرده إلى فساد الطبائع، وإلى الفقر المفسد للطبائع، وإلى الظلم الجاثم على الصدور.

المثال الغربي مغر خادع لعالم النسوة بشيطنته ونضاليته، ورفاهيته وغناه، وسيادة ثقافته في العالم، وإنجازاته في رفع المرأة من حضيض التبعية للرجل إلى أوج الاستقلال الاقتصادي. فتحسب التابعات المغربات من بنات جلدتنا أن تقليد الغربيات وتبني مطالبهن يضمن لهن الرفاهية إن حصلن على حرية التصرف في الجسم.

كلا. فالغرب إن فقد روحه، وعبد جسم المرأة، وزينها دمية في الواجهة، لم يحصل على السعادة التي كان يظنها في المتعة المطلقة. الغرب شقي بحضارته المادية كما نحن متعبون بخصاصنا المادي وتخلفنا.

عالمان!

اصطلح هناك في عالم المستكبرين الرجال والنساء. فهم أمة واحدة تغزونا وتريد تدمير أسس بنائنا بعد أن دمر الانحطاط القروني والإفساد في الأرض الاستعماري جدران ذلك البناء. يجب على المؤمنات أن يدخلن مع المؤمنين في صد العدوان حَمْلَةً واحدة.

حرب واحدة ومعارك ومواقع وثُغور. في الثقافة ثغر، وفي الاقتصاد، وفي السياسة، وفي التعليم، وفي الإعلام سطوح خرقوها، وفي الأخلاق سدود حطموها. الحرب واحدة بين الكفر والإيمان. والمرأة المسلمة مستهدفة والرجل. المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

شريعة الله وشريعة السوق

الشريعة عدل الله في أرضه، والسوق بلاء الله لخلقه وضرورة معاش، تنادي الضرورة ويصك الأسماع صوتها فيُنافس صوتَ العدل صوت الأنانية، ويسعى العقل المعاشي بين يدي الهوى مسابقا عقل الحكمة الماسك بحبل شريعة الله.

ميثاق الله والميثاق القانوني الدولي نقيضان في انطلاقتهما وأهدافهما. نقيضان في مقوماتهما وبواعثهما ووسائلهما. فشريعة الله وميثاقه وفاء بالعبودية له سبحانه، من استقام عليها وعدل وأحسن كانت له ضمانا لمصلحة الدنيا والآخرة. وقوانين المعاش البشرية ودساتير الدول الديمقراطية والمواثيق والعهود الدولية شرائع عمادها القوة لا التقوى. فهي شرائع وقوانين تضمن المصالح الدنيوية للأقوى. والآلة والحرية مقومان للقوة الاقتصادية الاجتماعية السياسية. للآلة جماع الصناعة والعلوم ولوازم ذلك من تمويل وتنظيم. والحرية ديمقراطية في الحكم ومبادرة حرة. لهم غُنْم ذلك وعلينا الغُرْم.

استعمل الاستعمار هذين المقومين الاستعمال الذي رأيناه في الفقرة السابقة لاستنزاف خيرات الأرض واستعباد الإنسان. واكتساب الآلة والحرية هو القوة الضرورية لنا لكي نتحرر من التبعية والخنوع. اكتساب ضروري كما هو ضروري نقد اللبرالية الاقتصادية والديمقراطية والتصنيع على ضوء التقوى والعدل والإحسان لكيلا يغلبنا على مقادة أمورنا العنف الذي يسكن قوة الغرب، وروح الجشع الذي يسكن الرأسمالية، وروح النفاق الذي يدير دفة الديمقراطية اللاييكية المعادية للدين نظرا لنشأتها، المحايدة فيه ادِّعاءً.

هل يلام القوي الخَلي من التقوى والإيمان والعدل والإحسان إن فتك بالضعيف المفلس من أدوات قوة يدرأ بها عدوه؟

من طبع أقوياء الغاب أن يفترسوا ضعفاء الغاب، ومن شأن دهاقنة السوق أن يغبنوا زبناء السوق. ذلك قانون الطبيعة. ذلك سنة الله في الكون والتاريخ وأستغفر الله. لذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نُعد لهم ما استطعنا من قوة. ولذلك حذرنا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن الحرب خدعة.

لكيلا نعطل الأسباب ونكذِب على ناموس الله في الكون والتاريخ منتظرين أن تتنزل الملائكة بالنصر المبين وأن تسود شريعة الله على شريعة السوق ذات صباح مُعجز. لكيلا نحلُم بصاعقة تنسف ذات ليلة أعمدة الحضارة المادية الطاغية القوية لا تزال رغم بوادر تخلخل قواعدها الأخلاقية الإنسانية. لكيلا نتخيل أن الجهاد المنجِيَ في زمن الالكترون والصاروخ والقاعدة الاقتصادية العلومية ينهض إليه ويقدر عليه عُزْلٌ فقراء أميون في دنيا الصنائع يجب أن نفهم قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[1] فهما غير فهم الأولين الذين كان عندهم النبل الخشبي في رأسه حُدَيدة، وكانت عندهم الخيل هي الخيل ذوات القوائم الأربع.

إن تخلف القوة المادية عن الموعد، مثل تخلف الروح المعنوي والإرادة الاقتحامية، يؤهلنا التأهيل السلبي لينطق قعودنا بما نطق به قوم موسى لما أمرهم عليه السلام بدخول الأرض المقدسة فقالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.[2]

وإن تبعيتنا في نقل آلة الحرية واستنساخ الديمقراطية التي نراها تاجا على رؤوس الأقوياء لن يزيدنا إلا وَهنا على وَهْن. بل يُخرجنا الاستنساخ عن دائرة الإسلام بمنطق الديمقراطية وقانونها المشروط بطرد الدين من الساحة.

التشبه بالغرب في قانون الحكم يدفع بنا بعيدا عن شريعة الله. وإن لنا في الحكم لأصالة شريفة ونموذجا فريدا في تاريخ عدل البشر وأخوة البشر. تلك هي شريعة الشورى وعدل الإسلام.

---

(1) سورة الأنفال، 61.

(2) سورة المائدة، 24.

أما السوق وآلته، أعني الاقتصاد والتنمية ولوازمهما من التصنيع والتمويل والتنظيم والبحث العلومي والتسويق، فإن دخولنا إليه ضرورة حيوية. لا يمكننا أن نغلق الباب في اكتفاء ذاتي، وإلا ذبُلنا، بل زدنا ذبولا على ذبول. إذا فلا مناص من دخول السوق على شروط السوق. متى أصبح لنا وزن في السوق أمكننا أن نُملي شروطنا على قانونه. لا قبل ذلك.

يعني اكتساب الوزن وحدة المسلمين، والكفر بطاغوت التجزيء القطري الوطني الذي خطط خريطته استعمار حديث وحكم السيف من قبله. وهو طريق طويل يحدو السائرين فيه بخُطىً حثيثة حنين أبناء الصحوة الإسلامية إلى الوحدة الإسلامية، وإنصاتهم إلى داعي الله، وتشوفهم لسيادة شريعة الله.

لكن شريعة السوق وشريعة الأقوى تأبى ذلك. وتأباه القومية البعثية في العراق التي ختمت صك إفلاسها الإديولوجي بخاتم غزو الكويت، وعطف على ذلك الختم غزو الأقوياء بغداد، وتخريبهم العراق.

المطالب إذاً وحدة وشورى وصناعة. والطالب، وهم اليقظون إلى حقيقة إسلامهم من بين المسلمين، يصطرع على ولائهم قوتان. إحداهما المثال والشريعة، والأخرى الواقع وثقافته وسوقه.

تجد في سوق البضائع التجارية السلعة الأصيلة المطبوع عليها بطابع الجودة، وتجد البضاعة العادية الرخيصة، وتجد البضاعة المزيّفة الملونة بلون الأصيل.

كذلك في عالم الثقافة وسوقها. الأصيل في تقوى الله والاعتصام بحبله والشوق إلى سيادة شريعته، يقابله الوكيل المروج لبضاعة أرباب السوق وقانون السوق. وطائفة ثالثة تصدرها إلينا الجامعات الغربية بضاعة بشرية مشبوهة: دكتور في علم أصول الفقه من جامعة كمبردج، ودكتور في تاريخ الخلاف والفرق الإسلامية من السُّربون، ودكتورة في القانون المقارن من كالفورنيا.

هذا وجه من وجوه الاستعمار، من أشدها مكرا. هو الاستعمار القانوني الذي يغشى العقول، ويساور الشريعة الإسلامية ليفصم عراها من المنبع. أساتذة في جامعاتنا تروجُ دبلوماتُهم الهجينة حين تكسد الشهادات المحلية، يعلمون الأجيال منهجيات الشك، والمقارنات الاستشراقية، وغرائب الأُنبوشات، وعجائب مطالب الكنوز الأَركيولوجية. منهجية دكارط وروح مونتسكيو وحرية دجون ستوارت مل.

إن شريعة الله التي يحاول تكديرها دخلاء الفكر لقطاء العقيدة هُجناء التكوين تركز على الإنسان ورخاء الإنسان في الدنيا رخاء يسهل عليه الرحلة السعيدة إلى الآخرة. وتركز شريعة السوق التي لا تعرف آخرة ولا ربّا على الإنتاجية، والمزيد من البضائع والخدمات، ومصلحة القوي وصفقاته التجارية، والحفاظ على منابع النفط في قبضته، ومستوى المعيشة لمواطنيه، وتنويع أسباب الرفاهية لهم، ومحاربة البطالة المهددة لاستقرار الحكم وازدهار الاقتصاد.

شريعة السوق تسوِّقُ المرأة وتعطيها المكانة الأولى في عرض السلع، جسمها العاري وقدها وأصباغها جزء من السلع. جسمها سلعة بلا روح.

شريعة السوق تسوق الرجل وتقنن القِران اللوطي تعترفُ به زواجا قانونيا يخول «الزوجين» حقوق الأسرة السوية. السوية؟ ومن قال إن قران الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة غير سوي؟ إنها الطبيعة بألوانها وأذواقها. وإنها الحرية.

وتسأل أنت عن الفضيلة تريدها قِواما للقانون. لو كانت معك قوة لسُمع منك.

أية فضيلة، ومن أين نأتي بها، وكيف نقنع بها السوق المنصرف إلى شيطنته؟

أية فضيلة لا تدعمها القوة يمكن أن توقف المسيرة المجنونة للهندسة الوراثية التي تهدد النوع الإنساني بالتصنيع على مقاسات تصلح لخدمة الإنتاجية؟

الشرطة والقضاء والبرلمان ودواوين الحكومة في بلاد الغرب المصنعة القوية لها أهداف إجرائية كمية تكاثرية تبذيرية. ما لها اهتمام بغير الإحصاء الإنتاجي

الاستهلاكي التسويقي. ما لها اهتمام بشيء تجهله لأنها جاهلية: الإنسان الكائن الخالد بعد الموت في دار الرضوان أو في دار الهوان.

شريعة السوق شيطانية تصد عن سبيل الله بطبعها وخصائصها ووظيفتها. ولا بد لنا من دخول السوق مستعيذين بالله، متخذين الحيطة مما يشتمل عليه السوق من بلاء الله.

في حديث النسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن هذه السوق يخالطها اللغو والكذب**». وعند أبي داود عنه صلى الله عليه وسلم **أن الشياطين تغدو براياتها إلى الأسواق**.

فما قولك بعالم أصبح كله سوقا يحكمه قانون السوق؟ وكيف تدخل شريعة الله في معمعان من طبعه اللغو والكذب، وأول من يغشاه الشياطين براياتها، تغدو إليه مبكرة لتهييء المكان.

إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جامع، وهو الذي أوتي جوامع الكَلِمِ. فشياطين الجن التي تغدو للأسواق العينية غيب نؤمن به. وشيطنة الإنس، ولغو الإشهار وكذبه، وهوَس أسواق البورصة، وتقلبات الأسعار، وقفز أثمان الفائدة الربوية، وبهلوانيات أسعار النقد، أمور نلاحظها يوميا. لا يكتظ ضمير المؤمنات والمؤمنين بضجيج السوق الظاهر فيضيق عن الإيمان بالشياطين الغيبية حاملة الرايات وإلا فأين الإيمان؟

لمكان هذه الشيطنة المزدوجة رغّبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزو الشياطين وشركها بكلمة التوحيد وملزمات كلمة التوحيد فقال: «**من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألفِ درجة**». أخرجه الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسند حسن.

عمر بن الخطاب الذي كان دَلاَّلاً في السوق التجارية، كاسبا ماهرا. أين منه البلهاء العجزة في زمننا، والكبراء والسفهاء زبناء الأبناك بالأموال المهربة! لا حول ولا قوة إلا بالله.

الإنسان المصنع

تخلى عنا النصر لما أخللنا بشرطه. ووَكَلتنا يد القدر إلى قوانين يفرضها المستكبر لما نسينا قانون ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.[1] وخذلتنا النتائج لما قعدنا عن أسباب ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.[2]

في فصل مضى من هذا الكتاب وفي فصول مقبلة إن شاء الله لا نفتأ نذكر أهمية العامل القلبي وهو إخلاص النية لله، والعامل النفسي وهو تزكية النفس وتغيير ما بها. هنا ننظر في واحد من الأسباب التي جعلتنا لقمة سائغة لنهّابي الأمم، وموضوعا لقانون السوق والغاب، ومتخلفين في عالم المستضعفين.

السبب المشار إليه جملة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾. يتعين في ضرورة التنمية والتصنيع. ننظر إلى التصنيع من وجهتين اثنتين:

إحداهما ضرورة أن يتصنع المسلمون في إطار تنمية متكاملة، إذ لا قوة بلا صناعة قوية، ولا رخَاء يرجى لأمة تأكل ما لا تحرث، وتشتري ولا تبيع، وتبقى بلهاء عزلاءَ وعدوها الحاقد يطور من أنواع الأسلحة المتقدمة ما يحتكره لنفسه ليصب علينا في بغداد نيرانا يوجهها الإلكترون، وليستنزف أموالنا بما يسوق إلينا من «خردة» عتيقة بالثمن الباهظ من المال والاستقلال والكرامة.

الدنيا اقتصاد وكفاية. القوة صناعة. التصنيع ضرورة. واكتساب وسائله اقتحام عقبات. في العالم مجال للأذكياء الفطنين المنبعثين بباعث سام، يستطيعون أن يصعدوا بعبقرية أبنائهم وبناتهم لاقتحام حصن الاحتكار العلومي التكنولوجي، وينفذوا إليه من ثغرات تعدد الجهات المستعدة للتعاون مع من يدفع، ومع من يحرص، ومع من يتابع. فعل ذلك طاغية العراق القومي، ثم أعطى الفرصة لعدو الأمة لما خرق القانون الدولي وأعلن عن إفلاس القومية وعجزها عن توحيد

(1) سورة الرعد، 12.
(2) سورة الأنفال، 61.

العرب. «صمد» صدام حسين بعناد فريد حتى هدم الأعداء على رؤوس المسلمين ما شيدته إرادة فولاذية. لكنها كانت إرادة بعثية إلحادية خذلها الله.

التصنيع والتنمية في متناول المجاهدين إن شاء الله، يحققونه معركة بعد معركة. شرط التصنيع القدرة على المنافسة في السوق، وهذه مشروطة بتوحيد جهود المسلمين في العالم ليكونوا حجما له وزنه، وهذا مشروط بنجاح الحركة الإسلامية لأن الذي يوحد المسلمين هو الإسلام، ونجاحها رهْنٌ باحترامها لقانون الله في النصر، ومسطرته في التغيير، وترتيبه النتائج على الأسباب. ينصر من يشاء وهو العزيز الوهاب.

شروط متسلسلة متماسك فيها متشابك عامل توفير التمويل، وعامل المجال الحيوي ذي الحجم والوزن، وعامل توطين العلوم والإنفاق على تكوين ذوي التخصص وعلى البحث العلومي. أكتب علومي نسبة إلى الجمع وإن كان النحاة لا يجيزون ذلك. قصدي أن تدل صيغة الجمع على العلوم الكونية التجريبية لتبقى كلمة «علم» بالإفراد دالة على العلم الكامل الشامل: العلم بالله وبخلقه وبدنياه وآخرته، وبحكمته ورحمته، وبمعنى وجود الإنسان وسعادته في الآخرة أو شقاوته. العلوم الكونية وما تلد من صناعات إما تكون في خدمة مشروع الإنسان لتوفير الأمن والرخاء والخير للإنسان، وإما تكون من أسباب ارتباكه في المادة وانغماسه في هموم الدنيا غافلا عن ربه وعن مصيره بعد الموت.

نصل إلى الوِجهة الثانية لننظر إلى التصنيع من زاوية ما يفعله التصنيع بالإنسان. فإننا إن انغمرنا في جهاد التصنيع وإعداد لوازمه وخوض مَعْمعانه دون أن نتبصر بما فعل التصنيع بالغرب وإنسان الحضارة الصناعية يوشك التصنيع إن أقبلنا عليه إقبال الهِيمِ على الماء الزلال بعد طول عطش أن يُجهز على ما تركه فينا الغزو الثقافي من مروءة وأخلاق ودين. فإن للثقافة الصناعية وللعمران الصناعي ولحركة العالم السوقي ذي الإيقاعات السّريعة والصراعات لفعلا في جسم الإنسان وعقله وكيانه النفسي يخرب ويفتت.

لا بد أن ننظر إلى التصنيع من الوجهة الإنسانية بعين ناقدة، وإلى النظام الرأسمالي المتوحش ننتقده إن شاء الله نقدا عمليا بإنشاء نموذج للتنمية والتصنيع يكون رفيقا بالإنسان، نعرضه على بني الإنسان جميلا جذابا قويا يدعو إلى الإسلام بنموذجه كما تدعو الكلمة، بل يكون هو كلمة الدعوة المبلغة.

أَحُلْمٌ هذا! حلمُ حضيض ينفِّس عن بلواه. كلا بل هو رجاء يطرحه المسلمون على قدر الله القوي العزيز. هو نصر يستَقضونه من كرمه، ينجزه لهم متى وفّوْا بالشرط. وهو سبحانه الكريم الوهاب ذو الطول. لا إله إلا هو. إليه المصير.

نمط التصنيع الاشتراكي كان طامة على البيئة وعلى الإنسان معا. ثم ارتطم في تناقضاته وفشل وهوَى. النمط الآخر الرأسمالي لا يزال ينْخرُ في الكيان النفسي العقلي الجسمي للإنسان، يستفحل تخريبه للإنسان على قدر نجاح إنجازاته واختراعاته.

نمط التصنيع الرأسمالي يُبعثر وقت الإنسان، ويخضعه لإيقاعه، ويفسد عليه نظام الزمن الإسلامي المنضبط في نهار المؤمن وليلته، الموقوت بالصلوات الخمس.

منطق المصنع، ودخول العمال وخروجهم، ومراقبة الإنتاج، وحركة العمل الدائبة الصاخبة الصارمة الخادمة للآلة منطق آخرُ غيرُ منطق الاقتصاد الزراعي الساذج الذي نشأ فيه الفقه الإسلامي وارتاحت فيه أوقات المسلمين يغدون إلى المسجد ويروحون.

التصنيع مدن تعج بالحركة، واستعباد للإنسان، ونظام وزحام، ودخان ورُكام. فمتى غلبت الخدمة الضرورية للكسب الصناعي التنافسي ذي الإيقاع المحموم على العبودية لله عز وجل، وعلى مراسيمها ووقتها وتفرغها لذكر الله ساعة وساعة، فقد يفوز العباد برخاء الدنيا مقابل ثمن مُجْحف مُرْدٍ هو الانزلاق من غفلة إلى غفلة، إلى نسيان ذكر الله، إلى التخفف من الدين، إلى الانسلاخ منه، إلى الخسران المبين، خسران المرء نفسه في الدنيا والآخرة.

التصنيع سيادة الآلة ورأس المال والتكنولوجيا الماسكة بالزمام على موارد الطبيعة وعلى وقت الإنسان وخياله وعقله ورغباته وكله. ذلك أن العالم الـمَصْنَع سوق، والسوق عرض للبضائع وطلب، والإشهار ركن في التبادل التجاري، وصداع في رأس الإنسان، وهوس يطن في الأذن، ويخطف العين، ويناجي الذوق، ويفتن الفتنة الصارخة بالألوان والزينة والغلاف وهندسة فن الدِّزَايْنْ.

عندما كتبت في عنوان الفقرة «الإنسان المصنَّع» قصدت معنيين اثنين: أولهما أن الإنسان المصنع والمجتمع المصنع يقابل الإنسان العاطل والمجتمع الأبله الأعزل الفقير المتخلف الزبون الذي يشتري ولا يبيع، وتنهب خيراته، ويستهلك ولا ينتج، وتأكله الذئاب لأنه يأكل ما لا يحرث.

المعنى الثاني للإنسان المصنع كما قصدته هو هذا الذي نحن بصدده، حين تستولي الآلة على الإنسان وتضيفه إلى مملكتها، وتصيره عضوا من جسمها. وحين يقوض نظام المدنية الصناعية، وجغرافية العمران الصناعي، ما يساعد المسلم والمسلمة على ربط علاقات الحوار مع المسلمين، وعلى وصل ما أمر الله به أن يوصل من وشائج القربى، وعلى تركيز الحياة اليومية على المسجد بحيث يكون الهامش هو السوق، والمسجد هو القبلة لا المصنع، والوقت وقت الصلاة، ونداء الأذان هو الإشارة المنتظرة أهم مما تنتظر صفارة نوبة العمال.

كيف الجمع بين ضرورة التصنيع وواجب الدين؟ كيف الحفاظ على همس القلوب وهي تناجي ربها وسط جعجعة المعامل؟

في بلاد الغرب العقدة منحلة بطرد الدين من معبد الآلة. كنيسة الصناعة بنيت على أطلال الكنيسة النصرانية. فالدين هنالك لاييكية، والدولة غسلت يدها من هم الأفراد، ورأس المال لا يسأل الإنسان عن دينه، لكن عن إنتاجيته.

في بلاد المسلمين تنجرف بنا التربة بعامل الغزو الحضاري الذي من جملة آلياته إحلال روح السوق، ومركزية السوق، وسيطرة السوق، وإشهار السوق، والفن الإعلاني الإعلامي، واللون، والمرأة الدمية المعبودة المكدودة العارضة، يربط الإشهار مفاتن جسدها بالمزايا المزعومة للبضاعة.

التصنيع ومنطقه هجوم شامل على جسم الإنسان وأعضائه وعقله وحواسه وشعوره وغرائزه. هجوم على دخائل الإنسان الذي يُقدَّر أنه سائق الصناعة فاعلها، فإذا به مفعول مسوق. صنع الآلة فانقلبت عليه تصنعه. اخترعها فإذا بها تخترع منه آلة مساعدة لها.

كيف نراود الضرورة الصناعية ولوازمها حتى نعطي للمجهود الجسمي والعقلي معنى الجهاد، وحتى يحتفظ الإنسان بالسيادة وإدارة المقادة التي تميل الآلة لاستخلاصها منه ليصبح نوعا من الرُّبوط وهو راغم الأنف؟

كيف نضفي على الكدح الدنيوي معنى العمل الصالح المدَّخر للآخرة؟ كيف نربي المسلمين والمسلمات العاملين كسبا ضروريا والعاملات ضرورة كسبية على إتقان الصنعة دون خيانة أمانات الصانع الخالق سبحانه؟

كيف نخضع رأس المال المحلي وروافد التمويل العالمية لتحترم شرع الله وقانون الإنسانية والعدل، وهي قائمة الأساس على الربا، وهو الظلم العظيم؟

التصنيع ضرورة لصحة الأمة، وخطر على صحة الأمة. كما تلتهم الآلة في المعمل عضو العامل إن غفل طرفة عين أو استهان بمنطق الآلة، كذلك توشك آلة التصنيع ولوازمها أن تلتهم منا الروح فنبقى كبعض الأشباح الهائمة في الدنيا الرجراجة المرتجة بعويل الجائعين وضجيج المصنعين. والله الولي لا غيره.

بائسات التحول

نرى في هذه الفقرة إن شاء الله ما تفعله الآلة الصناعية إذا هجمت على مجتمع مسلم وما تلتهم منه وما تبتُر. ونرى إن شاء الله ما تفعله الآلة الأخرى، الحرية، إذا أقحمت على شعب مسلم بصورتها الديمقراطية يعززها قانون اللاييكية. نرى شريعة الله وشريعة السوق –وأية سوق!– في صراع دموي تاريخي.

معادلة اجتماعية ومسيرة تاريخية وفعلة استعمارية عناصرها كما يلي: شعب مسلم يغُط في سُبات انحطاطه. وأمة أوربية في عنفوان قوتها تهجم وتستعمر البلد بعد مقاومة بطولية دامت عشرات السنين. مالت الكفة لأن القتال غير متكافِئ بين أمة مصنعة وأخرى عزلاء. واستفحل الاستعمار الاستيطاني وجنّس الشعب المسلم حتى كاد يطمِس هويته.

بعد قرن وربع قرن تغربت فيه أجيال ثلاثة من أبناء المسلمين هب الشعب العميق ملبيا نداءَ الإسلام والعروبة والوطنية، كل ذلك تحت شعار: لا إله إلا الله والفرنسيس عدو الله.

أهم عناصر المعادلة ومحطات السيرة أن الثورة الجزائرية، كغيرها من الثورات في بلاد الإسلام، كانت ثورة مسلمين قاتلوا عدو الدين. وكانت ثورة فريدة في التاريخ بقوتها وصمودها.

ركب المغربون قطار الثورة تجمعهم مع راكبي القطار موقدي ناره ومحركي عجلاته الوطنية الأنفة وكراهية المستعمر. ثم غلبوا على المقادة لكفاءتهم الإدارية وثقافتهم. حتى إذا اضطر المستعمر إلى الانسحاب أمسكوا بزمام السلطة، ووجهوا البلد إلى سياسة استبداد الحزب الوحيد وإلى اقتصاد اشتراكي ومذهبية اشتراكية حائرة بين قومية وطنية عروبية وبين إسلام موروث وهوية تبحث عن نفسها وضرورات التنمية والتصنيع.

وهكذا أنفقوا بعضا من أموال النفط واختلسوا بعضا. واستوردوا صناعة جاهزة تملكها الدولة، وتسيرها الدولة، وتأكل ثمراتها برجوازية الدولة والطبقة المغربة التي استندت إلى ماضيها النضالي وإلى سلطة الحزب الوحيد لتنهب خيرات البلد وتغرقه في الدين.

ناء البؤس بالمسلمين من ضحايا التحول السريع العنيف الذي حط على مجتمع زراعي، تسعون في المائة منه أميون، آلة صناعية ثقيلة. فبعد أكثر من ربع قرن من الاستقلال ومن سوء التدبير الاشتراكي انتفض الشعب المسلم واشتكى من بأساء التصنيع الـمُصنِّعِ الهاجم ومن ضراء التسيير غير الأمين ولا الذكي ولا الناجح.

وجاء الجواب عن الشكوى والعلاج للمرض من صيدلية الغرب على شكل تفتح الآلة الأخرى: الحرية. هاتوا الديمقراطية وتعدد الأحزاب وحرية الصحافة.

وكان قد ترعرع في أكناف العروبة الوطنية وعلى هامش السيادة الاشتراكية جند الله يريدون شريعة الله دواء للحال. وساق المنطق الديمقراطي إلى انتخابات فازت فيها الحركة الإسلامية فوزا ساحقا. فثارت ثائرة المغربين المتربعين على كراسي السلطة أسيادا، وثار هلع الغرب وخوفه من قيام دولة إسلامية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. يخيم على كلمتي «دولة إسلامية» في خيال الغرب ظل الإمام الخميني رحمه الله، وتمرده على السيطرة الغربية، وطعنه لكبرياء «الشيطان الأكبر».

ويتسلسل التاريخ، وتَرْجَحِنُّ كِفَّتا المعادلة الاجتماعية بين تلامذة شريعة الله الصاعدين وبين الطلبة البلداء للاشتراكية الآفِل نجمها، يحاولون الدخول في دين شريعة السوق.

أكتب هذا ليلة الأحد خامس شهر رمضان المعظم سنة 1413 والجزائر بؤرة للعنف مشتعلة، والقتال يومي، والمحاكم العسكرية ترسل للإعدام أفواجا من المؤمنين، والسجون غاصة بالمجاهدين الذين قاوموا تيار الغَرْبنة والكفر.

تخبطات نموذجية وتحولات لاقتصاد حائر بائر أفلس في مذهب الاشتراكية فهو يحاول بمساندة الغرب الصليبي أن يتجنس بجنسية اللبرالية، في نفس الوقت الذي ينحت فيه بالحديد ويصهر بالنار كيان شعب رفض الاشتراكية وسدنتها ومذهبها، ورفض شريعة الغرب وأعلن ولاءه لله وثقته بجند الله.

نسأل الله العلي القدير أن يعجل بالنصر للمسلمين في الجزائر وفي البؤرة المأساوية الأخرى في البوسنة، وفي غيرهما، نصرا مقدمته الوصول إلى الحكم، وعامة جهاده ما بعد الوصول إلى الحكم من مهمات البناء.

على درجة أو أخرى من مأساوية التحول ورفض المسلمين للنموذج الغربي، يرث المؤمنون غدا القريب إن شاء الله آلة الدولة وجهاز الحكم ومعهما من آلة الصناعة وعَقابِيل الفشل الاقتصادي ما يلقي على كاهلهم مسؤولية ثقيلة.

مما ترث الحكومة الإسلامية غدا القريب إن شاء الله وضع النساء بائسات التحول. هُنَّ الوافدات من بوادي الفقر والحرمان على مدن صناعية يلتمسن العيش الكريم.

هن الفلاحات وأزواجهن الذين جردهم المستعمر من أراضيهم وأسلمها بعد الانسحاب للدولة الاشتراكية أو لطبقة مستكبرة.

سعى خراب البادية إلى خراب المدينة، يوسعها بؤسا وتوسعه فسادا. اختلط ضحايا التحول الوافدون من البادية مع العاطلين من أبناء الحاضرة وبناتها اختلاط الحابل بالنابل. فاندرست في الضواحي المكتظة بمدن القصدير فضائل البادية، وقيم التكافل بين الأقرباء، ومعالم الحياء والعفة والشهامة وصون الكرامة وماء الوجه. في المدينة الكبيرة لا يتعارف الناس، ولا يتحاشَى أحد معرة السلوك الشائن لأنه مجهول بين مجهولين، ولأنها بَائسة بين البائسات. نكِرات بين نكرات.

من البادية وفدت القرويات. ألفن في البادية رعي الماشية وحِصاد الزرع وجمع الحطب والتشمير عن ساعد الكدح، جنباً إلى جنب مع الرجل، تكنُفُهما

براءة الفطرة، وجدية العمل، وشظف العيش، واستغراق الوقت والجُهد في تجميع ضروريات المعاش.

وفدن من البادية هروبا من بؤس في أحضان الطبيعة كان يُخَفف من وقعه ألفة القرابة وحُنوّ الخالة والعمة إلى مدن القصدير حيث تتزوج رذائل البادية، وقد أفلتت من مُناخ الفطرة، برذائل المدينة، وحيث يتضاعف البؤس مضروبا في الشعور بالحرمان.

من نلن حظا من التعليم اليدوي من بنات المدينة الفقيرات أو من الجيل الثاني والثالث من وافدات البادية، يُصبْن، بل يصيبُ بعضهن، بل قد يصيب بعضهن أو لا يصيب عملا في مصانع الخياطة والتعليب وخدمة الآلة الصاخبة الآمرة الناهية. أجيرات مؤقتات بلا ضمان ولا استمرار ولا استقرار.

عاملات يعشن في هم اليوم والغد، يعانين من ظلام الجهل والأمية، ومن فقدان التوازن النفسي، ومن انعدام الأمن على المعاش، ومن الزحمة الشديدة في وسائل النقل، ومن سوء معاملة رب العمل ومراقب العمل، ومن الغربة بين حركة المدينة وضوضائها منذ تحولن من نمط العيش القروي وبساطة بيئته وسذاجة علاقاته البشرية.

هذا بعض ما تفعله شريعة السوق للمحظوظات اللواتي ظفِرن بعمل. أما أسراب الأميات وأنصاف الأميات غير المؤهلات فطريقهن مُشْرَع إلى سوق النخاسة البشرية والزنى مباشرة. بينما تسلك إلى سوق المهانة أخريات طريق الخدمة في البيوت، وهوان الخدمة في البيوت، وحرمان الخدمة في بيوت الناس. ومن الناس نسناس.

الخادمة المكدودة تعامل في بيوت الناس/ النسناس معاملة الكلاب، يُلقَى إليها بدِثار للنوم على الأرض وتأكل من الفُتات. كمَدها في صَدرها، وحقدها على العالم وعلى الناس تصبه صامتة على أطفال سيدتها التي قد تَكون موظفة تعاني بؤسا من نوع آخر أو مترفة يخدمها طاقم من البائسات.

شريعة الله من أين تبدأ إصلاح ما أفسده المفسدون يوم ترث التَّرِكة الثقيلة؟ كيف تُعامل بؤس المرأة والرجل؟ هؤلاء البائسات اللواتي يعرضن أجسامهن للبيع في شوارع عواصم التحول هل هن المنكر، أو المنكر ما جعلهن بائسات؟

طفلة جاءت من باديتها في ربيع العمر، تكتشف بَهْرج المدينة، وتشاهد ما يؤجج شعورها بالحرمان من متاع الأخريات المدنيات، وترفهن، وألبستهن، وسياراتهن، وطعامهن، وحفلاتهن، وأزواجهن، وما إلى ذلك. ثم لا تجد من سبيل للتقرب من عالم الرفاهية إلا أن تسعى للخدمة في بيوت من يذيقونها عَلْقَم الحياة بينما هم يكرعون من لذات الحياة.

خيبة أمل، وضغينة، وكمد في الصدر، وشارع، ومعرض فاحشة.

ما تفعل أنت يا أخي يا صاحب فتوى «لا يجوز!»؟ يا حاميَ الشريعة وراعي الفضيلة؟ يأيها الصادقون المؤمنون؟ يأيتها الصادقات المؤمنات؟

ما نفعل إن سترنا جسم المرأة وطاردناها في الشوارع لتغطي شعرها؟ هل نغلق سوق الرذيلة وباب البؤس إن ألبسنا نساءنا لباسا محتشما وتركنا الداء الكمين في الأحشاء يستشري؟

إنما يعالج بأساء الفقر وضراء الرذيلة العدل. والعدل الدرهم. والدرهم وطنه السوق. والسوق اقتصاد وسلع وإنتاج وصناعة ومنافسة وتسويق. السوق عالمية، والعالم يسيطر عليه الأقوياء الأغنياء. العدل الشريعة والقضاء وسلطان الحكومة. لكن الشريعة والقضاء والحكومة مطاحن بلا طحين إن كسدت بضاعتك في السوق، وشَحَّ الدرهم، واختفت ضروريات المعاش اليومي من الأسواق، وارتفعت الأسعار.

يكفرون إذا بإسلامك، ويرمين ظهريا حجابا ليس معه خبز ومسكن وصحة ورخاء. عامة المسلمين والمسلمات ينتظرون من الحكومة الإسلامية، ومن شريعة الإسلام، ونجدة المطالبين بتطبيق شريعة الإسلام، خلاصا من البؤس المعاشي وإشباعا للضرورات الملحة.

كلمة التحول الإسلامي: اقتصاد. كلمته الجهاد. جهاد إن انكب على دراسة ملفات الاقتصاد، وإيجاد حلول للاقتصاد فذاك، وإلا فإن فساد الاعتقاد يلده لك البؤس المنتكس غدا إن لم تطرده اليوم.

اقتصاد لا مندوحة عنه. سوق يتحداك بصفاقة. شريعة السوق تسألك إلحافا، وتهلك الحرث والنسل فاقة هنا وجفافًا، وثَم تلعب بهما تبذيرا وإسرافا. والله لا يحب المسرفين. ويحب التوابين ويحب المتطهرين. هو المستعان أرحم الراحمين.

بيئة وتلوث

ما أشبه البيئة السياسية التي لابد للإسلاميين من لفيح بلائها بالبيئة الصناعية ونفاياتها!

والحديث عن البيئتين والمنغصين حديث واحد. لا نزال في البحث عن سبيل لرتق ما انفتق من عرى الإسلام.

يريد المثالي البعيد عن الميدان أو المتحمس المنغمس في كتب السلف الصالح وأدبيات الرفض الإسلامي أن تسود شريعة الله. لكنه غير مستعد أن يلوث يده بطين البناء ولا أن يصيب ثوبهُ قطرة من رشاش الغسيل القذر. غير مستعد أن تلفحه شرارة أو يخدِش سمعته كلمة جارحة. فيبقى في عالم الكلام، والكلمة نظيفة. الكلمة سماوية، وأبراج الرفض والاستعلاء والتطهر سامية نبيلة. أما الفعل والجهاد ومزاولة الواقع ومكابدة النقائص فمزاحمة وعرَق ومكافحة أوساخ.

الفعل والجهاد ومزاولة النقائص تقتضي أن توطد العزم على التشمير عن ساعديك حتى المرفقين لتدخل الميدان، وتتعرض للتلوث بإفرازات البيئة السياسية، ولتنصبَّ عليك ملامات المستعجلين، واعتراضات المثاليين، ولتَجْبَهك صفاقة أهل السوق، ولِتساوِمَ وتُساوم لعقد صفقات السوق.

تصبح رب عائلة، قفة ربة البيت في يدك، والعيال منهم من يتضور جوعا، ومنهم من يشكو عريا، ومنهم من أضحى بلا مأوى. وأنت المسؤول لا غيْرك. تذهب أيام الراحة والمعارضة والرفض. فإما تضطلع بمسؤولياتك مقدرا المسافة الشاسعة بين المثال والواقع، والضرورة، والأولويات، ومراتب التكليف، وطاقة الوُسع. أو تبقى منزَّها في طهر معارضتك، وتنديدك بالباطل، وشتمك لمنكر الواقع، ورفع قبضتك في وجه الشياطين الغادية براياتها.

إنه تعرض لغبار المعارك، وعجاج السياسة، وأوحال الاقتصاد. أو هو الركود في دعوة حالمة، ووعود مُسَوَّفَة. أو التوتر الدائم، واستهلاك الأنفس والدّين والمستقبل في عنف يائس، وغضب عاجز.

إنه اقتحام السوق السياسية الاقتصادية علما بأنها سوق لا مسجد، وأن قانون العرض والطلب جار فيها، وقانون تبادل المصالح مع القوى العالمية حاكم عليها، يفرض عليك أن تتعامل مع عدو لا مناص من التعامل معه.

ومن نكَد الدنيا على الحر أن يَرى عدوا له ما من صداقته بُدُّ

نكَدٌ تقبله، وسَوْمة سوق ترجع من الطريق إن لم تعرفها ولم تتقن المساومة عليها.

بعض الإسلاميين لا يشعرون إلا وقد دقت الأقدار على أبوابهم أنْ قد جاءت الساعة. يفْجَؤُهم القدَر ولُجوء الأمة إلى حِماهم وهم في استِعارِ خطاب المعارضة والغضب على الباطل. ذلك الخطاب المحلق في سماء المبادئ يشق عليه أن يتنزل إلى أرض البدء من واقع مريج، ومساومة ضرورية، وخطإٍ وصواب. كان هم المحلق مركوزا على التنديد بالباطل، لم يدرس واقع الباطل وجذوره التاريخية وملابساته العالمية، فلم يَقْدُر العقبة قدْرَها. فيجد نفسه وقد وصل إلى الحكم مقيدا مصفدا بتصريحات الرفض بالأمس.

إيران الرائدة تعبت ولا تزال في تعب، تلتمس طريقا للتخلص من خطاب الرفض وسياسة الرفض لما شعرت بالعزلة، واكتوت بنار العزلة، بعد أن أدركت أن التعامل مع الشياطين الكبار والصغار من طبيعة السوق وإن كانت الشياطين الكبار والصغار لن تذعن يوما للحق فتدخل المسجد. أدركت إيران أن مثالية المعارضة شيء، وأن مزاولة الحكم دخول في المخَاضة حتى الركبتين.

استرخى أو يكاد ذلك الذي أرسل القومة الإسلامية إلى أجل غير مسمّىً ريثما تتربى أجيال على الإيمان وتتألف القاعدة الواسعة. وعرض نفسه للخيبة العاجلة

من تعجل فحسِب أنه بديل للعُقاب آكلِ الجِيَف بينما هو لا يزال فرخـًا لم يُزْغِبْ. ربما يكون فرخ نسر قناص غلاب، لكنه فرخ في العش لا يزال.

أحد الدعاة يلخص الموقف الجافل من بيئة التلوث إذ يقول: «لو عرضوا علي الحكم في طبق من فضة ما قبلت».

تستريح إن عَلَوْتَ برج المراقبة، وضربت موعدا مع الزمن في أجل غير مسمى، وفوضت للأجيال اللاحقة النيابة عنك. لن يرميَك أحد بأنك تسترضي الغرب، وتلَيّنُ القول للشياطين، وتقبل أنصاف الحلول، وتصافح الكافرين، وتستمع إلى الكافرات. تحتفظ بيدك نظيفة، وبخطابك غاضبا رافضا مزمجرا على هامش الأحداث. وتحتفظ بأنفَة الذين لا تنحني جباههم إلا لله في سجود الصلاة.

تحفظ شريعته سبحانه في خُوَيصة نفسك فأنت على خير في صومعتك. لكن فاتك العلم بناموس الله في التدرج، وفاتك الدرس النبوي ومثال النبي الرسول صلى الله عليه وسلم الذي سجد لله ثلاث عشرة سنة عند الكعبة يعلوها ويحيط بها ويسكن جوفها أكثر من ثلاثمائة صنم.

لا يكن أعداؤنا أذكى منا! من مبادئ السياسة المهضومة في معارفهم، الجارية في تعاملهم مع القريب والبعيد، أنه لا عدو ولا صديق إلا المصلحة المتحولة. متى أدرك هؤلاء أن مصلحتهم التجارية الاقتصادية الاستراتيجية التي تضمن للعالم -عالمِهم إذ هم الأقوياء- الأمن والاستقرار إنما هي في التعامل مع الحركة الإسلامية التي لا محيد عنها، فستجدهم سراعا إلى إِخفات صوت العداوة الصليبية التي في الأعماق.

ونعبر من كيد شياطين البيئة السياسية إلى رجس النفايات الكيماوية في البيئة الصناعية.

ما علاقة المرأة ربة البيت المؤمنة مع البيئة السياسية والأخرى الصناعية وهي منصرف همها اليومي إلى صحة الأطفال وراحة البال، وسعر سوق الخضر،

ومِلْء القفة اليومية؟ ما علاقة المؤمنة، وهي مع نساء العالم منصرفة ما وسعها الانصراف إلى بيتها وأسرتها، بالبيئة الصناعية وتلوثها، وبالخروق في الأَزُون بالأجواء العليا، وبارتفاع حرارة المحيط الجوي فيما يسمى بظاهرة قُبة الزجاج، وبالغابات الـمُحْرَقة، وبالتصحر، وبانجراف التربة، وبعدوان الرأسمالية على رِئة الكرة الأرضية بالأمازون، وبالأنظمة البيئية وقوانينها؟

العلاقة أن مصير العالم وما يهدده من نكبات من فعل التلوث البيئي له وقْع مباشر على الرخاء في القفة وصحة الأطفال وسكَن العائلة. ذلك أن الاقتصاد شأن عالمي كُرَوِي. ما يحدث من كارثة معتبرة في أقصى الأرض تجد صداه في اللحظة في أقصى الأرض. وذلك أن المؤمنة من حيث هي مؤمنة لا مجرد ربة بيت وراعية أسرة تعلم أن رخاء ذويها مَنوط برخاء الإنسانية على وجه الأرض، وأن رخاء الإنسان والسلام في العالم يكونان الجو الأنسب لبث دعوة الإسلام. فقد كاد الفقر أن يكون كفرا كما قال الإمام علي كرم الله وجهه. والحديث رواه الحافظ ابن حجر مرفوعا في «المطالب العالية».

وتعلم المؤمنة من حيث هي مؤمنة أن اهتمامها بالبيئتين السياسية والصناعية إنما هو اهتمام بشؤون أمتها، وقوة أمتها، وقدرتها هي آخرَ الأمر على حمل رسالة الإسلام وبشرى السعادتين، الدنيوية والأخروية. وذلك مما يقربها إلى الله مع المجاهدات، إن رضي بعضهن بهمهن الشخصي وعاق أخريات عن حمل الرسالة أميتهُن وفقرهن وبؤسهن.

لا ينحصر تلوث البيئة الصناعية –وكل الأرض بيئة غزتها الصناعة قُلاًّ أو جُلا– في الدخان الكثيف من المعامل، وفي السموم الكيماوية، والمبيدات الحَشَرية، والإفرازات المتسربة إلى جوف الأرض المنتشرة في جو السماء الخانقة لأسماك البحر.

الغرب الغني يعيش في عالم ما بعد التصنيع، فهو يحاول بتقنيات متطورة إلكترونية معلوماتية إقامة صناعة نظيفة في بلاده، ليُحيل على بلاد المستضعفين

وليبيعها بالثمن الـمُجْحِف وبمقدار، وبقانون السوق وسلطان الأقوى، صناعات ملوِّثة مثل الصناعات الكيماوية، والتحويلية وصناعة الحديد والصلب والتعدين والميكانيك.

ولا مفر لنا من توطين هذه الصناعات من الدرجة الثانية، ومن قبول قسمة العمل التي يسخر بمقتضاها أقوياء العالم ضعفاءه لإنجاز المهمات القذرة.

وإعدادنا للقوة كما أُمِرنا يطلب أن يكون لنا أفق ولو بعيد نرسمه أمامنا، ومقترحات نطرحها على الإنسان ونتطارحها بيننا لنؤسس نموذجا حضاريا بديلا عن الحضارة الجاهلية. وعلى الطريق العقبات والزمن والصبر والعمل.

أُفقُنا القرآن الذي فتح الأبواب للتعامل مع البيئة السياسية في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.[1] هل العدوان الصليبي المستمر قتال في الدين أو خارج الدين؟ وما حكم الشرع في الذي قال كلمة الكفر مُكرها وقلبه مطمئن بالإيمان؟

أفقنا فيما يخص البيئة الصناعية هو القرآن الذي قَبَّح الإسراف والتفاخر والتكاثر والشح والأنانية، ولعن المبذرين إخوان الشياطين.

قبح القرآن معاني يجسدها اقتصاد السوق، وتظهر فيها أخلاق السوق. صفات في النفس وأخلاق رديئة هي الأصل في انشقاق العالم إلى عالمين، وفي اكتظاظ الكرة الأرضية بالبؤساء، يتمتع عشرون في المائة من سكان الأرض اليوم بثمانين في المائة من خيرات الأرض، ولبؤساء الأرض الفُتات. ولهم النفايات المسمومة تصدر إلى بلادهم لقاء حفنة من الدولارات.

تتجسد الأخلاق الجاهلية الرديئة التي تحكُم سلوك الأنانية الاستكبارية، وتتجسد طبيعة السوق وضرورات التصنيع، في اكتظاظ الضواحي الصناعية،

(1) سورة الممتحنة، 8.

وفي الضجيج المزعج، وفي السرعة والحركة الدائبة التي تُلهي الإنسان لا تترك له لحظة التفكير في مصيره بعد الموت، وفي الزراعة الوحيدة التي تُفقر التربة، وفي الفقر المدقع الذي يحمل الفقراء على قلع الأشجار فتنجرف التربة، وفي العدوان الرأسمالي الذي يغير على غابات العالم فيهدد مستقبل العالم، وفي انتشار الإسمنت المسلح يقلص المساحات الخصبة، وفي الأَسْفلت يبسُط الطرق السيارة لمن يملكون سيارات.

تتجسد الأخلاق الملوثة في التحريض الإشهاري الذي يجند النساء الدُّمى ليبعن بضاعات تافهة متجددة، يبدد تصنيعها مادة المعدن، وجهود المهندس، وطاقة المستضعفين الشرائية. تتجسد في طوفان الإعلام، وفي الصحف التي تزن بضع كِلُوَات. الإنسان الجاهلي أعظم ملوِّثات البيئة. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين.

عصر الهوائيات

يهجم دخان الصناعة الثقيلة الملوثة من الدرجة الثانية، وتهجم سمومها، على جسم الإنسان وعلى بيئته الطبيعية، فتتلوث الرئة، وتصاب الأطراف، ويتسمم النبات والحيوان في البر والبحر. وتسخن الكرة الجوية فيما يسمى بظاهرة القبة الزجاجية، وتُهتك طبقة الأزون مهددة ببلاء سحيق أجسام أهل الأرض وأقواتهم ومادياتهم. إفساد في الأرض يؤدي إلى الفقر، ويؤدي الفقر إلى الكفر. وقد قال الإمام علي كرم الله وجهه: «كاد الفقر أن يكون كفرا». رواه الحافظ ابن حجر مرفوعا في كتابه «المطالب العالية».

هناك إفساد في الأرض أعتى وأشنع وأسرع تأْدية إلى الكفر. إفساد مباشر مكفِّر هو ذلك الإعلام الدوابّي العاهر السوقي الذي يتلصص من السطوح فينفذ إلى الأجهزة الملتقطة من خلال الهوائيات المقعرة الدائرية والممتدة.

عصر الهوائيات هو عصر سيادة ثقافة الأقوياء الأعلى صوتا، الأشد تأثيرا في النفوس. آلة الالتقاط والهوائية المقعرة يصدرها إلينا المستكبرون في الأرض أربابُ العلوم والذكاء والعبقرية فيستنزفون ماليتنا العامة، وميزانية الأسرة، ويقضون على أمل ما يمكن أن يتطور عندنا أو ينشأ من صناعة إلكترونية بما يُغَذُّون به شبكات التهريب، وبالتخفيض تلو التخفيض لأثمانهم التنافسية الناتجة عن التكنولوجيا الرُّبُوطية وما تتيح من إنتاجية عالية.

اليابان اليوم تسيطر على صناعة آلة الإعلام سيطرة تكاد تكون تامة. خمس وتسعون (95) في المائة من آلات الفيديو في العالم من صنع ياباني. سبعون في المائة من آلات التصوير. وفي الأفق القريب نجاح محتمل للنموذج الياباني فيما يسمى «التلفزيون ذو التدقيق العالي» الذي يعد ثورة داخل الثورة الإعلامية.

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله يفاجئ في مجالس وعظه جلساءه بسؤال موقظ متحد قائلا لمخاطب غيرِ معيّن: «ما اسمك في عالم الملكوت؟»

سؤال تربوي يستنهض به الهمم. ما اسمنا في عالم الصناعة وثورات العلوم والتكنولوجيا؟ الجواب لا شك: هِيان بن بِيان، نكرة لا تتعرف.

مضى زمن الأدبيات الإسلامية التي كانت تبرر وتعتذر. وليس يقعد بنا عن المعالي مثل الفكر الرافض التطهري. وتوبيخك للنفس ضرب في حديد بارد إن لم يكن معك مشروع عملي تحمله قوة اقتحامية تصانع الواقع لتصبح يوما هي الواقع السياسي الذي لا يمكن أن يروغ عنه مستقبل الأمة. وإن معرفة وزننا الحقيقي في الميزان الذي به تقاس القوة في هذا العصر، وهو درجة التنمية وامتلاك العلوم والصناعة والتقنية، لأمر ضروري لتقدير ما ينتظرنا من جهاد، ولتوجيه ما يلزمنا من جهاد بناء بعد تقويض أركان الباطل.

الـمُنْتَجات الإعلامية من أفلام ومسلسلات ومجلات، ومضمونها الثقافي، وحاملها الفني من تقنيات السناريو والإخراج، مجال تسيطر عليه الولايات المتحدة سيطرة كاملة. حتى منتجات اليابان في هذا الميدان ومنتجات أوربا تمركنت واستوى معظم بلاغها للناس على ركيزتي الزنى والعنف والجريمة.

التلفزيون نشتري آلتها الإلكترونية بدم الحياة وعرق الجبين، وتنهمر علينا بما يشبه المجّان مسلسلاته ودعايته وإشهاره من مَيازيب السطوح. خطفت الثقافة المرئية المسموعة المهرجة الخليعة المتلصصة من الأم أبناءها وبناتها. بل خطفتها نفسها وأخذت أفراد الأسرة رهائن في انتظار ملهوف للحلقة التالية. الأسرة تنتظر مصير البطل والبطلة الذي عُلِّق في الحلقة الأخيرة على عقدة مأساوية تتجدد في حلقات الخيال الماجن السخيف. تجلس الأسرة لمشاهدة ما كان منكرا يخدش الحياء ويجرح المروءة بعد أن وطَّأته العادة واستألفه التكرار فأصبح أمرا عاديا. انتهك برقُع الحياء وأصبح ما كانت تنفِر منه الفطرة ويمجه الذوق ويضج منه الدين أمرا أليفا مألوفا.

الخلاعة والزنى واللعب بالأعراض فن أوربي ترعرع في أحضان الأدب الأوربي منذ قرون. في تاريخ انحطاطنا خلاعة مؤدبة شعرية تجد نموذجها في مثل كتاب الأغاني وجواريه ومجالس شرابه. لكن الخلاعة الأوربية شيء آخر،

إن أضفت إلى أصالته وعراقته فَجاجة الأسلوب الأمريكي وواقعيته وتقنياته حصل لك ما تراه وتسمعه سائدا في العالم مبثوثا محترما.

أُتَرجم من دائرة المعارف الفرنسية «أُنيفرساليس» ما يلي: «الخلاعة إحدى التقاليد الأكثر رسوخا، إحدى السِّمات المستمرة -لا سيما في فرنسا. في الأدب- (...). روح الخلاعة في الحقيقة نظام مؤسس على الثلب والريبة والبذاءة، وعلى السخرية بالأفعال الجمالية والشؤون الخاصة بها: الفاحشة، والحياة الجنسية، والحب.

«ينبغي الانتباه. فالسخرية موجهة دائما إلى الأضعف وهو المرأة. يُسْلِم روح الخلاعة المرأة أحطَّ مرتبة ليستولي عليها، أو لتُشترى، أو لِتؤخذ مجانا.

«روح الخلاعة هو الذي يطلق على المرأة لقب «صاحبة» أو «إِوزة بيضاء» أو «أرملة مرحة» (...). وتحت هذه الإنارة تصير المرأة حيوانا نصف داجن ونصف متوحش يملك قدرات شيطانية». انتهى المقصود من كلامه.

نمسك لنتأمل فيمن حولنا وفي أنفسنا من الأثر البليغ للتزييف الإشهاري والتمييع الخلاعي وبؤس الدمية المرأة الحيوان الداجن المتوحش. تزييف وتخليع يلوث بالكذب السوقي عقل الإنسان، وبالخلاعة الدوابية قلبه، ويشكل أشواق نفسه وهواجس عاطفته ومرامي حاجته ويسرق من جيبه كما يسرق من وقته ومادة حياته ومن ذريته. عُمْرك يا هذا ما فعلت به؟ فغَرتَ فاك الأعوام الطويلة أمام نافذة الشيطان يغدو عليك ويروح بتحفه الخيالية الزائفة.

إنه هجوم على روح الإنسان بقوة تفجيرية تشتيتية. الأسرة تشتت، فالأم مربية الأجيال وصانعة المستقبل لم تعد تجلس إلى ذريتها، والأب مشغول في تتبع طوفان الأخبار وكأن على الإنسان العصري أن يَطرقَ أذنه خبر كل طائرة سقطت، وكل نأْمةٍ سُمِعت، وكل سخافة ضخمها الإعلام فأصبحت قضية، وكل نزاع عقدته الدبلوماسية السيطرية فطنّ به طنين الدعاية المخابراتية، فأصبح شأنا يهدد أمن الكرة الأرضية.

حتى الجدة تأقلمت مع بيئة الإعلام الملوِّث، فهي مشدوهة بما ترى وما تسمع، تساير عالم التواصل وإثارته وتهييجه وهي على أبواب القبر.

كل هذا يصب في التيار الجاهلي ويجرف إليه: الغفلة عن الله عز وجل، وعن المصير الأخروي. التيار الجاهلي تبذير ولهو ولعب وزينة وتكاثر يرقص على نغمة التجويع الاستهلاكي الذي يَنْخسك في غرائزك لتشتريَ ثم تشتري. ويضمك بين ذراعي الخلاعة والإشهار لتغرق في لجة الحياة الدنيا.

ليس باستطاعة المسلمين أن ينافسوا العالم في صناعة الآلة الإلكترونية والعلوم عنهم نافرة، والصناعة عندهم معدومة داثرة، والتكنولوجيا مضبوطة من خارج مستوردة بمقدار، مُقننة موسوقة في الصناديق بجنب أكياس القمح المستورد. عجزت الأدمغة الغائبة والأخرى المهاجرة المشتتة عن توطين العلوم والتكنولوجيا في بلاد المسلمين.

كيف نرد القافلة عن سير الجمال الوَئيدِ مشيُها إلى مسار إسلامي شامل يكون الإعلام فيه والأدب والفن حُداءً إلى العمل الصالح، وتكون فيه للمسلمين كلمة مسموعة ونموذج حضاري مبثوث الصورة جذاب القسمات، وتكون فيه المسرحية والأغنية -بعد تطهيرها من رجس الشيطان- نداء من جو السماء إلى أهل الأرض ليوحدوا الله، ويكرموا الإنسان، ويتجافَوا عن دار الغرور، متمتعين بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، تاركين زينة الشيطان وتبذير الشياطين ودعارة الأدب الخليع.

في الأدب الإسلامي قديمه وحديثه، وفي مواهب الشباب الإسلامي الصاعد، وفي الطاقة الجمالية الإسلامية وتطلعاتها للنعيم المقيم في الجنة، وفرحها بنعم الله على الناس وفضله في الدنيا، وفي جدية آلام الأمة، وفي طلائع البشائر لتحقيق آمالها، مواضيع لتنويع أدب إسلامي إيجابي تطرد منه روح الأسى على ما فات، ودمعة الحزن على الواقع، وترنيمة الارتخاء في الشكوى والاعتذار.

في القرآن الكريم وقصصه، وفي السنة النبوية والسيرة العطرة وحياة السلف الصالح كنوز ثرية نستخرج منها نماذج تحتذى، ونستأنس بثقتها بالله وبطولتها وجهادها لتتجدد لنا ثقة وجهاد وبطولة.

في قرآننا وسيرتنا وتاريخنا، وفي الطموح المتجدد لجند الله، وفي العاطفة الكامنة في صدور عباد الله وإماء الله المشربة بحب الله وحب رسول الله وحب دين الله، ما يحيي الهمم ويبُلّ النفوس الجافة، وينير الظلام أمام العقول الحائرة، لَوْ صُرِفَتْ جداول الأدب الإسلامي، واستُقرئت منابعه، ووجهت روافده لتشكل تيارا من النور يغمر أجواءنا ويُشع في قلوبنا وينبري لصد التيار الجاهلي المظلم الآيس من الإنسان، العنيف على الإنسان، الساخر من الإنسان، الـمُخَلّع للإنسان، المشَيِّئ للمرأة والرجل يتجر في جسمها وجمالها، وفي رجولته.

إن الوعظ وأساليبه وآدابه هو الجدُّ الجادّ، لا بد أن يكون روح الخطاب الإسلامي. فإذا كان وعظا جافا تكراريا مَلَّ هو وأمل الناس وأضجر النفوس. أما إذا تقمصت الروح الإيمانية لباس الأدب وسلكت طرائقه من شعر، وحكمة، وضرب مثل، ودعاية بريئة، وقول جميل، وكلمة سائرة، وتمثيلية ذكية، فإن الموعظة المتلطفة تستطيع أن تبلغ للناس قضية المضطهدين في الأرض، وأن تحبب إلى الناس الحياة الإسلامية، وأن تقبح وتنتقد لهم الجاهلية وفحشاءها ومنكرها، وأن توقظ في نفوس المسلمين روح الجهاد والقوة، وأن تجدد فيهم عزم حمل الرسالة وبناء المجتمع الأخوي النموذجي البَرِّ بالإنسان، الرحيم بالخلق، الغيور على الحق.

أدب الرجل والمرأة والمراهق والشاب والطفل. وكلمة الله هي العليا. والله عزيز حكيم.

تبرج الجاهلية

لا تتجلى «نحلة الغالب» في تقليد الغالب القوي عسكريا تحملنا الرغبة في التشبه به على تبني عاداته ومظاهره ومذاهبه في الحياة. بل يكون الانتحال أقوى ما يكون وأشمل إذا كانت الغلبة والتفوق شاملين في المجالات السياسية والاقتصادية والصناعية والابتكارية وكان في الجانب المغلوب فراغ وفاقة واحتياج في هذه المجالات.

يغطي ذلك التفوق وهذا الفراغ على التباين الجوهري ليميل المغلوب إلى ستر ضعفه بأصالة مزيفة من تحتها يزاول انتحاله، أو يذكي التفوق ويذكي الفراغ الروح الجوهري وإرادة الصمود فيرفض المغلوب كلَّ ما يذكره بتخلفه المادي، ويهرب من الواقع، وينعت الجاهلية بنعوتها الجوهرية ليتميز ويفاصل ويفر بدينه إلى المثال المعشوق، أو إلى كهوف الانعزال، أو إلى التشدد العنيف.

العالم مَوَّارٌ بإنجازات بشرية عسكرية علومية صناعية مالية حققها جاهليون. والجاهلية نقيض الإسلام. الجاهليون أعداء المسلمين. والقتال بين الفريقين مضرم على أكثر من موقع. فلنعرف خصائص الجاهلية الجوهرية ومواقع المعارك معها في هذه الفقرة، لننظر في الفقرة التالية اشتباك الحق والباطل وتداخل الجاهلية في الإسلام لنتجاوز النظرة التبسيطية المكفرة للمسلمين العنيفة، الفارة من الواقع، الحالمة بمثال لا واقع يلوثه، وبإسلام لا شوب فيه، وبروح لا جسد لها.

ننظر هنا في الفرق الجوهري بين الإسلام والجاهلية، وننظر في مواقع التناقض ومواطن التباين. من أهم مواطن التباين قضية المرأة ومكانتها في المجتمع. والرهان حامٍ، يريدون سلبها ونريد صونها بالإيمان.

إن الفرق بين الموقفين في قضية المرأة فرق بين إسلام يذعن لأمر الله وبين جاهلية تتنطع. وبينهما موقف منافقين مسلمين بالقول ومسلمات، لكن بلا إسلام ولا قرآن.

الجاهلية كتلة واحدة بمادياتها ومبادئها وقوانينها. والإسلام كل لا يتجزأ. وما قضية المرأة إلا موقع معركة من معارك التناقض الشامل. وعلاج قضية المرأة في فضاء المقارنة بين برنامج وبرنامج خارج الإطار الكلي والالتزام الكلي والنية الكلية والمشروع السياسي الاقتصادي الاجتماعي الكلي من هذا الجانب وذاك إنما هو تشريح لدُمَّلٍ يراد شفاؤه بآلة ملوَّثة.

الجاهلية لها سمات فكرية سياسية اجتماعية يصفها القرآن الكريم ويردها إلى أربعة مظاهر: ظن الجاهلية، وحكم الجاهلية، وتبرج الجاهلية، وحمية الجاهلية. أربع خصائص ذكرت في القرآن الكريم تحيط بكليات الروح الجاهلي. وما سوى ذلك من مظاهر الجاهلية، وأخلاقها، وسبل معاشها، وطرائق فكرها إنما يتفرع عن هذه الأصول الأربعة ويتغذى منها ويستقي.

ظن الجاهلية فساد في العقيدة، وحكم الجاهلية تحكيم لاستبداد أو لاختيار العباد، وحمية الجاهلية عصبية وقومية.

ونركز على تبرج الجاهلية الوارد النهي عنه في قوله تعالى مخاطبا نساء النبي عليه صلاة الله وسلامه وعليهن رضوان الله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.[1]

تبرجت المرأة معناه في أصل الدلالة اللغوية: خرجت من برجها. وغلب اصطلاح المفسرين وتخصيص القرآن للفظة فانصرفت الدلالة إلى إظهار المرأة مفاتن جسمها وزينتها.

والقرآن أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين، فلا حرج إن رجعنا إلى الجذر اللغوي لنعمق فهم التبرج.

ما هو البرج الذي خصصه القرآن للمسلمة؟ إن خرجت منه دخلت في حكم الجاهلية، ووصفت بأنها متبرجة؟ إظهار الزينة بقصد الإغراء وكشف ما يجب ستره من أعضاء الجسم معاصٍ وفسق، ومشاركة في نشر الجاهلية، ومساهمة في الحياة الجاهلية.

(1) سورة الأحزاب، 33.

لكن التبرج الكلي هو خروج المرأة من برجها الإسلامي مظهرا ووظيفة وأخلاقا ودينا. هو ميلها عن الإسلام وخيانتها لمهمتها الحربية القتالية في صد الجاهلية والدفاع عن الإسلام وإرساء ركائزه وتشييد بنيانه. إذ البرج الذي خصصه القرآن وجسدته السنة للمسلمة ليس سجنا وخنقا وجدرانا. إنما هو موقع من مواقع الدفاع عن العقيدة لكيلا يطغى حكم الجاهلية، وعن مقومات الوَلاية بين المؤمنين لكيلا تغتالها حمية الجاهلية وعصبيتها وقومياتها المفرقة.

كلمة «برج» كلمةٌ جهادية، والتبرج بالمفهوم الجذري تخلي المسلمة المؤمنة عن حظها من الجهاد. المرابطون في الأبراج هم الحماة الساهرون على سلامة الموقع. إن كان على المسلمين الرجال أن يرابطوا في أبراج الدفاع الخشن الجسدي العسكري، فإن على المسلمات أن يرابطن في أبراج الدفاع التربوي أساسا، ثم مساعدة المسلمين الرجال في الشؤون الجهادية الأخرى.

برجُهن الحافظية من قوله تعالى يصف الصالحات: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾[2]. ولنا رجوع طويل إلى الموضوع بحول الله. فهو صلب الكتاب.

نقف هنا وقفة لنتأمل العلاج الكلي، والتعليم الكلي، والتدريب الكلي الذي ينقل المرأة من عالم لعالم، من جاهلية لإسلام، ويؤهلها للجندية والبطولة في برجها.

داخل البرج وخارجه رجل وامرأة، لا تُنتظر منهما حماية للموقع ولا بطولة في الجهاد ما لم يتحرر الرجل والمرأة من النظرة الدونية التقليدية التي كانت تحيل المرأة إلى عضو مكفول مهمش وتقنعها باعتبار نفسها كذلك، تتحايل للدفاع عن وجودها بحيل الضعفاء وكيد المضطهدين.

لكي تدفع المؤمنة في صدر الجاهلية وتقاوم غزوها وترد كيدها لابد أن تعرف ما هي الجاهلية. لكن هذه المعرفة النظرية تأمل وحُلْم ما لم تعرف المرأة المسلمة

(2) سورة النساء، 34.

من هي، وما فرض الله عليها. وما لم تتذكر ما خلقت من أجله وما ينتظرها بعد الموت، وما وُكل إليها من مهمات، وما عاقبة الوفاء بها في تلك الدار.

لذلك فإن كان صلب موضوع هذا الكتاب الحديث عن مهمات المؤمنات، فإن روحه هو الحديث عما يجعل المؤمنة مؤمنة، وما يقربها من ربها، وما يضمن لها أن لا يكون عملها نضالا سياسيا واضطرابا في الأرض بل جهادا تتقرب به إلى بارئها.

في كلية الجاهلية عاهات نفسية مُجملها الكفر، والكفر نقيضه الإيمان. فإن امرأة زعمت أنها تدفع الجاهلية بما هي الجاهلية كفر بإسلام سطحي أو نضالية متمسلمة فإنما فعْلها وَهن على وهن.

في كلية الجاهلية يمثل «ظن الجاهلية» العاهة العقلية النفسية القلبية التي تسقط الإصابة بها أهلية الرجل والمرأة للجندية الإسلامية والبطولة الإيمانية. ظن الجاهلية الصِّرفُ هو شك الكافر والكافرة في الله ووجوده وموعوده. وظن الجاهلية الراسب في نفس المسلم الفاتر والمسلمة هو عدم الثقة بالله، ونسيان ذكره، والغفلة عن حتمية الحتميات وهي الورود يوما ما من الزمن عليه.

السؤال التربوي التعليمي التدريبي: كيف الاستشفاء من علة ظن الجاهلية؟ معالجة تبرج المرأة بمعناه الجسدي الفسقي بمعزل عن الاستشفاء الكلي للعلة الأساسية، وهي فساد العقيدة، إنما هو ستر للدُّمَّل والتظليل عليه لتنخر فيه العاهة.

في كلية الجاهلية يمثل «حكم الجاهلية» العاهة السياسية الكفرية. لابد للمؤمنات أن يشاركن المؤمنين في الجهاد لإقامة دولة الإسلام ووحدة المسلمين. ليس برجهن الدفاعي خِدْراً للانعزال، لكنه موقع دفاع في قتال هن فيه المدد إن كان الرجال طليعة. هن مستودع القوة الاحتياطية إن كان الرجال يتقدمون في صف الطعان. ثم إن للمؤمنات مجالات هن فيها الطليعة والصف الأول، وغيرهن المدد والاحتياط.

«حمية الجاهلية»، وهي السمة الرابعة من سمات الجاهلية، هي العصبية العمياء. نفهمها واسعة بما وسع الله من البيان القرآني العربي المبين عصبية حزبية قومية ثقافية عنادية تجعل المسلم السياسي والمسلمة السياسية يناضلان ضد دين يزعمان أنهما جزء منه. نفهمها عصبية واسعة لا تُضارُّ ولا تزاحم الحمية القبلية. قبائل عرقية في الجاهلية الأولى، عشائرية لا تزال في عصرنا، قومية حزبية أثناء ذلك وبعده.

والسؤال التربوي التعليمي التدريبي مصاحب: كيف علاج الرجل والمرأة من إصابات حكم الجاهلية؟ كيف حمايتهما من عدوان حكم الجاهلية، وكفهما عن عدوان الجاهلية، ضحيتين أو مشاركين في العدوان على الدين؟

كيف تبريد حمى حمية الجاهلية وفورة الثورة على الدين؟ كيف نربي المرأة والرجل على خصال الإيمان، ونعلمهما شرائع الإيمان لتستجيب إرادة القلب وباعث القلب لمخطط دفاعي جهادي ينير طريقه العقل المؤمن بالله الخاضع لأمر الله؟

في الفقرة التالية إن شاء الله نتحدث عن تداخل الجاهلية في الإسلام وعن الشَّوْب الجاهلي في نفوس المسلمين والمسلمات، وفي تاريخ المسلمين، وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ما ثَمّ عالم صفاء إلا في برازخ الأرواح.

أمهد للحديث عن الفتنة في الفقرة التالية بحول الله بما بلغني من خبر يكشف عن خيبة الاندساس الجاهلي في صفوف المسلمين. بلغني أن كلية الشريعة في مدينة كذا في المغرب جل طلبتها من الملحدين اليساريين الذين يشنون الغارة تِلْوَ الغارة على الشباب الإسلامي بالخناجر والرماح. جندهم حزب الشيطان ليتسلحوا بالمعارف الدينية حتى يكونوا أكثر قدرة على محاربة الدين ونسف معاقله من الداخل. فإذا تحدثنا عن الدفاع والأبراج والحافظية ومهمات المؤمنات في ذلك فلوجود من يُدافَع. والله غالب على أمره.

الفتنة

يكثر أن ترد كلمة «فتنة» في كتابات الإسلاميين وأحاديثهم. فتعين أن نؤصل هذا المفهوم ونبين دلالته.

عرف الراغب الأصبهاني رحمه الله، وهو إمام هذا الفن، الكلمة كما يلي: «أَصل الفَتْن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار». قال: «وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء. وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا».

هذا هو المعنى الجذري والاصطلاحي القرآني للكلمة: امتحان واختبار وابتلاء في الدنيا للإنسان، وفي الآخرة عرض للكفار على النار، نعوذ بالله.

وقد وردت مادة «فتن» في القرآن ستين مرة، فهي من المفاهيم الأساسية في الدين مثل. إيمان، كفر، تقوى، دنيا، آخرة، سعادة، شقاء، جنة، نار، إلخ. فإن الله عز وجل خلق الموت والحياة والدنيا وعبور الإنسان رخاءها وشدتها ليختبر الإنسان ويبلُوَ الناس أيهم يؤمن أو يكفر، أيهم يحسن عملا وأيهم يسيء.

فالمفهوم أساسي، إن غفل المسلم والمسلمة عن حكمة الفتنة الابتلائية حصل في حيرة أمام تناقضات الخلق وتحديات الكون بعضه لبعض واختلاف المقاصد واشتباك المصالح. لو شاء ربنا جل وعلا لجعل الدنيا سكونا وانسجاما ودار راحة. لكن حكمته في الفتنة ليظهر في الواقع ما هو كامن في استعداد الفِطر ومكنون القدر. أبْدَى لنا منها ما أبدى، واختص سبحانه بما لا علم لنا به.

الفتنة الابتلائية تتمثل في ابتلاء بعض الناس ببعض، وفي تمتيع الله عز وجل بعض الناس بزينة الحياة الدنيا، وفي قبضه سبحانه عن البعض وامتحانهم بالشدة، وفي عدوان الكافرين على المؤمنين، وفي نزغات الشياطين، وفي فتنة الحاكم المستكبر للناس، وفي إغراء الماكرين وتخويف المعتدين.

الفتنة الابتلائية شطر فقط من دلالة الكلمة، تكتمل دلالتها إن أضفنا إلى المفهوم القرآني الابتلائي المفهوم السني. فإننا نجد في دواوين الحديث المصنفة «كتاب الفتن» أو «كتاب الملاحم» بصيغة الجمع. في هذه الكتب إخبارات نبوية بما يقع للأمة بعده صلى الله عليه وسلم من مِحن تاريخية، من ثورات وقتال وسفك دماء وفساد حكام وخروج كذابين إلى ظهور الدجال فنزول عيسى عليه السلام بين يدي قيام الساعة.

الفتن التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم حوادث عيْنية منها ما كان يسمِّي زمانه ورجاله، ومنها ما أبهمه وعممه.

في معظم ما أنذر به من الفتن أمر صلى الله عليه وسلم السامعين بالكف عن المشاركة في الفتنة، وبكسر القِسِيِّ وإغماد السيوف. وشدد النهي عن سفك الدماء.

فكان سكون الصحابة رضي الله عنهم أمام الفتنة الكبرى ومقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فوثوب بني أمية، وسائر المعارك بعد ذلك يُصغي إلى مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**ستكون فِتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. من تشرف لها تستشرفه. ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به**». رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه وعنهما.

فسر الصحابة رضي الله عنهم هذه التحذيرات بأنها أمر بالكف عن المشاركة في الأمر العام. فإن من هذه الأحاديث ما صرح بذلك. وجاء التابعون رضي الله عنهم ثم أجيال المسلمين من بعدُ فوجدوا سيف الاستيلاء مصلتا على الرؤوس. وجدوا في أحاديث الفتن ما يأمر بطاعة ولي الأمر ولو جارَ، فاستندوا إليها وإلى الاجتهاد في حفظ المصلحة العامة بالسكوت عن غصب حاملي السيف لمشروعية الحكم.

ومع مرور الزمن استكان أهل العلم وعامة مقلديهم إلى الأمر الواقع. فبعد خروج الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما واستشهاده، وبعد قومات آل

البيت بعده، زيد بن علي حفيده، ثم محمد النفس الزكية وإبراهيم ويحيى، وبعد غضبة الإمام مالك ومشاركة أبي حنيفة للقائمين، وبعد محنة الإمامين الشافعي وأحمد، لا تكاد تجد إلا أفرادا من العلماء فهموا أحاديث الفتن فهما غير سكوني. من قومة الحسين وزيد ومن بعدهما، ومن إجماع أئمة الفقه الأربعة على قول لا للحاكم، آل الأمر إلى الصبر. وكلمة «الصبر» وردت في أحاديث الفتن مكررة.

هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حذر من الفتن وأوصى بعدم التشَرُّف لها والتعرض ينطق عن حدس مُبهم وشعور غامض؟ كلا، بل الله عز وجل أطلعه على بعض غيبه فرأى في مرآة القدر ما يخبئه القدر. فأشفق ورحِم وأوصى.

من يقرأ قوله تعالى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾[1]، يعلم أنه صلى الله عليه وسلم أظهره الله على ما هنالك. ومن يقرأ الحديث يجد أنه صلى الله عليه وسلم قام في الصحابة خطيبا فأخبرهم بما يقع منذ زمانه إلى قيام الساعة. قال الصحابي راوي الحديث: «حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه». روى أحاديث هذه الخطب حذيفة رضي الله عنه وغيره. والأحاديث في الصحيحين.

إنه ما ينطق عن الهوى مَن أخبرنا أنها تكون بعده خلافة على منهاج النبوة ثم ملك عاض فجبري فخلافة بعد ذلك على منهاج النبوة. فلئن كانت أحاديث الفتن والوصية بالكف والسكون وحقن الدماء والرضى بالواقع فسرها المسلمون تنازلا تنازلا إلى أن احتل «دين الانقياد» (على حد تعبير ابن خلدون) الأذهان وشل الحركة، فإن آيات الاقتحام وبشارة الخلافة الثانية توجِّهُ اهتمامنا إلى المستقبل.

بيننا وبين المستقبل الحاضر. فهل ننفصل عن حاضر الأمة، وننعزل عن مجتمع المسلمين، ونكفره، ونصمه بوصمة الجاهلية لنضفي على أنفسنا صفة

(1) سورة الجن، 26-27.

الإسلام وكأن في قلوبنا شموس الهدى وأنوار التقى وغيرنا ظلام وشرك وبدعة وضلالة وكفر؟

إنها فتنة ابتلائية وفتنة تاريخية هذه المواجهة بين مجتمع المسلمين المليار عددا الغثاءُ غَناءً. فتنة ابتلائية تاريخية هي موقف الإسلاميين أمام مهمتهم التي أنهض الله إليها هممهم، وسخر لإنارة طريقها من شاء من الرواد المجاهدين مثل الإمام حسن البنا والإمام المودودي والإمام سيد قطب رحمهم الله.

فتنة هذا التحدي السافر للجاهلية الهاجمة علينا القتالة السفاكة، أكبر منها وأعتى توطن الجاهلية بين ظَهرانَينا يمثلها الوكلاء والوكيلات الطغاة والشيطانات. دخلت فينا الجاهلية وسكنت بين الضلوع وفي مواقع السلطة وفي الشوارع بمقارعها الطاغوتية، وفلسفة ظن الجاهلية، وفجور تبرج الجاهلية، واشتعال حمية الجاهلية.

فهل أصبح مجتمع المسلمين كافرا جاهليا بوجود طوائف المرتدين والمنافقين والعصاة، أو هم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا يزالون؟ فتنة وسؤال.

روى الإمامان أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**صنفان من أهل النار لم أرَهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مُمِيلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة. لا يدخلن الجنة ولا يَجدْن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**».

صنفان من أهل النار من يضربون الناس بالمقارع، ومن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى لإمالة الرجال إليهن.

أفَإن وُجد من بين المسلمين، من حاكم طاغ ومتبرجات ومنافقين، من هم من أهل النار نحكم أن الأمة كلها جاهلية؟

كلا، وإنما نسمي الواقع فتنة والمجتمع مجتمعا فِتنويا. ذلك أدْنَى أن نُبقِي على أنفسنا وعلى الناس، ونَسلَمَ من التشدد الرافض العاجز. بل ونسلَمَ من الجهل بديننا. والجهل بديننا هو الطامة الكبرى.

ديننا وتاريخ إقامته، وحديث النبي وصحابته، وسيرة الانتقال الأول على عهد التنزيل من جاهلية لإسلام، تُنبئُنا أن الإسلام ما كان يوما بقعة منعزلة فيها ملائكة أطهار تقابلها بقعة أخرى منعزلة تعيش فيها الشياطين الكفار. نعم، من دخل حوزة لا إله إلا الله معترفا شاهدا بوحدانيته، مصدقا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمنا برسالته، فقد دخل الإسلام وخرج من الكفر.

لكن هل سلم ضَرْبَةَ لاَزِب من بقايا الجاهلية ورُسوباتها، وهل طَهُر المجتمع الإسلامي الأول من كل دخائل الجاهلية حتى ننتظر من مجتمع اليوم وغد أن يدلي ببراءة ملائكية وإلا فهو كفر وجاهلية وبدعة وضلالة؟

في الحديث النبوي يخبرنا البَراء بن معرور قال: «لقيت أبا ذر بالرَّبَذَة (مكان) وعليه حلة وعلى غلامه حلة. فسألته عن ذلك فقال. إني سابَبْت رجلا فعيرته بأمه. فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: «**يا أبا ذر! أعيَّرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية. إخوانكم خَوَلكُم، جعلهم الله تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبِسْه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلِبُهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**». رواه الشيخان وغيرهما. أدرجه البخاري تحت عنوان: «باب المعاصي من أمر الجاهلية».

نمسك عن السؤال عن ماهية الجاهلية التي بقيت في أبي ذر رضي الله عنه. وننظر في تأدبه بالتأديب النبوي والتأنيب، وفي إلباسه الغلام مما يلبس.

وننظر في عموم الأمة وبقاء الرسوبات الجاهلية فيها من خلال قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري: «**أربعٌ فى أمتي من الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**». الحديث.

إن المتأمل في هذا الحديث، المصدق بقائله صلى الله عليه وسلم، لا يروعُه ما يشاهد من عصيان العاصي، وظلم الظالم، وتبرج المرأة، وفُشُوُّ البدع. بل يستند من هذا الحديث وأمثاله إلى ركن الاطمئنان والتيسير. مع البصيرة الجهادية التغييرية. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

الفصل الثالث

المرأة والبحث عن السعادة

- المسلَّمة الدوابية
- نسوة الجاهلية
- نساء الإسلام
- المؤمنات ومجتمع الاستهلاك
- سعادة الجسد
- المؤمنات وحب اللهو
- المؤمنات والمؤمنون أكفاء
- حقوق المرأة في الإسلام
- العدل والإحسان
- الحياة الطيبة

الـمُسَـلَّمة الدوابية

ما المؤمناتُ مؤمنات إلا لأنهن اخترن الإيمان بالله واليوم الآخر طريقا للسعادة. وإنما جعلت عنوان هذا الفصل مبحثا عن السعادة لأن المؤمناتِ والمؤمنين بحاجة دائما لمزيد من الإيمان، وقد طلب رسول الله سيدنا إبراهيم عليه السلام من ربه عز وجل أن يريه كيف يحيي الموتى ليطمئن قلبه.

ثم إن المؤمنات من واجبهن دعوة بنات جنسهن إلى الإيمان، ومن النساء المسلمات من تناولتهن يد التغريب الفلسفي الملحد، وأخريات رق الإيمان في قلوبهن فلا يرين سعادة إلا في السعي وراء ما يسعى إليه الناس وما تحرض عليه السوق من متاع. فلابد أن تجادل المؤمنات هذه النسوة وأولئك ممن اخترن اللذة الدوابية ليعرضن عليهن سعادة الإسلام والإيمان.

ولابد للمؤمنات أن يعرفن جذور الجاهلية وتلبسها، وتدسسها، وأساسها وهو ظن الجاهلية، وهو الشك في الله وفي لقاء الله، ليثبت إيمانهن على أساس اليقين لا على أساس الشك.

كتبت في عنوان هذه الفقرة كلمتي «مسلمة» و«دوابية». «دوابية» نسبة إلى الدواب وإن كان النحاة لا يبيحون النسبة إلى الجمع. «دوابية» لتنظر الكلمة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]. وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[2]. للدوابيين مُسَلَّمة هي بساط فلسفتهم في الحياة. المسلمة مبدأٌ يتفق المتجادلون والمتعاملون والمتعايشون على أنه صحيح وإن كان لا يمكن أن يستَدَلّ على صحته، أو لا يرادُ أن يتعمَّق في البحث عنه، أو لا يمكن إخضاعه للتجربة لمعرفة خطإه من صوابه.

في أساس بناء العقل البشري وغريزته وفطرته مسلَّمات بَدَهية مثل كون الكل أكبر من جزئه وكون النقيضين لا يجتمعان. هذه لا تحتاج لاستدلال لأن العقل

(1) سورة الأنفال، 56.

(2) سورة الأنفال، 22.

يجدها عنده قبل التجربة وبدون تجربة. أما المسلمات التي هي من قبيل القول بأن العالم لا معنى له، وأن الكائنات برزت للوجود بدون أحد يبرزها، وكون الإنسان نتاج تطور وصدفة فهي محض فرضيات وتخَرُّصات حاكها العقل الفيلسوف حول نفسه وصبغها بصبغة علمية ليقنع نفسه بأنه عقل.

من أعظم ما فتن الله عز وجل به العباد خلق الإنسان. يفتح عيْنَهُ هذا الإنسان فيجد نفسه مجهزا بأجهزة متكاملة منفتحة على الكون، هي جوارحه وما تصُب فيه مدارك الجوارح وتؤول إليه وتتفاعل فيه، وهو العقل. وينظر العقل إلى نفسه ويسأل الأسئلة الجوهرية: من أنا، ومن أين، وإلى أين، ولماذا، ومن أبرزني للوجود؟

فأما العقل المهتدي الموفق المستقيم على طريق من الصرامة العلمية والسليم على الفطرة فيعترف بقصوره وعجزه عن الجواب، وتَنْسَدُّ عليه كل الآفاق إلا نهج الفطرة والبداهة التي تقول في أعماقه قبل التجربة وبعد التجربة: لابد لكل صنعة من صانع. ويتطلع إلى من يخبره ويجيب عن أسئلته. وتأتيه الرسل مؤيدة بالمعجزات التي خرقت له نواميس الكون فعلم أن الرسول صاحب المعجزات لا ينطق من تلقاء نفسه. ويصدق الوحي عندما يخبره بسلطان كلام الله: ﴿نحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾[1].

وأما العقل المطبوع على قلب صاحبه فيظل ساعيا في آفاق المعرفة، ويبني حول نفسه نسيج عنكبوت من فرضيات ومسلمات تسُدُّ ثغرات جهله، وتقنعه أنه هو العقل. هو هو السيد. هو هو الإله.

في القرن الماضي خرج لامارك بنظرية التطور التي استخلصها من ملاحظة الكائنات الحيوانية الحية والـمُسْتَحثَّاتِ الأثرية من عظام أجيال الوحوش البائدة. وحكم لامارك أن المناخ والغذاء ونمط الحياة تؤثر في الوظائف العضوية للكائن الحي، فيتكيف الكائن الحي بظروفه، ويُطور مقاييس أعضائه لتتلاءم مع المحيط الحيوي المتغير.

(1) سورة الواقعة، 60.

ويأتي دروين فيجد نظرية تطورية لا أفق لها ولا معنى لأنها تقف عند وصف ما هو محتمل، وتقصُر عن شرح الأسباب. إن شرحت الأسباب الخارجية فهي لا تكاد تذكر شيئا عن الأسباب الذاتية والدوافع القوية التي تُنَشِّط الكائنات الحية في صيرورة تطورها. ويتبنى دروين نظرية الاقتصادي الإنجليزي مالتوس الذي بين كيف يتكاثر نسل الإنسان بوتيرة هندسية بينما لا تزداد كميات الغذاء الـمُتاح إلا بوتيرة حسابية. فتكثر الأفواه وتقل لُقَم العيش، فيكون صراع على الغذاء، يستأثر فيه الأقوى ويفنى الأضعف.

وهكذا أعطى دروين لفرضية لامارك ديناميكية صراعية، وزعم أن عالم الأحياء عالم صراع البقاءُ فيه للأصلح.

وتتكون نظرية النشوء والارتقاء التي تفسر خلق الإنسان تفسيرا تطوريا تلقائيا صراعيا. بدأت الأميبة ذات الخلية الوحيدة، وتطورت حتى أصبحت سمكة في البحر، وتطورت السمكة حين زحفت إلى الأرض اليابسة، وتفرَّعت الزواحف والأطيار والثدييات، ونجح من بين الثدييات القرد الذي انتصب على رجليه، وبسط للبطش كفيه، وفرض عليه التطور والحاجة معارضة إبهامه لأصابعه. وهكذا طورا بعد طور، من لُوسِي الجدة منذ ثلاثة ملايين سنة إلى أحفادها مما ترى من سود هم الأصل وبيض هم زبدة الوجود.

المسلمة الدوابية تقول: الإنسان قرد تطور، خلق نفسه من خلال أجيال من الكائنات صارعت الطبيعة واصطرعت فيما بينها، وتفوق القرد الإنسان لما طور في دماغه آلة اسمها العقل.

ويشاء الله سبحانه أن يؤلف الكون على انسجام تدريجي: مراتب في المعدن والنبات والحيوان. وتشابه في بنْية جسم الإنسان وجسم الحيوان. للإنسان عينان كما للحيوان، وللقرد قامة تحكي قامة الإنسان، والدم يجري في شرايين الإنسان والحيوان يضُخه قلب. وهكذا.

أخبرنا سبحانه أنه خلق آدم من طين، وفصل لنا نشأته وسلالة بنيه وبناته. وفصل لنا ما يريده من النسل الذي يخلقه سبحانه من ذكر وأنثى.

المؤمنة تصدق ربها والمؤمن. أما المطبوع على قلبه فيصر على فرضيته ومسلمته، ويعاند ويجادل، وإن كان معه شيء من الصرامة العلمية فإنها لا تعدو إبداء الحيرة أمام فقدان الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان. ما يحفرون عن فك مخلوق غابر أو شظية عظمة إلا ويجتمع حولها الخبراء يستنطقونها عن سر هذه الحلقة الضالة.

من منطلق المسلمة الدوابية يصر المراقبون والمعارضون والأعداء على أن للإسلاميين قضية مع المرأة، وعلى أن المرأة مظلومة. ويعرفون القضية ويرافعون عنها في محكمة الحريات والمتعة، ويلصقون بالإسلام وشريعته وتاريخه والناطقين به تهمة التضييق على المرأة ومصادرة حقها الطبيعي وحقوقها الإنسانية.

ويتخذون من هذه التهمة واحدة من أهم مطاياهم للتشنيع على الدعوة الإسلامية. ربما تأتي قضية المرأة على رأس قائمة المآخذ على الإسلام قُبيل قضايا أخرى يتهم فيها الإسلاميون بالرجعية، ومعاداة الديمقراطية مخلصة الإنسان وضامنة حقوقه، والتطرف، والعنف، إلى سائر التشكيات المعروفة.

نريد بعد أن بسطنا في الفصل الأول العامل الذاتي المتألم الـمُتعب بين انحطاط ومثال، وبعد أن بسطنا في الفصل الثاني موازن العالم وما يحركه، أن نقترب في هذا الفصل من الموضوع الحساس البالغ الأهمية لنقول كلمة بسيطة منطقية تفض النزاع، وترفع قضية المرأة المدرجة في ملفات الأحزان إلى الجهة المختصة.

الجهة المختصة هي المرأة نفسها، تختار أنسب طريق لسعادتها. والكلمة البسيطة المنطقية الفاصلة هي أن المرأة -والرجل أيضا- من الظلم الشنيع والعدوان الفظيع أن يشوش عليهما مشوش صفاء حياتهما، ومتعة عمرهما، وحلاوة وجودهما، وحرية بهيميتهما إذا كان الأمر دهرية: نحيى ونموت ولا شيء بعد ذلك.

إذا كانت المرأة وكان الرجل قردين يَنْزُو بعضهما على بعض، وإذا كان الوجود صراعية من أجل البقاء، وعبثية وغثيانا عند الفلاسفة، فإن الحرية القردية أثمن ما

في الوجود. ويعلو القرد على نفسه، ويشرف على أبناء جنسه، فيحقق وجوده وغاية حياته بعد إشباع لذة الجسم في أفعال حرة إبداعية فنية جمالية تعطي للحياة نكهة السعادة.

إذا كان الأمر كذلك دهرية، وقردية تطورية صراعية، وعبثية وجودية، ولَذَّتية جمالية فنية، فإن تحديث المرأة والرجل عن الأخلاق والعفة تنغيص، وتذكيرهما بلياقة الإمساك عن الشهوة وضبطها تفويت لحق أساسي، ومحاولة إسدال أردية الصّوْن على الحرمة المزعومة لآدمية الإنسان تزمت وخنق للحريات وعدوان على حقوق الإنسان.

إذا كان الأمر كذلك فالقضية محكومة لدى الجهة المختصة لصالح الإباحية والتهتك والمتعة بلا حدود. تصبح الإباحية إذا كان الإنسان لا معنى له، وكان الموت لا حياة بعده، هي عين الحياة. ويصبح التهتك فضيلة إنسانية رفيعة، والمتعة زهرة العمر، غبي محروم من لا يقتطفها يانعة أشكالا وألوانا.

والمرأة إذا كان الأمر كذلك هي مركز الرغائب. جسدها عاصمة الشهوة، وزينتها قمة الحضارة، ورقصها أمام الرجال روح الفن، والمتعة المباحة المشتركة بها أساس العدل.

أما إذا كان الله موجودا خالقا، وكان بعد موت الإنسان حياة، وكان عمله في الدنيا رصيدا لآخرته، وكانت المرأة عديلة الرجل ورفيقته في الرحلة الابتلائية، وكانت شقيقته في الآدمية وفي الأحكام الشرعية، وقسيمته في الكرامة، والمجزية مثله جزاء السعداء أو الأشقياء في جنة الخلد أو في سعير الشقاء الأبدي، فإن الحديث عن المرأة ومحاكمة قضيتها يداران إدارة أخرى.

يُدار الحديث عن المرأة وتحكم قضيتها بمعايير الإيمان لا بمسلمة دوابية حيك حولها وبني على أساسها مجتمع المنفعة واللذة والأنانية. تختار المرأة بين الإيمان ومعه ومنه الشرع، وبين الحرية الدوابية وبعدها الآخرة. ولدار الآخرة خير. ولَنِعم دار المتقين.

نسوة الجاهلية

ليس الإسلام وعقيدته وشريعته مباني فلسفية أساسها فرضيات. بل هو الحق المنزل من خالق الخلق بارئ الإنسان ومصوره ومحييه ورازقه ومميته وباعثه وحاشره وجازيه. لا، وليس الإسلام وشريعته علاجا لمشكلات زمانية مكانية، ولا رد فعل على جاهلية العرب. وإنما هو تنزيل من حكيم حميد سنتُه في الكون والتاريخ فتنة الخلق ليبلوهم أيهم أحسن عملا، وسنته في الهداية بعث الرسل عليهم السلام، توج بعثتهم برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيئين وإمام المرسلين، عليهم صلاة الله وسلامه أجمعين.

إذا ذكرنا في هذه الفقرة أحوال نساء جاهلية العرب، وجاهلية الإغريق والرومان، وجاهلية القرن العشرين بتاريخ النصارى فما بعده، فإنما نفْعل لنقارن بين زيغان نساء تلك الجاهليات وزيغان نساء الفتنة بين المسلمين، ولنقارن بين «إصلاح» الكنيسة لفساد النساء والرجال وبين دعوة الإسلام الخالدة. ضيقت الكنيسة على المرأة وعلى المجتمع، فثارت الشعوب التي رزحت تحت نِير الاستبداد الذي دعمته الكنيسة على الاستبداد، وثارت المرأة في الغرب ولا تزال تثور ضد الخناق الذي طوقت به الكنيسة عنقها، وضد المهانة التي حطت إليها المرأة.

هربت المجتمعات الغربية وهربت المرأة من وضعية يستبد فيها الحاكم، وتحقر فيها المرأة، وتُهدر كرامتها، وتُجحد إنسانيتها. فوجدت تلك المجتمعات ضالّتها وسعادتها في الحكم الديمقراطي بديلا عن الاستبداد، وفي تحرر المرأة من كل قيد بديلا عن المهانة المطلقة.

ويثور زعماء اللاييكية على حاضر المسلمين وماضيهم ينشدون ديمقراطية تحرر الحكم من إسلام يقرأونه بأعين الغرب فيجدونه كنيسة ترضى بالاستبداد. وتثور نساء مغربات على الإسلام يقرأنه كنيسة مهينة للمرأة.

والمعجبون بحضارة القصور الشامخة التي تميزت باحتواء مآت الجواري لفراش الملوك والأمراء وآلاف الجواري الوَخْش لخدمتهم لا يزالون يقترحون نموذج إسلام الانحطاط، ويتقدمون إلى المسلمات بالتماس وفقه، وبتهديد وعدوان، لترجع عن التشبه بالمتحررات الجاهليات إلى الخضوع لنموذج منحط عن الدرجة السامقة التي كانت مكانة الصحابيات رضي الله عنهن.

لو جلينا للمسلمات الأفق الذي ينبغي أن يساهمن في الجهاد لبلوغه –وهو أفق الصحابيات– لما ارتمين في أحضان الحرية الدوابية، ولما استبدلن بدينهن المسلمة الدوابية. من يفضل «سعادة» دوابية إباحية انتحارية في الدنيا، ولازِمَتُها في الآخرة عذاب النار، على سعادة منضبطة بالشريعة وعاقبتها في الآخرة الجنة ورضوان الله؟

أخبرنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن فينا أمورا من أمور الجاهلية لا نتركها. «لا نتركها» إخبار بما كان ويكون، ونهي زاجر مُنكِر. ننظر أولا في جاهلية العرب لنرى هل بقي فينا من مروءاتهم شيء يُقره الإسلام الذي بعث الله به نبيه ليتمم مكارم الأخلاق. أم هي الرذائل العتيقة تجلب الرذائل الحديثة وتجذبها كما يَجذب المغناطيس الحديد؟

كانت العرب في جاهليتها شديدة الغيرة على النساء. وكانت النساء عفيفات يخشين ما يخدش شرفهن كما يخشين الموت. واشتط رجال بعض القبائل في الخوف من العار والفقر فوَأدوا المرأة رضيعة قبل أن يغير عليها مغير فتسبى فتذل. الموت ولا الذل.

هذا منطق جاهلي قبحه الله عز وجل في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾.[1]

(1) سورة النحل، 58-59.

الخوف من العار والحفاظ على شرف المرأة وعفتها خصلة لا تزال راسبة في أعماق شعور الأمهات المسلمات والجدات. خصلة فطرية زادها الإسلام رسوخا وتثبيتا. فهي على موعد مع نهضة المؤمنات وعموم الصحوة الإسلامية لتتحالف الفضائل وتتآزر في وجه الإباحية الزاحفة المتلصصة، بل الجريئة الوقحة.

كان الفارس الجاهلي حامي الذَّمار هو بطل المجتمع. إما مُغِيرا على نساء القبائل الأخرى فاتكا برجالها، وإما فاديا لشرف نساء قومه بدمه.

رذيلة وفضيلة. وتناقض هو مبنى شؤون الجاهلية.

في تاريخ الإغريق كانت المرأة بضاعة مهينة تباع وتشترى في الأسواق. يقول الأستاذ مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه «المرأة بين الفقه والقانون»: «في أوج حضارة اليونان (...) شاعت الفاحشة حتى أصبح الزنى أمرا غير منكر. وحتى غَدَتْ دور البغايا مراكز للسياسة والأدب. ثم اتخذوا التماثيل العارية باسم الأدب والفن. ثم اعترفت ديانتهم بالعلاقة الآثمة بين الرجل والمرأة. فمن آلهتهم أَفْرُودِيتْ التي خانت مع ثلاثة آلهة وهي زوج إله واحد. وكان من أخدانها رجل من عامة البشر، فولدت كيوبيد إله الحب عندهم. ثم لم يشبع غرائزهم ذلك حتى انتشر عنهم الاتصال الشاذ بين الرجل والرجل. وأقاموا لذلك تِمثال هِرموديس وأرستوجتين وهما في علاقة آثمة».

المرأة اليونانية في الواقع كما وصف الأستاذ رحمه الله. وهي في خيال الفلاسفة المصلحين مثل أفلاطون الذي خطط للمدينة الفاضلة ينبغي أن تكون مِلكا مشتركا مشاعا بين الرجال.

يقول أحد خطبائهم المشهورين ديموستين: «إننا نتخذ العاهرات لذة، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين».

ماذا كان حال الأبناء الشرعيين في قانون الرومان وماذا كان حال المرأة؟ لم يكن الأب مُلزما بقبول ولده. وإذا قبلَه فهو عبده يبيعه متى شاء، فيخرج بذلك من قَيْد أبنائه ويصبح أجنبيا.

البنت كانت أسوأ حالا تحت سيادة رب الأسرة الحاكم بأمره يقتل من يشاء من عبيده ويُحيي من يشاء. فإذا تزوجت أبرمت مع زوجها عقدا يسمى «عقد السيادة» تنتقل بمقتضاه من العبودية في بيت أبيها إلى العبودية في بيت زوجها. وتطور القانون الروماني فنقل المرأة من سلطة مِلك إلى سلطة حماية في حجر الأب أو الزوج. لكنه لم يخوّلها الأهلية الحقوقية الفعلية، فهي كانت مع المعتوهين والمجانين والأطفال قاصرة.

هذه هي الجذور الحضارية للغرب الضاربة كما نرى في الوثنية واستعباد المرأة. وردت على هذه الجذور الديانة اليهودية النصرانية المحرفة عن دين موسى وعيسى عليهما السلام، فاعتنقت جاهليتان، وزعمت إحداهما أنها تخصب الأخرى وتصلح من شأنها وتقيمها على سَواء.

النصارى كانوا ولا يزالون يقرأون توراة اليهود المحرفة. من الشواهد على تحريفها هذا الحكم الجائر في حق المرأة: «المرأة أَمَرّ من الموت. وإن الصالح أمام الله ينجو منها. رجلا واحدا من بين أَلْفٍ وجدْتُ. أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد». المرأة عند اليهود لعنة لأنها أغوت آدم. وكانت بعض طوائفهم تبيح للأب أن يبيع ابنته.

دخلت النصرانية على المجتمع الروماني الذي كان قد أضاف إلى سيطرته القانونية المجحفة بحقوق المرأة تفسخ الحضارة اليونانية وعهرها. فزعت الرهابنة مما رأوا من انحلال، فأسندوا ذلك إلى المرأة وجعلوها المسؤولة الشيطانة. وقرر القسيسون والأحبار أن المرأة دَنَس ورِجْسٌ، وأن الزواج تورط في وَحَل الحس والخبث، وأن العزب أحب إلى الله من المتزوج.

المرأة إن كانت دميمة عجوزا فهي ساحرة حليفة الشيطان، وإن كانت جميلة شابة فتلك خطيئة يجب أن تستحيي منها.

قال قديسهم تِرتُولْيَانْ: «إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان. ناقضة لنواميس الله. مشوهة لصورة الله». صورة الله عندهم الرجل. أستغفر الله.

وقال قديسهم سوسْتامْ: «إنها شر لابد منه، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتاكة، ومصيبة مَطلية مموهة».

في القرن الخامس من تاريخهم اجتمع مجمع ماكون ليتداول القسيسون هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه، أم لها روح؟ وقرروا أن المرأة خالية من الروح الناجية من عذاب النار، ما عدا أم المسيح.

تغزل الغربيون بجمال المرأة ونصبوها تمثالا كالدمية المعبودة طيلة قرون الازدهار الأدبي. لكن قانون الغرب وواقع المجتمع الغربي ظل ينزل المرأة منزلة العبيد. في الأدب الفروسي تألق عباد المرأة التمثال الوارثون أسلافهم الإغريق، وعلى صعيد القانون كانت الحقوقية الرومانية سيدة الموقف.

حتى سنة 1805 بتاريخ النصارى ظل القانون الإنجليزي يبيح للزوج أن يبيع زوجته. حتى مطلع القرن التاسع عشر كانت أسواق لندن تباع فيها الزوجة الناشز كما يستبدل بالإناء العتيق إناء جديد. كان القانون الإنجليزي الصادر عام 1801 يحدد ثمن الزوجة بستة بِنْسات بعد أن أدخل في القانون مادة مهمة: هي أن توافق الزوجة على عقد البيع.

وغضبت النساء الجاهليات، وثرن ولا تزال الثورة مستمرة، على القانون الاستعبادي. لكنهن وقد طرحن وطرح مجتمعهن وصاية الكنيسة المهينة للمرأة المحقرة لها لم يجدن ولا وجد رجالهن أسمى وأعذب وأحلى من الحياة على النمط الإغريقي، بوسائل جديدة. انتزعن من القانونية حقوق العمل والاستقلال الاقتصادي، لكنهن أسلمن القياد للمُسَلَّمَة الدوابية ومستلزماتها. ألا ساء ما يَزِرون.

نساء الإسلام

رجع النسوة الجاهليات إلى أصولهن الجاهلية بعد أن ضقن بخناق الكنيسة. هل تنقلع نساء الإسلام من تربتهن لينغرسن في تربة غيرهن؟ إنها شجرة زقوم جهنمية تلك التي تسقى من ماء جهنمي. إنما صلاح نساء الإسلام في محنتهن الحاضرة باستيحاء النموذج النبوي الصحي، وتنفس عبيره، وتجديد أجوائه، والانغراس في بيئة إيمانية تجدد ذلك النموذج روحا وسلوكا وعلما واتباعا واعتصاما.

كيف تحولت الصحابيات رضي الله عنهن؟ كيف تربين في الشدائد التي قتلت فيها أول شهيدة -بل أول نفس- في الإسلام تحت العذاب؟ كيف تربين بعد ذلك حتى حصلت لهن تلك المعاني القلبية العميقة التي حولت إرادتهن عن التعلق بزينة الحياة الدنيا؟

إلى نموذج الصحابيات ترجع نساء الإسلام لاستيحاء المثال، لا إلى أحكام مجردة معممة تناولها الفقهاء كل في زمانه ومكانه، وظروفه السياسية، وتقلبات الزمن به، وأولوياته، وضرورياته التي أباحت المحظورات، ومصالحه التي قورنت بالمفاسد، وضرره الأصغر الذي دَرَأ به الضررَ الأكبر.

يلزم اجتهاد وفقه لفقهِ الظروف التي أثرت في اجتهاد الفقهاء الأجلاء في عصور هبط فيها الحكم إلى دركات العض والجبر.

وما علينا من الاجتهاد حين تكون السنة مجسدة حية إلا التقليد في حدود بيئتنا المعاصرة ووُسعنا للنموذج الحي المثالي. لا مكان للتأويل ولا للتخصيص والتقييد عندما نقرأ الحياة العملية للصحابيات رضي الله عنهن. أولئك كن السابقاتِ الأُولَياتِ من المهاجرات والأنصاريات اللواتي رضي الله عنهن ورضوا عنه، وأعد لهن جنات تجري من تحتها الأنهار.

نقرأ من بيت النبوة، نستقي من النبع، نقتبس الهدى والنور من مشكاة النبي وآله وأهل بيته. كان خلُقه صلى الله عليه وسلم القرآن كما قالت أمنا عائشة رضي الله عنها. فبالقرآن خلّقهن، وبالقرآن هذبهن، وبرأفته وحكمته قوَّمهن. وبحضوره ومعاشرته ومحبته التي سكنت شِغاف القلوب تشربن الإيمان واستروَحْن رَوح الإحسان.

نقرأ عن أمنا عائشة رضي الله عنها العالمة المفتية التي تُذكر مع كبار علماء الفتوى من الصحابة أمثال أبيها الصديق، والفاروق عمر، وعلي الإمام، وعبد الله بن مسعود.

نقرأ عن عائشة المحدثة المكثرة التي تتقدم فتسامي أكثر الصحابة جمعا للسنة ورواية لها وحفظا وتعليما. نقرأ عن عائشة المجاهدة التي كانت تنقُزُ قِرَب الماء تجري بها سريعة لتسقي جرحى أحُد وتواسيهم. نقرأ عن عائشة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر التي كانت تنتقد أمير المؤمنين عثمان، نقرأ عن عائشة قائدة الثورة على الإمام علي كرم الله وجهه لما اجتهدت فأخطأت، ثم ندمت على خطإها وتابت في آخر حياتها واستغفرت.

نقرأ عن عائشة التي بلغها جبريل عليه السلام سلامه على لسان زوجها الرسول الكريم المربي صلى الله عليه وسلم.

كيف تربت هذه الفذة من نساء الإسلام؟ تلك الشابة التي كانت تحب اللهو فيقف لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تشبع نهَمَها من الفُرجة على الحبشة وهم يلعبون في المسجد، كيف نشأت؟ كيف ترعرع إيمانها؟ كيف انفعلت مستبشرة مُنزجرة بآيات الله تتلى طرية في بيتها؟ نقرأ ملابسات ذلك التنزيل الحي عسى أن يتجدد لنا بالمحاذاة والاتباع إيمان، وتتحقق لنا توبة، وتسمو لنا همة، وتُقْلِع لنا إرادة من حضيض حب الدنيا والشهوات إلى أوج اختيار الله والرسول والدار الآخرة.

أنزل الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾.[1]

أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة وهي لا تزال في فجر شبابها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة. وكذلك فعل ضرائرها الثمان رضي الله عنهن.

وسبب التنزيل أنهن رضي الله عنهن التفتن في السنة الخامسة من الهجرة إلى ما وسع الله به على المهاجرين الفقراء من فتح أرض قريظة بعد إجلاء يهود بني النضير. فطمعن -وهن نساء، وهن بشر- أن يوسع عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفقة. وهو كان الأسوة في شخصه، فينبغي أن يكون أهل بيته مثالا للتقلل من الدنيا وزينتها. ونزل القرآن بالتخيير. فكان هذا الامتحان مِحكا لإرادتهن وتمحيصا وتوجيها وتحويلا. هذه تربية عملية لا تفقهها المرأة لو قرأت آيات الله في المصحف مجردة معممة.

قبل امتحان التخيير وصقل الإرادة كان التطهير من الذنوب والتتويب والتقويم.

أبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرة أمنا زينب يشرب عسلا سقته إياه. فاستولت الغيرة النسائية على نفس عائشة الشابة، ودبرت مغالطة لتصد النبي صلى الله عليه وسلم عن وِجهة هذا العسل الذي استأثرت بواسطته الضرة بوقت من أوقات الحضور المتنافس عليه. وطلبت عائشة بنت الصديق إلى حفصة بنت الفاروق أن تقول للنبي الذي كان يكره الرائحة الكريهة: «هل أكلت مغافر؟» المغافر صمغ شجر العرفط، كان من جملة مطاعمهم أو أدويتهم.

وكذلك فعلت حفصة ورددت السؤال المشكك المغالط المدبَّر بعد عائشة. فحاول النبي صلى الله عليه وسلم أن يسترضي الصديقية والفاروقية وأن يداري

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 28-29.

غيرتهن. وأخبر حفصة أنه لم يأكل معافر وإنما شرب عسلا عند زينب وأنه لن يعود. وأمرها أن لا تخبر عائشة. فعصته وأخبرتها. وهو صلى الله عليه وسلم نبّأه بما فعلت العليم الخبير سبحانه. ونزل الوحي موبخا الزوجين المدبرتين المتظاهرتين المتناصرتين، طالبا إليهما أن تتوبا: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.[1]

وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أزواجه وقد ألْحَفن في سؤال التوسعة في النفقة، ومظاهرة الغيرة النسائية قد استمطرت سورة من القرآن. أقسم صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل عليهن شهرا. ففزع الصحابة للخبر، وجاء عمر يُصلح بين المؤمنين.

هذه مشاهد من الحياة اليومية بمشاكلها ومساكنها ومطاعمها ومشاربها وشخصياتها المتحركة المخطئة التائبة المتظاهرة المتخاصمة المتصالحة. تمَسّ من قريب مشاعرنا إن كان الحديث عن المثال السامي المجرد عن عينيته وظرفيته وبشريته يبعدنا ونحن في حضيض واقع بئيس.

يحكي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث رواه عنه الشيخان فيقول: «إن كنا في الجاهلية ما نعُد للنساء أمرا. حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسَّم ما قسم. فبينما أنا في أمر أتَأَمَّرُهُ إذ قالت امرأتي: لو صنعتَ كذا وكذا. فقلت لها: مالك ولما هاهنا؟ فيما تكلُّفُك في أمر أريده؟ فقالت لي: عجبا لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تُراجَع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان».

هل كانت الصحابيات بعد أن أنزل الله فيهن ما أنزل وقسَّم ما قسم كما مهملا صامتا محجورا عليه وراء جدران الحريم. أم أصبحت لهن شخصية مستقلة وإرادة فاعلة بعد أن لم يكن الرجال في الجاهلية يَعُدّون لهن أمرا؟

(1) سورة التحريم، 4.

يدخل ابن الخطاب، وقد أسمعته امرأته ما لم يكن له به عهد، على ابنته حفصة فيسألها: يا بُنية! إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظَل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فيقول عمر: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله. يا بنية! لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله إياها (يعني عائشة).

ويدخل عمر على أم سَلَمَةَ أم المؤمنين رضي الله عنها يكلمها في الصلح بين النبي وأزواجه. فتزجره قائلة: عجبا لك يا ابن الخطاب! دخلت في كل شيء، حتى تبغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أزواجه!

ويخرج عمر منكسرا فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول عمر: «فأخذت ثوبي، فأخرج حتى جئت. فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مَشْرُبة له (أي غرفة) (...). فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث. فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء. وتحت رأسه وِسادة من أَدَمٍ (جلد) حشوها لِيفٌ. وإن عند رجليه قَرَظاً مصبورا (ورق يدبغون به مصروراً في صُرة). وعند رأسه أُهُبٌ (جلود لـمّا تُدبَغْ) معلقة. فرأيت أثر الحصير في جنْبه».

إذا سمعت المعاصرةُ كلمة «مشرُبة» مترجمة إلى كلمة «غرفة» تصورتْ ما تعهده من كون الغرفة بناء متينا مؤثثا مصبوغا. اللبِنُ الأحمر نيّئًا والطين وسقف جريد النخل. والأثاث ما سمعت. أخبر التابعي الجليل الحسن البصري وكان نشأ في حماية أم سلمة رضي الله عنها أنه وهو صبي كانت يده تصل سقوف حجرات الأزواج الطاهرات.

قال عمر: «فبَكَيْت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله! إن كِسرى وقيصر فيما هم فيه. وأنت رسول الله! فقال: **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**». وفي رواية قال عمر: يا رسول الله! ادع الله أن يُوَسع على أمتك، فقد وسع على فارسَ والروم وهم لا يعبدون

الله. فاستوى النبي صلى الله عليه وسلم جالسا ثم قال: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**».

عمر أيضا كان تحت التربية كما كانت حفصة وعائشة والمؤمنات والمؤمنون. ذلك التحول القلبي الإرادي الذي نقل المسلمات والمسلمين عبر شدائد مكة وجهاد المدينة من مرتبة إلى مرتبة لم يتحقق في حوزات منعزلة ومدارس نظرية. إنما عالجت التربية النبوية القرآنية شوائب الجاهلية وكدورات الخطايا علاجا يوميا فيه معاناة وخصامات وخروج ودخول، وحرب وسلم، واتفاق واختلاف. وكانت نساء الإسلام عنصرا حيا أساسيا. لم يكن هامشا. أعد الله لهن ولرجال الإسلام مغفرة وأجرا عظيما.

المؤمنات ومجتمع الاستهلاك

من أعوص العقبات التي تنتظر المؤمنات في جهادهن للتحول الإيماني الإرادي عقبة الاستهلاك والتكاثر التي هي سمة العصر، ونفخة شيطان الإشهار، وموضوع التنافس بين النساء والرجال. الجارة اقتنت، وابنة العم اشترت، والقريبة أخبرت بأثمان جيدة. وإن تنافس النساء والرجال والمباهاة وحب الظهور لهي مظاهر لما تخفي الصدور من عبادة لزينة الحياة الدنيا، وآثار لغلبة البيئة. وإن المرأة في مجتمع الانحطاط والرشوة والكذب لتدفع الزوج الموظف ليرتشي، والفقير ليستدين، والبائس ليسرق فيغرق الرجال والنساء معا.

شاق جدا أن تُفطم النساء والرجال عن عادة رسخت وعمت بها البلوى. ولعل أشق من ذلك إقناع بعض النساء والرجال المتطرفين في الجهة الأخرى الذين يظنون أن الله تعالى لا يرضى عن عباده إلا إن اتبعوا السنة حرفيا. فلا فراش إلا حصير يؤثر في الجُنوب، ولا أثاث إلا أهُبٌ ووسادة أَدَم. ومن النساء التائبات من تستمع لواعظ لا يعرف الدين إلا شدة وضيقا وحرجا، فهن يصدقن ويستقِلْنَ من واجب الاجتهاد وسؤال أهل الذكر. لذلك يضيقن على أنفسهن ويلبسن مسوحا سوداء وبراقع مخيفة.

قصدُنا من ذكر الحصير النبوي الإشارة إلى ما يمكن من التقلل ومحاربة عادات الاستهلاك والتبذير الشيطاني والتكاثر والتنافس. قصدنا الإشارة إلى أن الجري وراء «السعادة» الاستهلاكية يُرجع الإرادة القَهقَرى، ويثبّط العزائم، ويميت القلب، ويخمد الإيمان. ما يمكن من التقلل دون كسر العلاقات مع مجتمع ينفر منا إن واجهناه بتقشف يفزعه، ودون الاسترخاء إلى المحرمات والمكروهات الشرعية. وفقه هذا من آكد الفقه وأكثره أولوية. لأن الخصام بين الرجال والنساء كثيرا ما يكون سببه النفقة. وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأله نساؤه توسعة لا يريدها ولا يقبلها في بيت النبوة.

فقه صعب لأن البيئة العالمية بيئة إنتاج وإنتاج وبيع وسوق ودعاية. فَثَمَّةَ حدود لا يمكن لمجهود المرأة في أسرتها ولا للدولة الإسلامية في المجتمع الدولي والسوق العالمية أن يتجاوزاها.

من الجانب الآخر هناك فقر وسوء قسمة وتفاوت طبقي. فجهاد المؤمنات والمؤمنين السياسي العام والسلوكي الخاص ينبغي أن يربط بين سوء القسمة والعادات الاستهلاكية التي تؤول بالأمة أن يعيش بعضها فوق مستوى طاقة الأمة الكسبية، بينما الأغلبية تعيش في البؤس. والقضية عالمية. في العالم شمال غني وجنوب بائس ولكل قطر شماله وجنوبه.

فقه المسألة عويص من ناحية المبدإ. فهذا سيدنا عمر يريد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين رفاهية كرفاهية فارس والروم. وهو هو عمر بن الخطاب الذي هاجر من مكة تاركا المال والديار والأهل. رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا أصبح من بعد أميرا للمؤمنين وقدوة لبس ثوبا فيه ثلاث عشرة رقعة إحداهن من أَدَم. وحرم على نفسه الإدام عام الرَّمادة والمجاعة لكيلا يستأثر على المسلمين. لا أعوص من فقه المسألة إلا تحويل الإرادات والعمل بالعزائم. والحول من الله. والقوة من الله.

تُؤثر البيئة في عادات المعاش كما تؤثر في الأخلاق. وصنع البيئة الصالحة يبدأ بتكتل أهل الإيمان نساء ورجالا ليقاوموا الفاسد ويفرضوا بالضغط الأخلاقي ما يكمل ويؤسس الاستقامة التي يفرضها وازع السلطان القائم بالشريعة.

مما قصه عمر بن الخطاب في حديثه عن نساء الجاهلية ونساء الإسلام أن قال: «لو رأيتنا يا رسول الله، وكنا معشر قريش نغلب النساء. فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم. فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم».

تعلمت المهاجرات من الأنصاريات مراجعة الرجال والدفاع عن حقوقهن. وهي فضيلة تَبَيَّأْن بها لم يرفضها الإسلام، بل سمع الله قول التي جادلت نبيه في زوجها. وتعلمت الأنصاريات من المهاجرات الصبر وتحمل الشدائد، وتعلمن

منهن الإيمان. فهُن كن يسبقنهن إلى الإيمان. وهاجرن إلى الحبشة مع أزواجهن تاركات الأهل والعشيرة والديار. ثم هاجرن إلى المدينة.

شاركت عائشة وأسماء بنت أبي بكر في تهييء هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم هاجرتا مع أمهما أم رومان ومع فاطمة وأم كلثوم بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع زوجه أم المؤمنين سَوْدَةَ. وجاءت المدينة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرة تاركة بعلَها المشرك يومئذ وقد أسقطت حملها لما اعترضها هبّار بن الأسود وروَّعها بالرمح حتى خرت عن راحلتها.

وتألفت بيئة فاضلة من المهاجرين والأنصار، تعلمت نساء من نساء، ورجال من رجال، وتعاون الكل على البِر والتقوى. واسَى الأنصار بأموالهم وحبهم وإيوائهم، وعلم المهاجرون والمهاجرات من الفضائل الإيمانية ما بثته فيهم وفيهن ثلاث عشرة سنة من التربية الصامدة في مكة.

ومدح الله رب العزة والمنة هذا التآلف في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[1] يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ما تعلمت المهاجرات من الأنصاريات مغالبة الرجال في الحق فقط، إنما تعلمن أَيْضـاً دروسا في الكرم والإيثار. روى البخاري أن ضيفا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا يؤكل. فانبرى أنصاري هو أبو طلحة رضي الله عنه وأخذ معه الضيف إلى بيته. أخبرته زوجه الأنصارية أَنَّ ما عندها إلا عَشاء الصبية. فنوّمتهم وتآمرت مع زوجها. فلما قدمت العَشاء للضيف قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته ليأكل الضيف شِبَعَهُ متوهما أن

(1) سورة الحشر، الآيتان: 8-9.

ربة البيت وزوجها يأكلان معه. لم يكن هناك عود ثِقاب ولا كهرباء. وكان إيقاد النار وقدْحُ زِنادها عملية بطيئة.

مَن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. وما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أصحابه ويحذر الأمة من الانبساط في النفقات. ذلك أن الـمُنْحدَر متى انزلقت فيه منزلقة تعذر إمساك الحركة، حركة التنافس في الاقتناء والتكاثر.

جاءت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أموال من البحرين، فجاءه الأنصار، فقال: «**أبشِروا وأْملوا ما يسركم. فوالله ما الفقْرَ أخشى عليكم. ولكني أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسِطت على من كان قبلكم فتنافَسُوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**». رواه الشيخان عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

فر المهاجرات والمهاجرون بدينهم مخافة أن يفتنوا عنه تاركين وراءهم المال والإلْف والقبيلة، قاطعين حبلاً كان يربطهم بالقوم والصبا وذكريات الماضي. وفدوا على قوم كرام يحملون معهم في رِكاب الوحي بضاعة الإيمان سبقوا إليها.

وتكونت البيئة الفاضلة التي صمدت زمانا أمام تهاطل المال وأمام إغراء زينة الدنيا. وحافظ عمر بن الخطاب زمن خلافته على صفاء البيئة المدنية، لم يكن يسمح للصحابة بمغادرة عاصمتهم. وكان من انبساط الدنيا على أهل المدينة أن سكنها أمثال الغلام أبي لؤلؤة الذي طعن عمر وقتله.

كان عمر شديد الحرص على أن تَسْلَم البيئة الإسلامية من الدخيلات يخشى أن تتعلم منهن نساء الإسلام ما ينافي الإسلام. لذلك منع المسلمين من زواج الكتابيات مع أن نكاحهن جائز شرعا. جائز شرعا ما لم تكن المفسدة في ذلك تغلب المصلحة. وهذا ما اجتهد فيه عمر رضي الله عنه.

ننتقل من عصر التنزيل والخلافة الأولى لنسأل: كيف تعيش المؤمنات إيمانهن في عصر الهوائيات المقعرة، وعصر الصندوق الشيطاني الذي يعرض على الناس صباحَ مساءَ ما تعج به الدنيا من مفاتن؟

أين الـمُهاجَر، أم إلى مَن تهاجر المؤمنات والمؤمنون بدينهم؟

إن المؤمنة والمؤمن مفردَيْنِ وسط حضارة الأشياء، وبيئة الاستهلاك الصارخ في جانب، يلعنه البؤس من الجانب الآخر، أشبه شيء بالريشة في مهَب الريح العاصفة. فلابد من تكتل المؤمنات في جماعة تتألف على التقوى، وتتعاون على البر والتقوى ليمكن للمؤمنة المفردة الصمود وسط الإعصار.

وإن الدولة القطرية المسلمة وسط أساطيل الرأسمالية أشبه شيء بالفُلْكِ العتيق ناشِراً شراعه بين مدمرات نووية. فلابد للمسلمين من وحدة تمكنهم من الصمود وسط الإعصار.

إن من طبيعة هذا الدين التعاون على البر والتقوى. وإن من شروط الإيمان مجالسة المؤمنين. كان لعمر بن الخطاب جار من الأنصار يتعاون معه، فيحضر أحدهما يوما مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحضر الآخر اليوم التاليَ لينقُل أحدهما للآخر من العلم ما فاته.

اشتكى حنظلة الأنصاري إلى أبي بكر المهاجر ضَعف إيمانه، قال: «نكونُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يُذَكّرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رَأيَ العين فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافَسْنا (أي مارسنا) الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا». قال أبو بكر: «والله إنا لنلقى مثل هذا»! وينصرف المهاجر الكبير والأنصاري، كلاهما يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ريشة في مهب الريح، وفُلك تلعب به أمواج العالم الهَدّارة ما لم يكن تكتل وتعاون وتجالس وتآزر ووحدة تعطي الأمة وزنا، وتعطيها الكيان القوي ذا الحجم القوي الذي لا تخبِر عنه الأعداد الغثائية المنتشرة المنتثرة. وتمسك الريشة المفردة أن تَذهب بها العواصف والقواصف.

عندما يلتقي المؤمن بالمؤمنين، وتجلس المؤمنة إلى المؤمنات في مجالس الإيمان والذكر والعلم تبسط عليهن وعليهم الملائكة أجنحتها ويقذف الله عز وجل في القلوب نور الإيمان. روى البخاري أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لصحابي: «اجلس بنا نؤمن ساعة». اجلس إلى بيئة إيمانية مصغرة!

وروى الإمام أحمد أن عبد الله بن رواحة الأنصاري كان إذا لقي صحابيا قال لهُ: «تعال نؤمن ساعة». قال ذلك يوما لرجل فغضب الرجل وكأنه ظن أن ابن رواحة ظن به سوءا. فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: يا رسول الله، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغَبُ عن إيمانك إلى إيمان ساعة! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**يرحم الله ابن رَواحة. إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة**».

هكذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم وألحقنا بهم مؤمنين. آمين.

سعادة الجسد

هل لنساء الإسلام ورجاله متسع في شريعة الله وسنة رسول الله ليسعَد جسم بعضهم بجسم بعض، أم إن الإسلام تجهم وتكشير وتقشف وإعراض عن المرأة، واعتبارها رجسا وشيطانا، واعتبار الغريزة الجنسية والجِماع واللذة شرا لابد منه، وقذارة وسفالَة؟

نريد في هذه الفقرة أن تعرف المؤمنات والمؤمنون في كلياته وتفاصيله ما يُسعد الجسم الذكر بالجسم الأنثى، وما يشرح نفس المرأة حين يسكن إليها وتسكن إليه، وحين يكون الجسم مَعْبَراً للمودة والرحمة ومُعَبِّرا عنهما.

إن من أهم الواجهات التي تهجم علينا منها الدوابية واجهة الجنس، يُغرون بالزنى والفاحشة بوسائل البث الفضائي والفن، ويعرضون جسم المرأة شبه عار في التلفزيون المحتشم، وعاريا داعرا في أوضاع الفاحشة في قنوات إبليس.

وإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1]. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله في شرح الآية: «قيل معناه كافِّين لهم كما يقاتلونكم كافين. وقيل معناه جماعةً كما يقاتلونكم جماعة. وذلك أن الجماعة يقال لهم الكافة كما يقال لهم الوازعة لقوتهم باجتماعهم».

نأخذ المعنيين معا، ونصل الحديث بالفقرة السابقة لننظر إلى ضرورة اجتماع القوة، بل جمعها، وتأليف البيئة الصالحة وتوحيد الأمة. لأن الله تعالى أمرنا بذلك، ولأن ضرورة ذلك تمليها الهجمة الدوابية الشمولية من كافة الواجهات. لا يمكن كفّ الهجمة وصرفها عنا إلا بالجمع والتأليف والرد الشامل.

ثم لا يكفي أن نكفهم ونصرفهم كما تنتهي المعركة في ميدان القتال بالسيوف والرماح أو بالقنابل والرشاشات. الجاهلية غزتنا في الأعماق، فالمعارك –ومن

(1) سورة التوبة، 36.

أهمها موضوع هذه الفقرة– الفائزة هيَ تلك التي تمكننا من قلع الشجرة الخبيثة وغرس الطيبة بدلها.

قوة التحدي ووحدة العدو وانغراس الجاهلية في نفوس المسلمين لا ينهض لها إلا الوَلاية بين المؤمنين كما فصلها القرآن الكريم في آخر سورة الأنفال. يقرأها المؤمنات لنقف معهن عند قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِير﴾[1]. إن لا نُحكم روابط الوَلاية والمناصرة بيننا فإن أعداءنا بعضهم أولياء بعض، وهم مفسدون. انظرن إلى اتفاق الروس الملاحدة مع أوربا المتهتكة وأمريكا المتعجرفة على قتل مائتين وخمسين ألف مسلم عراقي، وعلى تخريب بغداد، وعلى خذلان المسلمين بالبوسنة، سلحوا الهمج الصرب ليذبحوا الرجال ويهتكوا أعراض الـمُسلمات. وانظرن إلى اتفاق الروس والمريكان على نصرة نصارى جنوب السودان. والواجهة واسعة.

المعارك إذاً لا تقف مهمتها في الكف والصرف، وهل يمكن وكيف يمكن الكف في عالم التواصل السريع الذي أصبحت الكرة به قرية صغيرة، والمشاكل أجمعُها مشاكل كُرَوِيّة؟

المعارك لغرس البديل الإسلامي في كل بقعة من بقع المواجهة. ورعايته وتقويته. وإن الله عز وجل ما حرم خبيثا إلا وأبدلنا به حلالا طيبا. التوسعة على العيال بدل التبذير والشح. ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾[2] بدل أكل الخبائث والإفساد في الأرض. زينة الله في اللباس وفي كل شيء بضوابط ذلك الشرعية بدل زينة الشيطان. البيع بدل الربا. الزواج بدل الزنى. اللذة في الجماع الحلال صدَقَة بدل الفاحشة الخطيئة الموبقة. الطيبات من النساء الطاهرات للطيبين الطاهرين، والخبيثات الزانيات للزناة الخبثاء.

(1) سورة الأنفال، 74.
(2) سورة المؤمنون، 52.

نعود في فصل مقبل إن شاء الله لنرد على الهجوم الاستشراقي التقليدي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وصموه بالشهوانية لأنه جمع بين تسع ضرائر.

وصموه الأعداءُ بأنه عشِق زيْنب وأخفى عشقه حتى طلقها زيد. وإنما أخفى صلى الله عليه وسلم ما أنبأه الله به من أنها صائرة إليه يوماً. أخفى ذلك انتظارا لقدر الله ومخافة أن يعارض العرب الذين كانوا لا يبيحون نكاح الأب زوج ابنه بالتبني إن طلقها. وكان التبني مما منعه الإسلام ومنع أحكامه الجاهلية بهذا الزواج.

أخبرنا صلى الله عليه وسلم بصدق النبي وتربية الرسول وصراحة أهل اليقين أنه حُبب إليه من دنيانا النساء والطيب، وأن قرة عينه جعلت له في الصلاة.

نرجع إن شاء الله إلى سنته الرشيدة في إسعاد الجسم بعد أن نلقي نظرة على الأصول النظرية للثورة الجنسية التي قلبت موازين الأخلاق الجنسية في الغرب رأسا على عقب منذ ربع قرن.

كان فْرُويْد اليهودي الطبيب قد قام بحملات الإشهار والدعاية والإقناع بفكرته في الغرب منذ نحو ثمانين سنة. أثمرت تلك الحملات والكتابات ومدارس التحليل النفسي المتتلمذة لفرويد كلا أو جزءا ولو عارضته. أثمرت بعد سبعين سنة وأعطت ما نراه من دوابية جامحة هائجة مجنونة، لا يحد من غلوائها ولا يطفئ من لهبها هذا المرض الوبائي الذي سلطه الله على الخبثاء الزناة اللائطين. أعني وباء الإدز/ السيدا.

اجتمعت في حوض الفلسفة الفرويدية روافد الانحلال الإغريقي، والخلاعة الأوربية الأصيلة، وصراعية دروين المؤسسة على صراعية مالتوس. ولا نذكر من مات من اليهود المنظرين للصراعية التاريخية مثل ماركس وتروتسكي وماكوز.

في فلسفة فرويد تأخذ رموز الطوطم والطابو مكان الرمزية الإغريقية التي كانت تستأنس بفحشاء الآلهة وتنصب في الأماكن العامة تماثيل الفعل اللوطي.

كل أصول التركيبة الاجتماعية البشرية هي في فلسفة فرويد راجعة للشهوانية. وإن أزمة الحضارات منبعها الصراع بين شهوة الأفراد البهيمية وبين النظام الاجتماعي القامع. بنى على نظرية دروين الذي يرى أن التجمعات البشرية الأولى كانت تعيش عيشة القطيع من القردة. على رأس التجمع فحل قوي يستأثر بالإناث ويمنع الذكور من أبنائه من الاقتراب منهن.

اشتق فرويد من هذه النظرية وأثراها بزعمه أن الأبناء في الصنف البشري كما هو الحال في الصنف القردي يُعانون من عقدة أوديب. أسطورة أوديب الإغريقية أضافها اليهودي لرصيده التلمودي من أحلام المنام وفسق بني إسرائيل ليكون نظرية شاملة تعم رموز الإنسانية ويقظة الإنسان ومنامه وأدبه وموسيقاه وحياته أجمع. كل ذلك شبق وشهوة وعُقد. حرب دائمة ومِرْجَلٌ يغلي في باطن الرجل بين النزوات والشهوات. وفي باطن المرأة مثل ذلك. كان يسمي المرأة «قارة سوداء». البنت تعشق أباها طفلة وتتعقد شابة، والابن يَعشق أمه ويغار عليها من أبيه في وعيه الباطني وعقدته الأوديبية الدوابية.

نطرح هذه القُمامات الفكرية ونرجع لبيئة العافية من سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. تزوج جابر بن عبد الله امرأة ثيبا كبيرة السن فقال له صلى الله عليه وسلم: «**هلاَّ بكراً تلاعبها وتلاعبك!**». ولقي سيدنا عثمان وهو أمير للمؤمنين سيدنا عبد الله بن مسعود في مِنى أيامَ الحج فقال له: «ألا نزوجك جارية شابة لعلها تذكرك بعض ما مضى من زمانك؟». وكان الصحابي يلقى أخاه فيسأله في مرح: «هل عرستم الليلة؟».

كانت المتعة الحلال حظا معروفا محبوبا لتلك النفوس الجادة المجاهدة. وكان الحديث عنها وممارستها شأنا من شؤون دنيا كل أحد، وشأن من الشؤون العامة التي يشجع عليها الدين. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يندُب الشباب ليتزوجوا. وكان الوحي ينزل آمرا المسلمين: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[1]. ويأمر القرآن ببناء الأسرة المسلمة ومقاطعة

(1) سورة النور، 32.

المشركات والمشركين: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.[2]

ويعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم آداب الجِماع وما يباح منه وما يمنع. وقد شدد الشرع المطهر المنع من اللواط وإتيان البهائم. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للأزواج: «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول أو أتى امرأة في دبُرها -وفي رواية امرأة حائضا- فقد بَرِئَ مما أنزل على محمد**». أخرجه أبو داود عن أبي هريرة بسند صحيح.

كان القرشيون يحبون أن يأتوا النساء من وراء، فلما جاءوا إلى المدينة مهاجرين وجدوا عند اليهود عادة أخرى. يقول جابر رضي الله عنه: كانت يهود تقول: من أتى امرأة في قُبُلها من دُبرها كان الولد أحول. فأنزل الله سبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.[3]

القرآن يعلم هذا لأنه من الدين. ويعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء عند الجماع. ويقول: «**في بُضْع أحدكم (أي جماعه لزوجه) صدقة**». فهو عمل صالح مقدس زيادة على سعادة الجسم. ويحث صلى الله عليه وسلم على إعطاء المرأة حقها من المتعة، فيمنع المطلقة ثلاثا من العودة إلى زوجها حتى تنكح زوجا غيرهُ و«يذوق عُسَيْلتها وتذوقَ عسيلته».

هذه «العسيلة» لا تأتي بهجوم الذكر على الأنثى، لكن بمقدمات وملاعبة يُشرع لها النبي صلى الله عليه وسلم بفعله مع زوجاته، أفشين ذلك للأمة لأنه من الدين، ومما يرضي الله.

(2) سورة البقرة، 219.
(3) سورة البقرة، 221.

قال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»: «ومما ينبغي تقديمه على الجماع ملاعبة المرأة وتقبيلها ومص لسانها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلاعب أهله ويقبلها. وروى أبو داود في سننه أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل عائشة ويَمَصُّ لسانها. ويذكر عن جابر بن عبد الله قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المواقعة قبل الملاعبة».

يكتمل سرور النفس وطيبة الزوجين وسعادتهما الجسدية بالتفاهم الرقيق، والكلمة العذبة، واختيار الوقت الأنسب، والحركة الأجمل. ما دام الرجل والمرأة في حلال فلا حرج عليهما فيما يصنعان من فن المداعبة والملاعبة ودلال المرأة وتَعَطف الرجل.

قال ابن القيم رحمه الله: «قالت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيْت لو مررت بشجرة قد أُرْتِع فيها وشجرةٍ لم يُرْتَعْ فيها، ففي أيهما كنت تُرتِع بعيرك؟ قال: **في التي لم يُرتع فيها**».

هذه كلمات يتبادلها المحبون. فهي رضي الله عنها تذكره بأنها من بين سائر نسائه التي تزوجها بِكْراً، شبهت نفسها بالشجرة التي لم يمسسها آكل.

وكان صلى الله عليه وسلم ينصح باختيار الزوج ذات الدين الودود الوَلود.

ذات الدين لأن بالدين صلاح أمرهما في الدنيا والآخرة. الوَدُود لتكون العشرة رحمة والرحلة مُتعة. الولودُ لتنشئة أجيال الإسلام. الأمر بعضه يمسك بعضا. والله هو الرحيم الودود سبحانه.

المؤمنات وحب اللهو

روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف لها لتتفرج على الحبشة وهم يلعبون في المسجد ويزْفنون (أي يرقصون)، كان خدها على خده. وكان يشجع الأحباش يقول: «**دونكم يا بني أرفدة!**». وفي حديث رواه عنها الإمام أحمد أنه صلى الله عليه و سلم قال عند ذلك: «**لِتعلـمَ يهود أن في ديننا فُسحة**».

هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا قال. مؤمنة هي أم المؤمنين ونموذج الصالحات كانت تحب اللهو في فجر شبابها فصبر لها الزوج الحنون والرسول الرؤوف الرحيم حتى شبعت وملّت من الفرجة. وكانت تأتي إليها صويحباتها ليلعبن معها. وسابقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته، ثم سابقها مرة أخرى فسبقها وقال: «**هذه بتلك!**»

ما هي الفسحة التي في ديننا؟ ما هي الحدود الشرعية لهذا الفضاء الفسيح؟

روى الترمذي أن الصحابة قالوا: يا رسول الله! إنك لتداعبنا! قال: «**إني لا أقول إلا حقا**». داعب صلى الله عليه وسلم امرأة سألته أن يعطيها بعيرا تركبه، فقال: «**أحملك على ولد الناقة!**» فلما تعجبت ما تصنع بولد الناقة قال لها: «**وهل تلد الإبلَ إلا النوق!**» وقال لامرأة: **زوجك الذي في عينه بياض؟** قالت: عَقْرَى! (كلمة تعجب واستغراب مما تألف النساء قوله: مثل يا ويلي!). فقال لها الحبيب صلى الله عليه وسلم: «**وهل من عين إلا وفيها بياض!**». وروت أمنا عائشة أن عجوزا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا تدخل الجنة عجوز!**» فقالت: وما لَهنَّ! خافت المسكينة أن تكون محرومة. فقال لها: **أما تقرئين القرآن**: ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَابا لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾؟[1]

(1) سورة الواقعة، 37–40.

ما هي حدود الشرع في الترويح عن النفس؟ فسيحة هي بشهادة من له الشهادة.

روى عز الدين بن الأثير في كتابه «أُسْدُ الغابة» أن نعيمان كان مزاحا. سافر إلى الشام تحت إمرة أبي بكر ومعهم سُوَيْبط. وكان سويبط في هذه السفرة مكلفا بالزاد. سأله نعيمان أن يطعمه فأبى. فاحتال عليه، وأتى قوما أكد لهم أن له غلاما يريد أن يبيعه. وباع سويبطا بعشر قلائص (نوق). ووضعوا الحبل في عنقه وذهبوا به لولا أن أبا بكر تدارك الموقف لما علم بما حدث. رجعوا إلى المدينة فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل نعيمان، فلبث هو والصحابة يضحكون حَوْلا (عاما) من هذه الفعلة.

أُمزوحة ثقيلة! أم هي الفسحة في الدين؟ جاء أعرابي فأناخ ناقته ودخل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاء بعض الصحابة إلى نعيمان وأوعَزوا إليه أن ينحَر لهم الناقة لأنهم قَرِموا إلى اللحم، ففعل. فخرج الأعرابي يصيح لما رأى ناقته منحورة. وذهب النبي صلى الله عليه وسلم يبحث عن نعيمان فوجدوه اختبأ في بيت ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب. فأشار إلى مكان اختفائه وقال بصوت عال: ما رأيته يا رسول الله! هذا وأصبعه تشير إلى المكان. فخرج نعيمان وقال: يا رسول الله، الذين دَلُّوك علي هم الذين أمروني. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح وجهه ويضحك، وغرِمَ الناقة لصاحبها.

إنه بعد فضل الله ورسوله ما وصلنا الإسلام إلا بفضل أهل بدر الذين هم رمز الجهاد ومرجِع الفضائل إلى يوم القيامة. ونعيمان وسويبط من رجال بدر أبطال الإسلام. ورسول الله صلى الله عليه وسلم منشرح الصدر لفَعلات نعيمان وسويبط الذي كان مزاحا أيضا. وبُريدة وغيرهم.

فن مسرحي هذا وفكاهة ودُعابة ومقالب! ولئن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاوم الثقافة اليهودية التلمودية بإظهار فسحة الدين، فإن عصرنا هذا عصر الهوائيات المقعرة والأدب الخليع والعُري وموسيقى الرُّوك التي تنقُر إيقاعاتها الشيطانية في الأوتار العميقة للغريزة الحيوانية، أحوج إلى فن إسلامي بديل عن الفن الدوابي.

لا أريد هنا أن أدخل في مجال خلافي، متأجج كان ولا يزال منذ قرون، فيما يخص الطرب وآلات اللهو والسماع. رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع الجواري يغنين ويضربن الدف. هذا فعله. وجاءت عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث في النهي عن المعازف.

حكى ابن تيمية شيخ الإسلام رحمه الله إجماع الأئمة الأربعة على تحريم كل آلات اللهو ما عدا الدف. لكن المحققين من الفقهاء أمثال الإمام الشوكاني رحمه الله أثبتوا أن لا إجماع هناك. وأن العديد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمة وصلحائها سمعوا القينات معهن المعازف من عود وطنبور ومزامير. يرجع المؤمنات إلى كتاب «نيل الأوطار» للشوكاني وهو من المراجع الفقهية المعتبرة. الجزء السادس من صفحة 336 والجزء الثامن من صفحة 264.

وتعرض الإمام الغزالي رحمه الله للسماع الذي يصنعه الصوفية، فكاد يربط حلية الآلات الموسيقية وحِرمتها بالعلة الغائية، ما كان منها مستعملا لتنشيط النفوس فجائز، وما كان منها حُدَاءً للفجور فحرام. لكنه أحجم أمام كثرة النصوص رحمه الله.

أما ابن حزم فموقفه مشهور. عمد إلى الأحاديث الواردة في المعازف فحكم بأنها كلها موضوعة.وانتقد حديث أبي مالك الأشعري الذي أورده البخاري، فحكم أنه منقطع موضوع. فعنده لا فيصل بين الحلِّية والحِرمة في آلات الموسيقى إلا ما يُفعل بها. فهي حرام إن صحبت الغناء الفاحش، حلال إن كانت من باب ترويح النفوس وتلطيفها.

نترك لأهل الاجتهاد المستقبلي فسحة للتحقيق. ونورد كلمة للفقيه المالكي الكبير أبي بكر بن العربي. قال: «وليس الغناء بحرام. فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد سمعه في بيته وفي بيت غيره، وقد وقف عليه في حياته. وإن زَاد فيه أحد على ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عُوداً بصوت عليه نغمة فقد دخل في قوله (قول أبي بكر لجاريتين تغنيان في حجرة عائشة): مزمار الشيطان في بيت رسول الله عليه السلام! فقال: «**دعهما فإنه يوم عيد**».

قال: «وإن اتصل نقر طنبور به فلا يؤثر أيضا في تحريمه (الطنبور عود ذو أوتار). فإنها كلها آلات تتعلق بها قلوب الضعفاء. وللنفس عليها استراحة وطرح لثقل الجسد الذي لا تحمله كل نفس ولا يتعلق به قلب. فإن تعلقت به نفس فقد سمح الشرع لها فيه».

استفدنا هذه النقول من كتاب الشريعة الإسلامية والفنون «للأستاذ أحمد مصطفى علي القضاة».

فتوى فقيه متنور تلميذ للغزالي رحمهما الله. فتوى تفسح للضعفاء في الدين. نضع المسألة في إطارها الحاضر والمستقبلي، ونعتبر أن الفراغ والإفراغ بإسكات مزامير الشيطان في العالم أمر مستحيل، ونعتبر أن الحكومة الإسلامية من مقام المسؤولية غدا لا يمكنها أن تغلق المؤسسات الإعلامية الفنونية كما لا يمكنها بين عشية وضحاها أن تغلق الأبناك الربوية وتمتنع عن التعامل مع الأوساط العالمية الرأسمالية وكلها ربا في ربا. والربا أعظم المصائب وأشنع المحرمات، لا خلاف في فظاعته للنص القرآني كما هو الخلاف قائم واسع في الأوتار والغناء.

الفن، وقوامه الأوتار والغناء والأدب والتمثيل وما إلى ذلك، هو الهواء الذي تستنشقه الحياة الصاخبة المدوية الهادرة الهوَسية الشيطانية. في أشرطة موسيقى الروك يدسون وسوسات شيطانية من كلمات البذاءة والفحش والزنى واللواط. تمر هذه الوسوسات في الشريط المرئي والمسموع في جزء صغير من الثانية لا تلْقفُها حاستا البصر والسمع، لكنها تستقر في قاع الدماغ تلعب فيه كما يلعب الإيقاع الحيواني بالجسد.

ما هي حدود الفسحة، وحدود الفن الإسلامي البديل الذي يباري الشيطنة الموسوِسة الطاغية المستبدة بسمع الإنسان وبصره ودماغه ويديه ورجليه ودمه وعروقه، تحركه حركة جنونية، وتخلُب لبه وتأسِر نفسه؟

البديل الإسلامي في ميدان الفنون لابد منه. ودَرْءُ المفسدة الأكبر بالمفسدة الأصغر قاعدة أصولية متينة. والإطار غير ما عرفه فقهاؤنا الأقدمون. نموت إن

بتنا ننظر إلى الدين بأعين الموتى، ونفكر بعقولهم، وهم رحمهم الله لفتوا نظرنا إلى أن الفتوى تتغير باعتبار الزمان والمكان والأحوال. والمسار التاريخي ليس قطعة خبز نقطعها بالسكين الحادة، هذا مضى وهذا مستأنف.

تُلتَمس للضعيف رخصة، ويُلتمس للضرورات مخرج.

وتعمل التربية عملها. أستغفر الله، بل يقذف الله نور الإيمان في قلوب عباده. ويترعرع الإيمان في قلب المؤمنة التي كانت تحب اللهو وتحرص عليه، فيطرد حب الله حب اللهو، وتنْعَتِقُ الروح من حبائل الهوى، ويصبح سماع الأنبياء والصديقين أشرف ما تتحلى به الأذن ويَستشرف إليه القلب. سماع الأنبياء القرآن، يتغنى به المؤمنون والمؤمنات، فتسمو به المشاعر، وتتصعد العواطف.

ما رأي المؤمنات والمؤمنين في سماع يأذن له الله رب العزة ويستمع إليه؟ روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما أَذِنَ الله لشيء ما أَذِنَ لنبِيٍّ أن يتغنى بالقرآن**». أَذِنَ أَذَنا بمعنى استَمَع. وعند البخاري: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**». وروى أبو داود والنسائي عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**زينوا القرآن بأصواتكم**».

القرآن كلام الله خير ما تغنى به المؤمنون والمؤمنات واستغنوا به. أستغفر الله، فإن مقارنة كلام الله بغيره ولو بالتفضيل زلة قلم.

إن للروح تطلعا إلى الجمال المطلق وهو الله تعالى. تحن الروح إلى أصلها في قربه. أما الفِطَر السليمة فأشواقها إلى ربها ترفعها ولو بعد فتَراتِ حب اللهو إلى مقامات الإحسان، فيصبح كلام الله بَلْسَمَ حياتها وربيعَ قلبها. وأما الفِطَرُ المطبوع على قلوبها فيتكسر ذلك التطلع الفطري فيها إلى الجمال على صخور قسوة القلب. لا يكاد يرتفع قليلا حتى تقتنصه الغرائز، وتجتذبه الشهوات، وتأسره النزوات، فإذا هو في قبضة الفن الماجن.

تطلّع سماوي أفقه القرآن، وغذاؤه القرآن، وسماعه القرآن، وطربه القرآن.

ذاك هو البديل الإحساني لمضمون الفنون الأرضية الغارقة في حَمْأة التراب المغرقة فيها. ولئن كان لعامة المسلمين ممن تغلب عليهم حاجات الجسم وضرورات العيش مندوحة في التسلي بأناشيد وأهازيج، فإن الأنشودة الخالدة المقدسة عند المؤمنات والمؤمنين هي تلك التي يناجون بها ربهم سبع عشرة مرة في اليوم والليلة فرضا، وما شاء الله بعد ذلك نفلا: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

المؤمنات والمؤمنون أكفاء

قرأنا في حديث عمر في فقرة سابقة أن المهاجرين المتطبعين بعادات قريش كانوا «يغلبون» نساءهم، فلما هاجروا إلى المدينة وجدوا الأنصار «تغلبهم» نساؤهم. فتعلمت المهاجرات من الأنصاريات أن «يغالبن» الرجال على حقوقهن وأن يُراجِعْن كلام الزوج وأن يرفعن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شكواهن.

في ذلك العهد الفاضل، والمؤمنات والمؤمنون تحت التربية، لم يُفْضِ هذا التغالب إلى نزاع وخصام وعداوة. بل هذبته التربية وهذبه القرآن الذي جعل للرجال على النساء «درجة» مارس الرجال مسؤوليتها برفق ومداراة وحكمة ومودة ورحمة. كانت المرأة المؤمنة في بيت زوجها معززة معتَرفًا بحقوقها، جاهرةً مجادلة عن حقها بحرية وشجاعة، مسموعة تظلماتها، يسمعها رب العزة سبحانه ويقضي فيها رسوله بالعدل إن لم يكن ظالمها مُحسنا يستبق إلى الخيرات ويوفي الضعيفة المرأة حقها وزيادة.

ثم هبطت المجتمعات الإسلامية وهانت المرأة بعد عز، وسكتت، بل أُسكتت، بعد إفصاح، وألجمت بعد انطلاق. ألجمها فقه منحسر منحبس، وأهانها وأسكتها تعسف الرجال في ممارسة «الدرجة» المسؤولية، وقد تحولت «الدرجة» استعلاء.

اليوم كفة المرأة طائشة في المجتمع المسلم رقيق الدين، كما أن كفة المرأة مرجوحة في مجتمع المارقين من الدين. فالمسلمات الجاهلات بحقوقهن الساكتات عنها، يطلبن المساواة مع الرجل كما تطلبها المارقات من بنات جلدتنا الموصولات فكرا ونمط حياة بالجاهلية المارقة.

المؤمنات والمؤمنون أكفاء في شرع الله المنزَّل بميزان العدل. لا ترجَحُ كفة الرجل ولا كِفة المرأة إلا بالتقوى. تجد هي ويجد هو فضل ذلك الرجحان في ميزان الحسنات يوم القيامة. أما التكافؤ في الحقوق

والواجبات هنا في الدنيا فمحكوم بشريعة مفصلة ثابتة ثبوت الفَلَك الدَّوّار وثبوت نواميس الله في الكون. فإذا وقع التحول بالهبوط أو الانحراف في أشخاص ذوي الحقوق وفي بيئتهم الاجتماعية والعالمية فإن مرونة الاجتهاد تُكيف ما بين الواقع وبين المطلوب الشرعي بالتدرج والتقريب وإعمال وازعَيْ القرآن والسلطان.

هذه «الدرجة» التي أعطاها الله عز وجل للرجال على النساء بصريح النص القرآني هي ترجيح لكِفة الرجال في ظاهر الأمر. وهي إنما هي تثقيل لميزان الرجل بمثاقيل المسؤولية، وتخفيف عن أعباء المرأة التي ندبها الشرع لمسؤولية عظيمة يصرح بها الشرع ويلوح إليها ويضمِّنها أحكام التوزيع للواجبات والمسؤوليات بين الرجل والمرأة.

«الدرجة» إمارة في القافلة الاجتماعية الزوجية السياسية. هي بمثابة أمير السفر الذي أوصت به السنة النبوية. إمارة بدونها تكون الفوضى في القافلة، فتضعف، فيجد العدو فيها مغمزا، فيعدو عليها ويمزقها.

أساء المسلمون الرجال ممارسة «الدرجة»، فالمسلمات يطلبن عدلا، والمارقات المندسات الكاتبات الخاطبات يردن انتزاع زعامة القافلة من يد الرجال المسلمين ليتولاها أخدانهن ويتولينها هن. مساواة بين الرجل والمرأة، وديمقراطية تطرح الدين جانبا، وقانون متحول لا يقبضه ثابت عتيق عن السير في خط التقدم في ذيل القافلة الدوابية الزعيمة.

هل في مكتسبات المرأة الغربية ما يغري المسلمات؟ هذا والاستقلال الاقتصادي لا تزال المرأة الغربية تجري وراءهُ، وهو مكسب هائل لو تحقق. نفرض أنه تحقق لها هناك، فما ثمنه؟ إن كان القانون الغربي انتزعت منه المرأة الغربية بنضال وتطور اجتماعي بعض الإنصاف في أجر العمل، وفرص التعلم والرقي الاجتماعي، فإن الثمن من إنسانيتها باهظ. صيرتها الثورة الجنسية لعبة مبتذلة. واختلس منها الرجال من جانب ضعفها النفسي أضعاف ما خوله لها القانون من جانب قوتها النضالية.

على لافتة النضالية العالمية للمرأة مكتوب بحروف ملتهبة: «مساواة». إن أردتن معشر المؤمنات الفرجة على هذه المساواة على أرض الواقع الغربي لا على لافتات النضال تحت راية القومية النسوية فانظرن إلى حال الدمية الغربية. وإن جادلتكن مارقة فاسألنها ما يفعل الحلاق بشعر الغربية الأصيلة واللقيطة، وما يفعل بوجهها صانع الأصباغ والعطور وجراح التجميل، وما يفعل بهندسة جسمها مبدع الأزياء، وما يصنع الإشهار بصورتها وأوضاع جسمها، وما يفعل صانع الأغاني بصوتها، وما يفعل كل هؤلاء الرجال بأجرتها عاملةً، وبماهيتها موظفة. أي استقلال وأية مساواة! بل أي استعباد واستغلال!

في غريزة المرأة انصباب عاطفي على الرجل. تريد إلفات انتباهه بأي وسيلة، والإحراز على إعجابه، واستلاب عقله، وأسره في حبائلها. متى لم يُهذب وازعُ الدين الغريزة النسوية، ومتى لم تجد المرأة سعادتها الجسدية في واحد -وهي لا تجد أو تدينَ بشرع الله- فالباب مفتوح على عالم الصراع بين الرجال والنساء على المال والجمال وكل مظاهر زينة الدنيا. والغلبة في الحلبة الصراعية مهما كان دهاء المرأة وأصباغها ومكرها وثقافتها ودبلوماتها هي للرجل بوسيلة القانون، فإن منعه النضال من وسيلته هذه فضعف المرأة النفسي وسيلة جاهزة.

مساواة وهمية مع نبذ الدين، أو النهوض الشمولي التربوي العلمي الاجتهادي الاقتصادي السياسي بالرجال المسلمين، والنساء المسلمات، وبالبيئة؟ هذا هو الاختيار الموضوع أمام المؤمنات والمؤمنين وأمام القوة الاقتحامية يجاهد في طليعتها المؤمنات فيما يليهن، ويجاهد المؤمنون فيما يليهم، وتلتقي الجهود لدحض الباطل وإحقاق الحق.

المسار الوهمي في خط الدوابية متحولات لا ثبوت لها: فكل ما انبثق عنه الخيال، وحبذته أرقام الاستطلاع الشعبي، وجنده الإشهار، وحسنه الشيطان فهو التقدم والحضارة.

ولنا في إسلامنا لله ربنا ثوابت الإيمان به والاعتصام بسنة نبيه، ثم مرونة الاجتهاد. دوابٌّ هائمة على وجهها لا تدري لم خُلقتْ، أيجمل بعقل بشري الاقتناع بمُسَلَّماتها، أم يليق بإنسان يحترم إنسانيته أن يغمض العين عن رزاياها؟

من ثوابتنا الشرعية في الزواج الكفاءة بين الزوجين. عَلاَمَ يُقاس هذا التكافؤ؟ وبأي معيار يعير؟ إن وضعنا القرآن على الرف، والسنة محفوظة مصونة في كتبها، ونظرنا إلى واقعنا الحي بأعين الأموات، ويئسنا من طرد الرواسب الجاهلية فينا، وعجزنا عن إصلاح ما تفسده، فإن معايير الكفاءة تكون هي المال والجاه، يُصْهِر الولي بابنته الصغيرة إلى كبير القوم ممن له مال وجاه، وتسعى هي إلى المال والجاه، ويسوقها أهلها إلى القبر الزوجي تسكنه ريثما يُساق الثري الهرم إلى قبره فترث الأموال والضياع.

أما إذا قرأنا القرآن، وتَمَعَّنَّا السنة، ووضعنا كفتي المعادلة والكفاءة الزوجية في ميزانٍ مثاقيله وصنوجه تزن قِيم الدنيا والآخرة فإن معايير الدنيا تسقط، وتخلد معايير الآخرة في حسابنا كما هي خالدة عند الله. وعندئذ يكون زواج النبي صلى الله عليه وسلم الكهل بعائشة الفتية فوزا خالصا لعائشة، فوزا أبديا لا وزن معه لما تتخيله البَدَنيات الدنياويات من ضياع سعادتها الدنيوية. وكذلك كل صالح من المؤمنين يتزوج صالحة من المؤمنات، يسقط معيار التفاوت في السن والمال والجاه، وينتصر معيار السعادة الأبدية إن غفر الله لهما ورضي عنهما فكانت زوجه وكان زوجها في الجنة.

معيار التكافؤ الزواجي في قوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا خطبَ إليكم من ترضون دينه وخُلقه فزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**». أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه. ونرجع إن شاء الله إلى الموضوع في فصل لاحق.

تتعالى صرخات دهاقنة التغريب بالشكوى من إجحاف الإسلام في زعمهم بالمرأة حين جعلها نصف إنسان ترث نصف ما يرثه الرجل.

إذا أخرجت الحكم الشرعي في الميراث عن نسقه الإسلامي الكلي فالإجحاف والظلم باديان صارخان في كون الأنثى ترث نصف ميراث الذكر. لكن إن اعتبرت هذا الحكم في نسقه الكلي وجدت أن المسلمة أحسن إليها الشرع حيث حباها بنصيب من الميراث تشتمل عليه احتياطا لدوائر الزمن، وتستثمره بحرية ليوم الحاجة ولإنفاقها في سبيل الله، بينما رزقها وكسوتها وسكنها وسائر نفقاتها كُلِّفَ بها الأب وهي صبية أو أَيِّمٌ، وكلف بها الزوج الكاسب.

كان الجاهليون لا يورِّثون النساء قِطميرا في جزيرة العرب. وجاهلية اليوم يسمح قانونها أن يوصي الثري لكلبه بملايين الدولار، فيعيش الكلب تخدمه خادمات، هو بين الكلاب المدللة الطاعمة الناعمة المتخذة أولادا ملك بين سوقة.

ويصرخ الناقمون على الإسلام من كون الشريعة جعلت دِيَة المرأة المقتولة نصف دية الرجل. وذلك ما يؤكد في زعمهم أنها في الإسلام نصف إنسان.

وهي مغالَطة، لأن نصف الدية إنما يؤدى عن المرأة إن كان القتل خطأً. أما إذا قتلت عمدا فالدية كاملة يتساوى فيها الرجل والمرأة. تكافؤ كامل في القتل العمد لأن النفس والقيمة الإنسانية واحدة، لا يفضل فيها أحد أحدا. أما في القتل الخطإِ فالمقتولُ الرجلُ كاسِبٌ رزئت عائلته في رزقها، فوجب التعويض لها. بينما المقتولة المرأة في الخطإِ مكفولة المؤونة يكسب عنها غيرها.

في الوضع الإسلامي السليم لا سؤال عمَّن هو الكاسب.

يشير نصيب الرجل في الميراث ونصيب المرأة، كما يشير تشطير ديتها، إلى أن الرجل هو الكاسب المنفق الـمُحَمَّل بأعباء ماديات الحياة لتتفرغ المرأة لحمل الإنسان، ووضع الإنسان، وأَنْسَنَةِ الإنسان، وتربية الإنسان. فإذا أحوجها إلى الكسب فساد البيئة والفقر والبؤس وانشطار العالم إلى جنوب مفقر وشمال متخم فهي ضحية فساد في العالم.

وإذا أحوجها إلى الكسب التوجس والخيفة من جور الرجل وشحه وتقلب أهوائه وتطليقه الجائر، فقد أخرجها من برجها الرجل المنحرف عن الدين المنحط

عن الأخلاق. والدين والأخلاق هما معيار التكافؤ، إذا اختلاَّ أو اختل أحدهما في الرجل أو المرأة اختل توازن الأسرة والمجتمع، وانفرط النسق، وطاشت كِفتها. والله لا يحب الظالمين.

خصص الإسلام لكل ذي حق حقه يؤدَّى إليه نصيبا مفروضا. كان سيدنا عبد الله بن عمرو يصوم النهار ويقوم الليل، فنصحه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: «**صم وأفطر، ونَم وقُم، فإن لجسدك عليك حقا، ولعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزَوْرك عليك حقا**». الحديث رواه الشيخان.

وزار سلمان أخاه الذي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبينه فرأى أم الدرداء متبذِّلة (غير متجملة). فشكت إليه زوجها أبا الدرداء قائلة: «أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا!». شكت إليه ضياع حقها من زوجها الذي كان يصوم النهار ويقوم الليل، شغلته العبادة عن إسعاد زوجه في حقوقها. فقومه أخوه سلمان بالوصية النبوية الناصحة بإعطاء كل ذي حق حقه. القصة رواها البخاري والترمذي عن أبي جحفة.

هذه صحابية تشكو زوجها في حقها الخاص. وهذا صحابي يقوم أخاه. كان لصبر الصحابية حدود ولعلم زوجها وفقهه حدود.

فإذا أطللنا على بيت النبوة حيث العلم وحيث الفضيلة وحيث القدوة، وجدنا متانة البيت الإسلامي، وتماسك الأسرة الإسلامية، وتآزر الزوج والزوجة، وصبرَهما على لأواء الحياة، في أجلى مظاهرها وأنصعها وأقواها.

روى الإمام أحمد في مسنده عن الإمام علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه سيدة النساء مولاتنا فاطمة رضي الله عنها جهزها بخميلة (غطاء من صوف) ووِسادة من أدَم حشوُها ليف (من جلد محشوٍّ بليف جريد النخل)، ورَحَيَيْن، وسِقاءً، وجرتين. هذا كل جَهاز بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحظها من الدنيا.

وَطحنت رضي الله عنها حتى مَجِلت يداها (أي انتفختا ونفِطتا). وجاء مال للنبي صلى الله عليه وسلم فبعثها علي لتطلب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يساعدها بخادمة تعينها. فاستحيت أن تفاتح أباها في الموضوع. فجاء علي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله! لقد سَنَوْتُ حتى شكوت صدري». سَنَوْت بمعنى جذبت الدّلو من البئر. وكان رضي الله عنه يعمل أجيرا في سنوِ الماء. عمِل مرة ليهودي بأجرةِ تمرة لكل دلو.

وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم حال اليدين الكريمتين اللتين مَجلتا من الطحن. فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهما شيئا ويتركَ أهل الصفة، وهم نحو ثلاثمائة من فقراء المسلمين لا مأوى لهم إلا المسجد. ثم جاء صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة، فإذا بها مع زوجها تحت قطيفة (غطاء) إذا غطت رأسيهما تكشفت أقدامهما. وعلمهما كما علمه جبريل أن يسبحا دُبُرَ كل صلاة عشرا، وأن يحمدا عشرا، وأن يكبرا عشرا. فإذا أويا إلى فراشهما سبحا ثلاثا وثلاثين وحمدا مثل ذلك، وكبرا أربعًا وثلاثين. طلبا متاع الأرض وعون الأرض فوجههما إلى السماء.

حقوق المرأة في الإسلام

مبدأ تقسيم الوظائف بين المتخصصين مبدأ فطري وعقلاني. أي معمل لا يطبق هذا المبدأ يغلق أبوابه سريعا لأن الإنتاجية تهبط، ويفقد المعمل فرصه في السوق. وأي مؤسسة لا تدرب متخصصين فنيين يمارسون مهنتهم بكفاءة وخبرة، وإداريين مهمتهم الإشراف، تكون مؤسسة بلهاء متخلفة سرعان ما تفلس.

لكن داعيات «تحرير المرأة» ودعاته ينكرون هذا المبدأ ويأبون إلا أن يكون للمرأة مثل ما للرجل كتِفا على كتف، تزاحمه هي في مجالاته إن كان هو لم تجهزه فطرته وخِلقته الجسدية النفسية ليزاحمها في مجال تخصصها الفطري. ينكرن مبدأ التخصص، وضرورة التكامل، وإمكانية حياة منسجمة على نمط غير النمط الصراعي بين الرجل والمرأة، ذلك الصراع الذي يؤول بالمرأة إلى أن تصبح بعد نضال مرير دمية معبودة مكدودة.

يُنكرن على العموم ما جاءت به الشريعة الإسلامية لأنهن لسن من الدين في شيء، وإن كانت المنافقات منهن يُعلِّمن حشودهن من المناضلات كيف يبدأن خطابهن بالبسملة، وكيف يصلين على النبي كلما ذكر اسمه. وربما تجدهن يوما بعد أن ترتفع قيمة الإسلام في السوق السياسية قد ارتدين عباءات وغَطَّين رؤوسهن ليطالبن بحقوق المرأة المسلمة في مقدمة التظاهرات الإسلامية. الدس من طبع المنافقين والمنافقات.

ينكرن على العموم ما جاءت به الشريعة، ويكرهن على الخصوص أن تكون للرجل «درجة». يجب محو هذه الكلمة من القرآن وإبطالها أَنْ طبقها الرجال تطبيقا تعسفيا. إن القافلة التي يقودها أمير السفر، ويحبسها، ويوقت مواعيد سفرها، قد يكون من المسافرين فيها علماء وفاضلات ممن لهم ولهن من جوانب التفوق ما ليس للأمير. لكن لا يستغني أحد عن الأمير لخبرته واستعداده.

إن إصلاح ما أفسده التطبيق، وما أهدره الرجل من حقوق المرأة، وما تخلت هي عنه من حقوقها جهلا منها بحقوقها أو نكوصا عن «المغالبة» والمطالبة، لا يمكن بتغيير ما هو ثابت من أحكام الشرع. الناس انحرفوا عن الشرع، فيجب أن يرجعوا هم إلى الاستقامة على الشرع، رَغَباً ورَهبا. رغَباً أساسا بتربية الناس وتتويبهم وتحبيب الدين إليهم. وهذا واجب الدعوة. وهذا واجب المؤمنات وحق بنات جنسهن عليهن الأول. بعد هذا الترغيب، والبعدية هنا اعتبارية، يأتي سلطان الحكومة يَحوط حديقة الإيمان التي غرستها وسقتها وتتعهدها الدعوة بسياج مَهيب من المنع والعقاب والجزاء والثواب.

إن الشريعة الإسلامية ليست منظومة قانونية تعاقدية تُفرض على الناس بمقتضى سلطة الحكم. لذلك فمهمة الدعوة والتربية دائمة. الدعوة وهداية الناس وتعليمهم والتأثير فيهم بالقدوة ونموذجية البيئة الإيمانية هي وحدها تقلب وِجهة الناس ليسلموا وجوههم لله متقيدين بأخلاق الإسلام، ناهضين بأعباء ما أوجبه الله، سباقين إلى إعطاء كل ذي حق حقه من العباد. أستغفر الله. إنما يهدي القلوبَ الرب الخالق سبحانه. وهداية التعليم والقدوة سبب لا بد منه.

وجود حقل تربوي تتلاقح فيه الأغراس، وتنعقد فيه ثمار خشية الله من أزهار الإيمان بالله. وجود فضاء صحي تستشفي فيه الأنفس المريضة. وجود بيئة سليمة تعم سلامتها الواردين، ويحمل السلامة من فَسَحاتها الصادرون. وجود مجالس الإيمان والذكر والقرآن والتوبة والخشوع، فيها يعقد المؤمن وتعقد المؤمنة مع ربها عز وجل عقدا أن تكون له أمة وأن يكون هو له عبدا. من هذا العقد تنبثق الحقوق والواجبات.

في أرضية الإيمان، وتربة الخشية من الله، وبمخصبات حبه وحب رسوله، وفي جو العطاء في سبيل الله الممطر، تُسْتنبت أغراس الطاعات.في هذه البيئة ووفاء للعقد مع الله يتولى المؤمن الفرد والمؤمنة قوامتهما على نفسيهما. يبادران إلى الطيب الصالح من قول وعمل، ويَعافان الخبيث. وما الطيب الحسن إلا ما حسنه الشرع، ولا القبيح إلا ما قبحه.

في البيئة الطيبة المثالية يندمج ما هو مُتنافر في عالم الناس، يجتمع ما هو مشتت. في العقلية التصْنيفية التي انتهت من الخوض في مسألة الإنسان ما هو بعد أن صنفته قردا، تجد الحقوق مفصولة عن الواجبات، والسياسة مفصولة عن الدين، والأخلاق أمرا خاصا لا مجال له في الشؤون العامة.

في الذهنية الرعَوية الموروثة في بلادنا عن قرون التخلف تجد مقاصد رسمها الشرع لكن لا طالب لها. تجد علما غزيرا مقلدا يحول بين الناس وبين مصدر الهدي من كتاب الله وسنة رسوله. تجد علما بلا إرادة. تجد إرادة بلا علم.

ويخيم على موقع المعركة بين الحق والباطل ظل الفاتكين يصيحون بدين العصر: الديمقراطية وحقوق الإنسان. حقوق المرأة، يوم المرأة، سنة المرأة، مؤتمرات المرأة، نضال المرأة. المرأة الأنثى. ولا تسألي عن معناكِ ومن أين جئتِ وإلى أين تذهبين.

جئتِ حقا وتذهبين! كلا بل جِيءَ بك ولم تستشاري، ويُذهب بك متى وأين وكيف لا تدرين.

والإسلام يناديك إلى الإيمان، ويخبركِ بالمعنى والمآل، ويبصركِ بحقوقكِ في الدنيا لتطلبيها وتجندي بنات جنسك المسلمات، وتجاهدي المارقين والمارقات.

ما على المرأة المسلمة جهاد في الساحات الدموية إلا أن يكون النفير العام عندما يطأ الأعداء الحمى. وهم في العصر الحاضر وطِئوه واحتلوه زمانا بجسومهم حتى باضوا وفرخوا. فالنفير عام لجهاد تتقدم فيه المؤمنات ولا يتأخرن. جهاد آلته العلم وسلاحه الحكمة، لا الخناجر. فإنما تقتل الخناجر أفراداً يخلفهم من الطغاة احتياطي صُنع هناك ويصنع.

إنه جهاد مزدوج: حقوقكِ التي كفلها الشرع تنتزعينها من تعسف الرجل، وتتقدمين في العلم لكيلا يحتكر هو الاجتهاد ويميلَ به إلى سوء استعمال «درجته». ثم واجباتك في صد العدوان على الدين مما يليك.

يُشكّكنَ المارقاتُ في الدين حين ينسبن إليه الحَيْفَ في نصيب المرأة في الميراث، وفي تشطير ديتها. ويشككن في الدين إذ جعل شهادة رجل واحِدٍ تساوي شهادة امرأتين. فلا بد لكِ أيتها المؤمنة من التزوُّد بآلة العلم ومن استعمال سلاح الحكمة لتشهدي بمواقفك الشجاعة أن الدين إن جعل شهادة المرأة الواحدة لا تقوم مقام شهادة الرجل فإنما ذلك لأن المرأة هي قطب الرحمة والحنان والسماحة، لا تحضر الخصومات، ولا تلتفت إلى مواطن المعارك الشخصية والنزاعات في الأسواق.

تشهدين بمواقفك الشجاعة، وبقيامك بواجب الجهاد، أن المعارك الأساسية المصيرية لم تغب عنها الصالحات من الصحابيات، بل كن في الجيش الاحتياطي مستعدات مشاركات، وكذلك أنت مما يليك من بنات جنسك الأميات القاعدات تعلمينهن وتجنديهن، ومن بنات جنسك المارقات تدحضين أطروحاتهن. أوْ يهدي الله من يشاء إلى صراط مستقيم.

لكِ ضمانٌ من الشريعة في حق كرامتك الإنسانية، وحقك في التصرف في أموالك، وحقك في العمل والكسب إن ألجأتك الضرورة. لكِ من الشريعة كل الحقوق اللازمة لأداء مهمتك الاجتماعية الأساسية. وما نقص أو زاد من أحكام خصت الرجل أو استثنت المرأة فإنما هو توزيع عمل، وتخصص. ليس ذلك مهانةً على الإسلام ولا إهانة منه.

العدل والإحسان

إن العروج الروحي الذي قوّى النموذجين فاطمة وعليا على تحمل الشدائد ومجل الأيدي وإصابة الصدر ليس في متناول العامة من الخلق. ذاك كان بيت النبوة وجب أن يتألق مثالا في سماء الفضائل. لا تذهبنّ الحرفيّةُ بالمؤمنات والمؤمنين إلى اعتقاد أن الحصير ووسادة الأدم والليف وشظف العيش هي السر في فلاح من أفلح. إذا كان القلب فارغا من التعلق بالله تعالى فإن تساوِيَ الرجل والمرأة في شدة المعاش كتساويهما في رخائه، لا الشدة في حد ذاتها ولا الرخاء في حد ذاته يجلب السعادة الأخروية.

الحياة الدنيا دار بلاء، يخفف وطأة البلاء تعاون المرأة والرجل المؤمنين على الصمود أمام الشدائد وعلى اقتحام العقبة بالعدل في الغُنْم والغُرم، وبالإحسان والبر والتسامح والإسعاف الحنون والمودة والرحمة. تشد المرأة عضُدَ الرجل وإن اقتضى الأمر تنازلها عن بعض حقوقها تكرما منها، ويعترف الرجل بفضلها فيسابقها إلى الإحسان.

إذا أنس الرجل الزوج أن المرأة الزوج ركن شديد يعتمد عليه، واطمأنت هي إلى أن رفيق الرحلة ثقة وحضن أمان فقد تأسست اللبنة الأم في البناء الاجتماعي. أهم من بناء المجتمع بناء معاد المرأة ومعاد الرجل في الآخرة. ذلك المعاد مادة بنائه العمل الصالح. يسبق على لسان بعض الكتبة الإسلاميين الحديثُ عن المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية والعدل الإسلامي الحديثَ عن مصيري أنا ومصيرك أنت ومعادي ومعادِك.

ما شأنِي بغيري واجتهادي لنشر الدعوة وجهادي لتأسيس الدولة الإسلامية إلا من حيثُ كون ذلك عملا صالحا أرجوه عند الله. ولي فوق ذلك رجاء أن أتقرب إليه سبحانه فيحبني ويرضى عني ويحشرني مع الذين أنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين.

هذا التعلق بالله ومداومة العمل الصالح الذي يقرب منه هو الإحسان في معناه الأول: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن الله تعالى أمر بالعدل والإحسان. فالذي كان يمسك البيت النموذجي والزوجين الفاضلين والمجتمع الأول ضوابط العدل والحقوق المؤداة، ثم الإحسان بهذا المعنى الأول للإحسان. قَلع المؤمنات والمؤمنين الإيمانُ والتطلعُ إلى مقامات الإحسان من أرض المشاحّة والمخاصمة على الحقوق. توَّج الإحسانُ العدلَ وتخلّله وسكن بين ضلوعه. فالمرأة الزوج تصبر عن بعض حقها إحسانا واحتسابا، والزوج الرجل يجتهِد ليوفيها حقها ويزيد خوفا من الله ورجاء في مثوبته وقربه.

إن كان العدل يُسوّي كفتين إحداهما تنظر إلى الأخرى على صعيد بشري، فالإحسان يرفع نظر الزوج وزوجه إلى الأعالي.

والناس متفاوتون في الاستعداد الإحساني، سرعان ما تنزل بهم هموم الحياة وشؤونها حين يعافسون الأزواج والأولاد والضياع من علياء التطلع الإحساني إلى واقعية المشاحّة اليومية. الأسعد منهم من يرجع ويتسامى ويبحث عن مذكر يذكره بالله كما فعل أبو بكر حين شكا إليه حنظلة سوء الحال الروحي.

يمسك قاعدة البناء في الأسرة المسلمة العدلُ. لكن العدلَ وحده بمثابة ميكانيك جاف تصطك أجزاؤه عند كل حركة إن لم تزيت الحدائد وتُلطّفْ. ملطف الحياة الزوجية الإحسان بعد العدل، الإحسان قبل العدل، الإحسان مع العدل.

ويتجسد الإحسان القلبي في مظهرين يسميان لغة وشرعا إحسانا. أحدهما البِرُّ والعطاء والسخاء والمواساة والإسعاف والعطف والحنان. والآخر إتقان العمل، كل عمل. إتقانه نيةً ليتقبله الله الذي إنما يتقبل من المتقين، وإتقانه إنجازاً وتنظيما ليحصل الأثر النفسي في العبادة الفردية والأثر السياسي الاقتصادي الاجتماعي

في العبادات الجهادية. هذا الإحسان الإتقاني يريد علوما كونية مستندة إلى العلم بالله والعلم بشريعة الله وإلا كان كبعض أعمال البشر الكافرين، الدنيا مولِده ومقبرته.

أعطى الله سبحانه الرجل زوجا وإماما الدرجة على المرأة. وأمره كما أمرها بالعدل والإحسان. فالرجل المتعسف الناقص مرتبة في سلم الإسلام، والمرأة الناقصة، يزَعهما غيرهما بوازع العدل. ومتى انحطت العلاقة الزوجية والعلاقة الكلية بين الرجال والنساء إلى التحاكم للغير، وإدخال القضاء والمماحكة والمرافعة، فقد اختل البناء.

المرأة في حضن الإسلام تُكرَم، ولا يهينها إلا لئيم ناقص. تُعامَل بالإحسان. إحسان الرجل الروحيُّ يفيض عليها رِفقا وعطفا ومحبة وودا. وهي تتكرم فتصبر وتتحمل وتكافئ الإحسان بإحسان.

الإحسان بواعث تسمو بالهمة، وخير يبذل، ووضع للأمور مواضعها حكمة وإتقانا ومداراة وسياسة يكنفها الصدق.

من يعنُفُ على المرأة إلا رجل عارٍ عن المروءة ناقص في الدين؟ نقرأ رفق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء في كلمته لأنجَشَة حين حدا أنْجَشَةُ بإبلٍ تحملهن، فأسرعت الإبل، فأشفق عليهن الرسول الرؤوف الرحيم وقال لأنجشة هذه الكلمة الرقيقة: «**رفقا بالقوارير!**».

حاط الشرع المرأة وكرمها صبية في حجر حنان الوالدين، وأوصى بها زوجا وصية مؤكدة، وحث على برها والدة حثا آكدَ.

كان ميلاد البنت في الأسرة الجاهلية مصيبة. فحبب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المجتمع الذي كان تحت التربية الرفق بالبنات حين قال: «**من ابتُلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سِتْرا من النار**». رواه الشيخان عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

ورغّب في إعالتهن ترغيبا أعلى فقال: «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو**». وضم أصابعه. رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه.

وأفصح عن وعده فقال: «**من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان، فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة**». رواه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أما المرأة زوجة فقد أوصى بها الله ورسوله وصية خاصة. في مقدمة الوصية قوله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾.[1]

وردت كلمة «إحسان» في الأحاديث السابقة. وفي هذه الآية كلمة «معروف». المعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، كما قال أئمة اللغة.

وتلد المرأة وتكبر ويضعف جسمها في بلاد الحريات والمساواة وحقوق المرأة والأنانية الدوابية فترمى في ملجإِ العجائز، ويُرمى الرجل. شبحان يُزجيان آخر عمرهما في معمل جماعي للتمويت.

وفي المجتمع المسلم السوي المتوج عدله بالإحسان يخِفُّ الشرع لنجدة الأم والأب لئلا تبطش بِهما أنانية المجتمع وعقوق البنات والبنين. ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيما وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾.[2]

ويخص الشرع الأم أحوج ما تكون الأم إلى تخصيص، فيرشد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم رجلاً جاء يسأله من أحق الناس بحسن صحابته؟ يقول صلى الله عليه وسلم: «**أمك**». قال الرجل: ثم مَن؟ قال: «**أمك**». قال الرجل: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال الرجل: ثم من؟ قال: «**أبوك**». كم بين هذا وبين أنانية مجتمع الرجال الواقع!

(1) سورة النساء، 19.
(2) سورة الإسراء، 23-24.

لا تزال والحمد لله في بلاد المسلمين مُسكة صالحة من دين تحول –في الطبقات الشعبية خاصة– دون التفريط في حق الوالدين. وهي مزية وأساس لا يستهان به.

ولا تزال تتردد في الذاكرة الشعبية صور نساء محسنات شيدن المساجد ومدارس العلم والمستشفيات ودور الأيتام. إنه إحسان عطاء ورقة وشفقة على الضعيف تجده عند المسلمة والكافرة، كما تجد من المنظمات غير الحكومية في بلاد الغرب ما ينم عن المروءة المشتركة بين البشر. مروءة وإحسان ينبغي أن نفتح لهما أذرعنا لنساهم نحن في العطاء لا لنتلقى إلى الأبد إسعافات غيرنا في براري الصومال وفيضانات بنجلادش.

هذا الاستعداد الفطري عند المرأة للإحسان والعطف ورعاية الضعيف والمحروم ينبغي أن يتوج في المجتمع الإسلامي بالإحسان الروحي لكي يسد هذا الإحسان الفردي والمنظم ثغرات لا يسدها عدل الدولة البعيد عن ساحة البلاء، الـمُجَرَّد لعمومه وبعده عن المشاعر الإنسانية التي تئن لأنين المريض وتقاسم الآلام مع البائس في المكان والزمان والأزمات العينية والضرورات الطارئة.

فلانة الجارة، وفلان القريب، وأولئك هنا بأسمائهم وأعيانهم ومشاكلهم وحالاتهم وحاجاتهم. هذه مهمات ليس لها إلا إحسان المؤمنات، يجندن الطاقات، ويبذلن ما لديهن ابتغاء رضوان الله، ويجمعن الاكتتابات، ويطرقن الأبواب، ويُعطِّفن القلوب.

أقرب الناس وأولاهم بإحسان المرأة زوجها لا تكلفه ما لا يطيق، ثم يفيض خيرها. روى الشيخان عن زينب امرأة ابن مسعود رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تصدقْن يا معشر النساء ولو من حُلِيِّكن**». فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتجزئ الصدقة على الأزواج واليتامى القريبين؟ فأخبرها صلى الله عليه وسلم أن في ذلك أجرين: أجر القرابة وأجر الصدقة.

وتتصدق المرأة من بيت زوجها عن سَعَة لا عن تكليفه ما لا يطيق، فيكون لها ذلك ولزوجها خيرا مُدّخرا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها، غير مُفسدة، فلها أجرها بما أنفقت، وللزوج بما اكتسب، وللخازن مثل ذلك. لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئا**». أخرجه الشيخان وأبو داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

ولكيلا يدخل الشيطان بين الزوج وزوجه في عطاء يتجاوز ما تسمح به النفس عادة -ونفوس الرجال والنساء درجات- نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة أن تعطي من مال زوجها إلا برضاه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها**». رواه أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو. والسعيدة الأسعد من وُقيت وزوجها شح النفس، وعاهة البخل، وجُذام الأنانية.

الحياة الطيبة

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.[1]

تسوية بين الذكر والأنثى في جزاء الأعمال بشرط الإيمان. أعلاهما إيمانا أصلحهما عملا. وإنما يتقبل الله من المتقين.

بأي سعادة تبشر هذه الآية؟ ماذا ينتظر المؤمنون والمؤمنات من إيمانهم بالله وبجزاء الآخرة ومن أعمالهم؟ بعض الناس يتشوقون للحكم الإسلامي منتظرين أن يجيئهم الحكم الإسلامي بالسعادة العاجلة، بحل المشاكل، وتوفير الراحة والرخاء. وبعض الناطقين باسم الإسلام والكاتبين يعدون الناس في الحملات الانتخابية بأن الإسلام حل لكل المشاكل وكأن الإسلام تعويذة سحرية، وكأن التفاف الناس حول المشروع الإسلامي، وتوكيلهم غيرَهم، وتصويتهم في صناديق الاقتراع على الأفاضل المتدينين يعفي الجميع من بذل الجهد واقتحام العقبة وشق الطريق بصبر وطول نَفس، وانتظار النتائج بعد بلوغ الوُسع في العطاء من العَرق والاجتهاد والمشقة.

هذا وجه الإقبال على الإسلام رجاء عطاء الإسلام. وللمقبلين من هذا الوجه العذر ماداموا لم يُبصَّروا بأن الالتفاف حول الدعوة الإسلامية إنما برهان صدقه البذل والعطاء وتحمل المشاق والصبر وشد الحزام.

الوجه الآخر هو الذي يعرض منه الزاهدون في الدنيا عن جهاد بنات الدنيا وأبنائها. أناس يحسبون أن الإيمان والعمل الصالح يقتصر على صلواتك ونسكك وتلاوتك وذكرك، ومع ذلك عافية الابتعاد عن ساحة البلاء والفتنة.

(1) سورة النحل، 97.

في هذا الفصل الذي عرضنا فيه التصور الدوابي للسعادة والسعي الإيماني الإحساني للسعادة نريد أن نختم بالتمييز بين سعادة المجاهدين المحسنين، وبين سعادة عامة المسلمين. المحسنون ينتظرون جزاءهم في الآخرة من فضل ربهم صابرين في السراء والضراء. والمسلمون إن لم يضمن لهم الإسلام سعادة الخبز والرخاء فما هم معك إلا ريثما يتلقون منك ما وعدتَ تصريحا أو ضمنا، وإلا فهم منفضون من حولك.

يستجيب الرجل وتستجيب المرأة للدعوة حماسا يسوق، أو توبةَ ساعة تُنسى، أو انتماء سياسيا لجماعة إسلامية قوية. هذا الصنف ينتظر من الدعوة أن تعطيه، وربما يُمْضِي عُمره في كنف الدعوة لا يعطي، أو لا يقدر على عطاء، أو لم يشترط عليه أحد عطاء من أول قدم يضعها في الدعوة.

كما ينقسم المؤمنون الذين يعملون الصالحات إلى ذكران وإناث، وعد الله الذكران والإناث منهم بالحياة الطيبة، كذلك ينقسم المؤمنون والمؤمنات إلى صفوة إحسانية هي حاملة اللواء الصابرة على البلوى، وإلى عامة من اللاحقين. صفوة تعلقت همتها بالله والدار الآخرة فالدنيا عندها امتحان إثر امتحان، على هذا الأساس تعمل. وآخرون نصيبهم من الدنيا يشغل همه الحيز الأكبر في نفوسهم.

لكل من هؤلاء جزاء وحياة طيبة موعودة هنا وفي الآخرة ما عملوا صالحا. ما أحسنوا إحسان من يعبد الله كأنه يراه، وإحسان من يتقن عمله، وإحسان من غلب أنانيته وَوُقي شح نفسه. وعلى قدر نزول المجموع عن مرتبة الإحسان، بكل معاني الإحسان، يقل الجزاء هنا للمجموع، وإن كان كل فرد ذكر أو أنثى لا يضيع عمله في الآخرة، يُعطى جزاءه على قدر إحسانه هو، لا على قدر المجموع الذي عايشهُ في الدنيا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله لا يظلـمُ مؤمنـًا حسنة. يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة. وأما الكافر فيُطعم بحسناتِ ما عمل بها لله في**

الدنيا، حتى إذا أفضَى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها». أخرجه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وهذا مِصداقُ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.[1]

إنه لا يُطْلَب من كل الناس أن يتخطَّوْا نصيبهم من الدنيا يرْضَوْن منها بالبُلغة. فلا يحب بعض الناس الإسلام وحكم الإسلام إلا إن ألّف قلوبهم بالعطاء. ولا يستغني حتى المؤمنون الصادقون المجاهدون عن حد أدنى من الرخاء خاصة في مجتمع الاستهلاك والتكاثر.

لكن في الظروف الاستثنائية، كما هي ظروف الأمة في زمننا، وعندما يكون الاختيار أمام الأمة بين أمرين: إما الجهاد على الواجهات وإما الموت، عندئذ يكون على الصفوة الطليعة أن يبرهنوا عملا لا مجرد قول عن انسلاخهم عن الأنانية والشح وعيش الدنيا.

في غزوة الخندق أحاطت جيوش قريش وحلفائها بالمدينة، واشتد الهول، والتفت الصفوة من المهاجرين والأنصار حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحفِر هو ويضرب الصخر بمعوله، ويحفرون معه الخندق ليدافعوا عن حوزة الإسلام. كانوا في غاية التعب، كانت عيشتهم في الدنيا مهددة. لكن إيمانهم القوي وإحسانهم عبر عنه نشيدهم الذي كانوا ينشدون:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

فيجيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**». روى البخاري عن أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يُؤْتَوْن بِمِلْءِ الكف من

(1) سورة الأحقاف، 19.

الشعير، فيصنع لهم بإِهالةٍ سنِخة (بإدام من زيت أو سمن قديم متعفن)، توضع بين يدي القوم، والقومُ جياع، وهي بَشِعَة في الحلق، ولها ريح منتن.

كنا في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رأينا قضيته مع نسائه حين سألنه توسعة لا يريدها، وكنا في بيت فاطمة رضي الله عنها رأينا كيف كان زوجها الإمام يسنو حتى شكا صدره، وكيف مَجِلتْ يداها من أثر الطحن بالرحى. وهؤلاء صحابة في جهاد وفقر وجوع وطُعمة «بشِعة في الحلق ولها ريح منتن».

من لا يدخلْ في الدعوة من باب التوبة النصوح، ومن لا يذكر الله ويعبد الله حتى يحصل له اليقين بالآخرة، ومن لا يتقربْ إلى الله حتى يحبه الله فيرفع همته إلى طلب وجهه الكريم، كيف يثبت معك في مواقف الابتلاء؟ كيف تثبت من لا تفعل؟

نستأنس هنا بقصة تروى عن السلف الصالح. قصة رمزية تصور نفسية المتوكل على الله، الباذل جهده في سبيل الله، ونفسية المتواكل القاعد المنتظر أن يأتيه رزق الضعفاء من غيره.

الفُضيل بن عياض العالم الزاهد القدوة إمام الحجاز شيخ الإسلام في القرن الثاني من الهجرة، كان له صديق عابد. قرر العابد يوما أن يخرج في تجارة من بلده، وودع الإمام. لكنه لم يلبث أن عاد للبلد. سأله الفضيل ما القصة؟ قال: بينما كنت في الطريق أبصرت قُبَّرَة (طائرا صغيرا) عمياءَ. فسألت نفسي كيف تعيش هذه ومِم تقتات؟ ثم إذا بقبَّرة مبصرة تأتيها بطعام تضعه في فمها. قال العابد المؤمن: فعلمت أن الله تعالى يرزق من يشاء كما يشاء. ورجعت مقتنعا بأن رزقي يأتيني بتجارة وبدون تجارة.

جميل بالمؤمنين أن تكون عقيدتهم بأن الله هو الرزاق راسخة. بل لا إيمان لمن لم يعتقد ذلك. لكن من يؤمن بهذا ويكفر بالأسباب التي وضعها الله في الكون إنما هو قبرة، إن لم تكن عمياء فهي عوراء. وقد فسر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن التوكل على الله حق التوكل أن نفعل كما تفعل الطير

الحازمة العازمة: تغدو في طلب رزقها. تبكر وتسبق طلوع الشمس إلى النشاط والسعي والبحث.

فماذا قال الفضيل؟ وكان الفضيل رحمه الله من أئمة الزهاد.

قال للعابد: يا أخي، الأمر كما تقول، لكن كيف ترضى أن تكون مثل القبرة العمياء التي يسعى إليها برزقها غيرها، ولا تسمو بك همة لتكون أنت القبرة المبصرة التي تسعى لنفسها ولغيرها. كيف ترضى بمرتبة الضعفاء ولك قدرة على الكسب؟

تلك قصة أعدنا صياغتها لضرب المثل لفريقين من المسلمين: فريق متحمس للحكم الإسلامي ينتظر من الحكم الإسلامي أن يأتيه برزقه باردا ناعما سعيدا. وفريق هم القلة والصفوة قرأوا السيرة النبوية وقرأوا بعدُ في كتاب سنة الله في التاريخ مَلامح الـمَسْبعة الرأسمالية الرهيبة التي يعيش العالم تحت وطئتها في زمننا.

قبراتٍ عمياواتٍ تردن معشر المؤمنات، أم غادياتٍ ساعياتٍ على أنفسهن وعلى أمتهن؟ نعرض إن شاء الله لعمل المرأة خارج بيتها وللضرورة التي تدفعها للكسب. عمياء صماء من غَمّت آفاقها الأنانية والأثرة وحب الذات. يبني غيرُها معادهن بالبذل هنا، ويتراكم في أدراجها وصناديقها المتاع الزائل. عجب رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصارية والأنصاري الذين أطعما الضيف عَشاء صبيتهما وأطفآ المصباح ليظن الضيف أنهما يؤاكلانه، ليشبع هو ولا ينقُصا بمؤاكلته من الطعام القليل، وقال: «**لقد عجب الله عز وجل -أو ضحك- من فلان وفلانة**». رواه البخاري.

عجَبٌ من امرأة وزوجها يَجُوعان ويُجوِّعان الصبية لِيَطْعَم الضيف، ثم لا يكتفيان بهذا الإيثار العجيب حتى يحتالا على الضيف. احتالا لآخرتهما فعجب ربنا من فلان وفلانة.

زهد هذا، وإحسان هذا، وبذل هذا، وقتل للأنانية والشح هذا!

السُّدة الإحسانية العالية لمن ينفق من كسبه، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة كما مدح الله في القرآن الكريم فلانا وفلانة وسائر الأنصار رضي الله عنهم.

الفضيل الإمام كان قدوة الزهاد في زمنه. قال له هارون الرشيد العباسي متعجبا: ما أزهدك! قال الفضيل: أنت أزهد مني، لأني زهدت في الدنيا الفانية، وأنت زهدت في الآخرة الباقية. وقال له: يا حسَنَ الوجه! أنت الذي أمْرُ هذه الأمة بيدك وفي عنقك. لقد تقلدت أمرا عظيما! بَكَى الرشيد وأعطى العلماء الحاضرين عشرة آلاف درهم لكل واحد. وامتنع الفضيل عن أخذ عطاء الملك. سأله العالم الكبير سفيان بن عُيَيْنة قائلا: أخطأت! لو صرفتها في أبواب البر! قال الفضيل: «أنت فقيه البلد وتغلَط هذا الغلط! لو طابت لأولئك طابت لي».

إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا. وإنما يتقبل الله من المتقين.

الفصل الرابع

الإيمان بالله وباليوم الآخر

- عقل يتفرعن ونفس هلوع
- تكريم وبلاء
- الإيمان بالله تعالى
- الوحي والنبوة
- العقيدة
- لعب الدنيا
- الاعتصام
- علماء الآخرة
- درجات الآخرة
- إرادة وجه الله

عقل يتفرعن ونفس هلوع

ألقينا نظرة في الفصل الأول من هذا الكتاب على المجتمع الإسلامي وسودنا المداد لنُبْرِز الأدواء الكامنة فينا والظاهرة، ولنخلُص في آخر العرض إلى أن العامل الذاتي حاسم في المعادلة بيننا وبين أعدائنا الخارجيين متى نقينا ذاتنا من الطفيليات التقليدية ومن الجراثيم الواردة علينا حديثا. وأبرزنا أهمية الوعد النبوي في حديث الخلافة على منهاج النبوة الثانية، وأهمية الباعث الإيماني الإحساني.

وفي الفصل الثاني ألقينا نظرة على العالم الذي نعيش فيه المليء بالحقد الصليبي والنيات الاستعمارية والفتك الرأسمالي. وخلصنا إلى أن الجاهلية المحيطة بنا لوثت وتلوث كياننا، وأن وصم المجتمعات المسلمة بأنها جاهلية يحيلنا إما على اليأس أو على العنف، وأن مفهوم «الفتنة» بمعنييه هو الصفة اللائقة الدقيقة، وأن الرفق هو المنهاج الصالح للتغيير، وأن رِفق التدرج يصحبه اجتهاد مجدد هو الباب الـمُشرَع نحو الفلاح، لا الاستعجال وفُقدان الصبر.

وفي الفصل الثالث استعرضنا إغراءات عالم اللذة والاستهلاك والإباحية، ذلك العالم الذي تجد المؤمنات التائبات فيه أنفسهن غريبات لا يدركن أن السعادة يجدنها في حضن الإسلام لو لم يخيم على أذهان المؤمنات نداء الدعوة المتشددة الملتفعة بشعار تحريم كل شيء، وكأن الدنيا دَار عذاب لا دار ابتلاء وامتحان. يسر الله على المؤمنات والمؤمنين امتحان الدنيا بما جعل من حلال بديلا لما حرم، وبما فَسَح في ديننا من مجالات لتنال المؤمنات وينال المؤمنون نصيبهم من متاع الدنيا. وختمنا الفصل الثالث بذكر القبرة العمياء.

من هذا الفصل فصاعدا نتحدث إن شاء الله عن بناء الشخصية المؤمنة ابتداء من خصوصية الاعتقاد، فالفرائض العبادية، فطلب الكمال. ثم نعرض إن شاء الله لأحوال المؤمنات في بيوتهن زوجات وأمهات، وأحوال بلائهن

عاملات خارج البيت، وحقوقهن في التعلم، وواجبهن الجهادي، ومكانهن الذي لا يضاهى ولا يعوض ولا يقارب في تنشئة الأجيال الصالحة وصناعة مستقبل الأمة.

على مدرجتهن تجد المؤمنات قُبّرات عمياوات مصابات بشتى أنواع العمى، وبدرجات من غَشاوَة البصيرة، وأصناف من غَشاوة الفكر، وطبقات من ركام الجهل بالإسلام أو الأحكام المسبقة المخطئة عن الإسلام، أو العِداء السافر للإسلام.

لهذه القبرات لا تُعرض ابتداء عموميات ذكرناها في الفصول السابقة، وإنما يطرح عليهن بالأسلوب المناسب والصيغة اللائقة سؤال يهز أعماق من فيهن بقية حياة، واستعداد لحياة، ونبض من حياة. ومن لا يهزها هذا السؤال المطروح عليها محاضرةً كاملة، أوحديثا وديا، أو حوارا لطيفا، أو تلميحا متكررا، أو مجرد إحضار في محافل الخير، فتلك شبح هائم وجثة فارقتها الحياة ولو كانت كاتبة شاعرة مؤلفة دكتورة. لا يُضع المؤمنات جهدهن ووقتهن في خطاب الصم البكم الذين لا يعقلون.

ما أنتِ في حقل الإنسانية؟ شوكة أنتِ أم زهرة واعدة؟ أم نبتة حائرة أنت؟ من أين جئت وإلى أيْنَ؟ ما الحياة وما الموت؟ وماذا بعد الموت؟

من هذا السؤال تبدأ الدعوة. فمن كانت تائهة في الغفْلة، قانعة بإسلام موروث يكتنفه الجهل بالدين، يأتيها السؤال من قِبَل الرفق والتذكير والتودد والموعظة. ولا حاجة ولا فائدة من النقاش الفكري والجدل العقلي. لا فائدة مع هذا الصنف ولا حاجة إلى التفلسف. غَبَرة من الغفلة تنفض، وركام من رَيْن المعاصي السالفة والغفلات الفارطة، نتوب جميعا من ذلك وإذا نحن على الفطرة والسلامة الأصلية.

أما الصنف الثاني ممن تحاورهن المؤمنات فهو صنف المعاندات عن جهل، سجينات الثقافة العقلانية المادية. تحتاج المؤمنات معهن إلى جلسات للحوار

بالحجة العقلية، ممزوجة بالسؤال الوجودي مَن أنت في هذه الدنيا، ملطفة بالود والتحبب والإكرام.

وأما المعاندات عن كفر، والمندسات بنفاق، فالمؤمنات لهن الدليل في قوله تعالى مخاطبا نبيه ومخاطبا إيانا: ﴿وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُون وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[1]

للمؤمنات والمؤمنين في هذه الآيات النيرة دليل عمل ودليل حجة. لأن من ظلم نفسه وأوغل في الكفر والنفاق يطبع الله على قلبه فلا يَسمع الموعظة سمع القلب، ولا يبْصر آيات الله إبصار القلب، ولا تجدي معه المحاجة العقلية.

المؤمنات بحاجة للتسلح بالحجة العقلية ليدفعن بها عن الغافلات الجاهلات شبه المشككين والمشككات. وهن بحاجة إلى الرفق والعاطفة والموعظة الحسنة. والناس أصناف.

العقل المعاشي المشترك بين الكافرين والمؤمنين يسيطر بمنجزاته العلومية الصناعية. فلهذا العقل صولة في العالم وحضور ماثل تجسده الاختراعات والمصنوعات والصواريخ. يملأ ذلك أعين الناس وآذانهم، ويسكن هواجسهم.

عقلانية علومية تنظيمية هي في حوزة غيرنا. تتقمصها العقلانية الفلسفية وتحتج بها لتُؤكد للإنسان أنه إنسان لأنه يفكر، ويخترع، ويصنع.

لا مكان في بلاد العقلانية الفلسفية لطرح سؤال المعنى والوجود والغاية. لأن الضجيج الذي أحدثته العقلانية الأخرى يغطي على همس الفطرة ويسكت صوتها ويُنسي سؤالها.

(1) سورة يونس، 40-44.

عجزت العقلانية العلومية الاختراعية التصنيعية التنظيمية عن إدارة نتائج ما صنعت يدها. في بلاد التكنولوجيا المتطورة الاوتوماتيكية الروبوطية اختصار للعمل، واقتصاد في الوقت، وتسريع للإنتاج السوقي تغرق به متاجر من يدفعون ولا ينتجون. ومع التقدم المهول للعقلانية العلومية المصنِّعة يختفي الداء العُضال، والعمَى والصمم عن الحق. لا يعرف هذا العقل العلومي المادي الله، ولا يريد أن يعرف، ولا وقت لديه ليسمع من يضع عليه سؤال الفطرة.

إنه مشتغل بالأمراض الاجتماعية البيئية الاقتصادية السياسية التي أوقع فيها العالم، لا يجد لها حلا. الصناعة تلوث البيئة. هذا هو المشكل. الروبوطية تسبب البِطالة. هذا هو المشكل. ونسي وتناسى مشكل وجوده، من أين وإلى أين؟

هذه العقلانية المتفَرعنة بإنجازاتها تقول بلسان حالها وفلسفتها الضمنية ووجودها الثقيل المالئ للآفاق: أنا الله كما قال فرعون: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.[1] وما هي في الحقيقة إلا مظهر وآلة للهوى يتصرف بها في العالم بنزغ الشيطان ونزوات النفوس الجاهلية.

هذه العقلانية المعاشية آلة نطلبها، يجب أن نطلبها، بجهاد تشترك فيه المؤمنات. جهاد لامتلاكها وتكييفها وصياغتها صياغة تخدم الحق لا الباطل، العدل لا الظلم، الإحسان إلى الإنسان لا تردية الإنسان.

النفوس الجاهلية المتمردة على الله الماسكة بسلاح العقلانية واهية هلوع حائرة. طلقت الدين فأدبر عنها مع الدين الأخلاق والرحمة. طردت الدين وصمت عن السؤال الفطري، وعميت عن تدبر آيات الله في الكون، فهي سابحةٌ في صحبة الهوى والشيطان، متقلبةٌ في رغباتها الاستهلاكية الـمُنوّعة المجددة، غاطسة في أوحال الرذيلة الشهوانية، مرتدةٌ إلى الشعوذة الشيطانية، والأوهام الصبيانية تملأ بها فراغا كان يشغله الإيمان بالله.

(1) سورة القصص، 38.

المديرون الكبار في الشركات عابرة القارات، ورؤساء الدول منهم ومن بني جلدتنا، وكبراء القوم، يذهبون إلى المنجم والعرافة في باريس ونيويورك وهامبورغ ليختار لهم المنجم وتحدد لهم العرافة الوقت السعيد لعقد صفقة، أو دخول انتخابات، أو شراء سنَدات في البورصة، أو افتتاح معمل.

نفوس متفلتة يحركها الهَلَعُ، منزلقة يؤثر فيها تصريح وزير، ويهزها الجزع من حادثة في أقصى الأرض، فتهبط قِيَم السندات، وتنهار إمبراطوريات رأسمالية، وتُفلس أبناك، وتنشب حروب اقتصادية.

أو يأتي زعيم جديد ينفخُ في الوعود الانتخابية فتنتفض الأموال، وترتفع أو تنخفض أسعار الفائدة الربوية، ويتجدد أمل في ارتفاع مستوى المعيشة وفي انخفاض أرقام البطالة.

يقول الله تبارك وتعالى، وهو أعلم بما خلق، يصف لنا الإنسان في حالة تمرده على الله وحالة رجوعه إليه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُوم لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.[2]

في هذه الآيات الكريمة استُثني المؤمنون ونُزهوا من الهلع الإنساني بشروط ترسم معالم مسيرة العقل إلى التحرر من قبضة الهوى، ومسيرة النفس إلى التحرر من الهلع والجشع وجاذبية أرض الغرائز الحيوانية والأنانية الدوابيّة.

إذا آمن الإنسان بالله وأسلم وجهه إليه ووفّى بالشروط التحريرية أكرمه الله فأزال الغشاوة عن بصره القلبي، والوَقر عن أذنه التي تسمع الحق فتؤديه غير

(2) سورة المعارج، الآيات: 19-35.

مشوب بطفيليات هوس العالم. وأكرمهُ سبحانه بالعقل القلبي الذي يتفكر في خلق الله، ويتدبر في حكمة الله، ويتعجب من حسن صنع الله، ويعقل عن الله. ويطيع الله بعد ذلك لا يطيع الهوى ولا يستزله الشيطان.

يكرم الله المؤمنين به والمؤمنات بنور العقل القلبي فيفقه عن الله ما يخاطبه به في آياته المنزلة في القرآن، ويعقل عن الله ما يخاطبه به من الآيات المخلوقة في كونه الجسمي والنفسي، وفي الكون الخارجي عنه من أرض، وشمس، وقمر، وكواكب، وإنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، ونظام بديع. يفقه ويعقل خطاب الله له المزدوج يدعوه لينظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وفي فعل الله بالناس حين خلقهم من نطفة ثم من علقة ثم أطوارا إلى أن خرجوا من ظلمات الأحشاء إلى عالم البلاء. وكيف يعمرهم عمرا طويلا أو قصيرا، وينكُسُهم في الخَلق حين يبلغون الكبر. كل ذلك ليتذكر الإنسان المتحرر من ربقة الهوى والهلع أن له أجلا وموعدا مع الله في الدار الآخرة.

تكريم وبلاء

ألقى الله سبحانه على العقل الإنساني مسؤولية الاختيار بين الكفر والإيمان، بين الضلالة والهدى. أخبرنا بذلك في مثل قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.[1] وأخبرنا سبحانه أنه لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون. وجعل سبحانه من شرائط الإيمان الإيمانَ بالقدر خيره وشره. وأخبرنا في قرآنه على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام أن الله خلقنا وخلق أعمالنا.

يجد العقل نفسه أمام امتحان عسير ليجمع بين ما يبدو من متناقضات في العقيدة، لأن المسؤولية تقتضي حرية. ويسأل العقل في امتحانه وبلائه: إذا كان عملي مخلوقا من لدنه مقدرا فما مكان مسؤوليتي؟

خلق سبحانه في الكون ما هو ملائم للفطرة الإنسانية ومنطق العقل الإنساني مثل الخصب والصحة والرخاء والأمن والعافية. وخلق ما يصدم منطق العقل وما يثير اعتراضه وحيرته مثل الجدْب، وقلة الأرزاق، ومرض الطفل، وبؤس البائسين إلى جانب ترف المترفين، والحروب بين البشر، والكوارث والصواعق. يحار العقل بين الإيمان الذي يجد دليله البدهي مغروزا في فطرته، وهو حاجة هذا الكون المنظم إلى صانع، وبين متناقضات الكون.

مما يجده العقل في بدهياته، وتجده الفطرة مغروزا في أعماقها موازين الخير والشر. يضع العقل أحداث الكون المتناقضة في ميزان ما يُقَبِّحه هو وما يستحسنه فيجد أن في العالم ظلما وألما وشرا، ويسمع من الرسُل عليهم السلام خبرا غيبيا أن هنالك شياطين من الجن يلعبون بالإنس.

لم كل هذا الشر؟

(1) سورة يونس، 108.

ليس في متناول العقل الإنساني مفتاح ألغاز الكون والتاريخ ما دام منغلقا عن الوحي، وما دام أفق تأمله لا يتجاوز الدنيا وشهادة ما يرى وما يسمع وما يدرك بالمنطق والتجربة، وما تصل الحواس إليه مباشرة أو بواسطة المجهر والتلسكوب. فإذا انفتح العقل على الوحي وسمِع خبر الآخرة وصدق وأيقن، عندئذ تجتمع أمام باصرته معطيات الخلق، وتكتمل لميزانه الصنوج الضرورية لوزن المتناقضات، ووضع المسؤولية والحرية مكانهما. ومن وراء كل ذلك حكمة الله التي استأثر سبحانه بعلمها وتدبيرها.

العقل الإنساني في امتحان ما بين خروجه إلى الدنيا وانصرافه عنها. بل ما بين إخراج الله إياه إليها وأخذه إياه منها. من تفرعُن العقل الغافل أن ينسب لنفسه ما هو مُكْره عليه.

العقل الإنساني الفرد في امتحان وابتلاء وفتنة. الإنسان في هذه الدنيا ما بيْنَ ملائم يعده خيرا وما بين صادم كريه يعده شرا. والخير خير الآخرة لمن نجح في الامتحان، وسبقت له من الله سابقة الحسنى.

والأمم في مجموعها في امتحان وبلاء، يداول الله الأيام بين الناس، وتضطرب أقطار الأرض بتدافع الأمم وتقاتلها. سعادتها وشقاؤها رهن بنجاحها في الامتحان.

قانون ابتلاء الأمم وناموسُه وسنته نقرأها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[1]

(1) سورة الأنعام، الآيات: 43-46.

ويقص الحق سبحانه علينا خبر الأمم التي عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبها هنا في الدنيا حسابا عسيرا وعذبها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها. وكان عاقبة أمرها خسرا.

تُعلَن نتيجة امتحان الأمم هنا في الدنيا فتنال جزاءها، وتعذب على قدر انحرافها عن دين الله وعتوها وإفسادها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[2]

أما امتحان الأفراد، فإن كانت أسئلته توضع على المرأة والرجل كل يوم، فإن النتائج لا تظهر إلا في الآخرة. فشقي في النار وشقية، وسعيد في الجنة وسعيدة.

أهلك الله سبحانه قوم نوح وعذبهم في الدنيا بالطوفان لما كفروا وأعرضوا. وفتح على عاد قَومِ هود أبواب الرخاء فبنوا وشيدوا، واتخذوا مصانع لعلهم يخلدون، وبطشوا بمن حولهم من الأمم. حتى إذا فرحوا بما أوتوا وَفقا لقانون الله وسنته في بلاء الأمم أرسل عليهم سبحانه ريحا صرصرا في يوم نَحس مستمر.

وفتح سبحانه على ثَمودَ قومِ صالح جنات وعيونا وزروعا ومقاما كريما ومساكن فارهة منحوتة في الجبل لا يزال المسافر من الأردن إلى الجزيرة العربية يمر عليها ليعتبر المعتبر. وفتنهم الله مع ما فتح عليهم من خيرات ملائمة محببة للنفس بدعوة صالح عليه السلام وناقة الله وسقياها، فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم، فأرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر.

وهكذا فعل سبحانه ويفعل بالقرى الظالمِ أهلها وبالحضارات المتمردة عليه المكذبة لرسله.

كنا في الفقرة السابقة نتحدث عن العقل المتفرعن التائه بمنجزاته وعلومه وقوته. تلك كانت نظرة من جانب واحد. نكمل تلك النظرة الكاشفة عن الظواهر بنظرة الاعتبار التي تعطي للتاريخ وما يجري في الكون معنى، كما تعطي للإنسان وعقله ومسؤوليته وحريته مكانها في الامتحان المستمر.

(2) سورة الروم، 40.

هذه الحضارة الغربية في قاعة الامتحان كما كانت عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع. ما فتح الله عليها من حذق العقل الصانع العلومي، وما أغدق عليها من ملائم تحسبه خيرا، وما أتاح لها من قوة، وما كدس عليها من أشياء تفرح بها، وتلهو بها، ما هي إلا أسئلة مجسمة للبلاء.

وما تعانيه الأمة الإسلامية من تخلف وقهر وفقر وشتات ما هو إلا فساد ظهر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون. نسأله سبحانه العفو واللطف.

في القرآن الكريم عبارتان عن الفتح: «فتح على» يذيق الله به الجاحدين من أهل القرى الظالمة رخاء الدنيا وقوتها قبل أن يعذبها. و«فتح لِـ» خصصه الله سبحانه لأحبائه الصالحين من عباده. وهو الذي خاطب به سبحانه محمدا رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾.[1]

إن لا تستقم الأمة على الدين فهي غثاء يجرفها سيل الحضارة المادية. نقطة التقاطع بين «الفتح على» و«الفتح لِـ» هي العقل الإنساني ما يوجهه؟ مسار الجاهلية المعاصرة يوجهها الهوى، والغريزة، والدوابية، وتأله النفس الهلوع، والفلسفة العقلانية التي تقول للإنسان: اعبد نفسك فأنت أنت. غرور العقل الصانع بأشيائه وعلومه وقوته فتح من الله عليه في عالميه المادي والنفسي. حريته ذهبت من حيث لا يشعر، فالتكنولوجيا تسوقه حيث لا يريد وحيث لا يستطيع فكاكا. أغرقته أشياؤه في التفاهة وقَمَّطته إفرازات ذكائه ومهارته في نسيج متين من خيوط عنكبوتية هي فولاذه وصناعته الثقيلة ورأسماليته العملاقة. عنكبوتية في ميزان الآخرة، لكنها هنا بأس شديد علينا وعلى المستضعَفين.

للإنسان الجاهلي دعوى عريضة بما يرى من تنامي قوته. يغفُل، بل يتغافل عن تدهور الإنسان الغربي أخلاقيا ونفسيا، فينصب نفسه مدافعا عن حقوق الإنسان

(1) سورة الفتح، الآيات: 1-3.

في العالم، ويحشُد الجيوش لقمع الأمم. فقد بلغ ظلمه مداه وآن أن تنطبق سنة الله عليه. آن. ولا يعلم الغيب إلا الله، ومن سنته تعالى في الأمم أن يُمْلي لها ويُنْظِرَها ويَمْكُر بها. لكن سنته لا تتخلف.

نقطة التقاطع والتباين بين «الفتح على» الذي يبتلي به الله العتاة في الأرض، وبين «الفتح لِ» الذي خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم ووعد أمته بالنصر العزيز إن استقامت على هديه، هي التعرض لكرامة الله.

كرم الله بني آدم كرامة استعداد. من بني آدم من استقام مع الرسل عليهم السلام فنُصروا في الدنيا أمما، وأفلحوا في الآخرة أفرادا. ومنهم من انحرف وكفر وجحد فأخذهم الله نكالا في الدنيا أمما، وعذبهم أفرادا في الآخرة لكفرهم.

كرامة الله لبني آدم تتمثل في هذه الموهبَة العظيمة: العقل. من بني آدم من تولَّى ولم تبلغه دعوة الرسل فهو كالبهيمة ذو عقل معاشي يأكل ويشرب ويتمتع كما تتمتع الأنعام. في ميزان الآخرة تستوي الأمم البدائية والأمم المصنعة الماهرة، ويستوي الأفراد الذين أكلوا في الدنيا والذين جاعوا. بهيمة في الدنيا وفي الآخرة كل من احتجب عن الهدى بمعاشه وآلة معاشه.

ومن بني آدم من استجاب لداعي الله ففتح الله لعقله وقلبه أبواب الهداية وسبل السعادة. فهو على طريق آدم عليه السلام الذي سواه الله ونفخ فيه من روحه وجعله خليفة في الأرض، وأسجد له الملائكة. وكذلك سوانا من نطفة وخلقنا في أحسن تقويم. تلك كرامة النشأة الترابية هذه، تسكن الروح قفصها زمنا تكسِب فيه معاشها ضرورةَ حياة، وتكسب فيه فلاحها الأخروي، وتبني فيه وبه معادها هداية من الله وإتمام نعمة وكرامة.

الدوابيون المعرضون عن الله يبحثون عن حقيقة الإنسان بين عقل فاحص وجسم لا تنتهي عجائبه، وإتقان تركيبه، ودقة صنعه، ووظائف جوارحه، ونُورُنات دماغه، وشبكة أعصابه، ومكونات دمه، وتوازنه العجيب الذي يمكنه من القيام على قدمين، والبطش بيدين، والسمع بأذنين، والإبصار بعينين. وهكذا.

حوار أصمٌّ أعمى مغلق الآفاق بين عقل لا يسمع من الوحي وجسم هو في حد ذاته لغز مُعَمّىً على من كفر، وآية باهرة على وجود الخالق سبحانه لمن آمن وسمع الرسل وصدق.

بعد هذه النشأة الأولى المركبة من عقل وجسم وغرائز ونفس وروح، ينشئنا الله عز وجل النشأة الآخرة بعد الموت والبعث. أكرمنا الله سبحانه هنا في الدنيا بعطايا ومزايا ونِعم يبتلينا بها أَنَشكر ونؤمن، أم نجحد ونكفر. وإنْ كل هذه العطايا إلاَّ جَهازٌ ومتاع وآلة لنكسب بها الفلاح الأخروي الأبدي. بعد هذه النشأة المركبة العجيبة في جسمانيتها وعقلانيتها ونفسانيتها وروحانيتها نشأة الأبد والخلود. خلود في الجنة والنظر إلى وجه الله، أو خلود في النار نعوذ بالله. ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[1]

(1) سورة العنكبوت، 19.

الإيمان بالله تعالى

يقول العقل الباحث المدجج بآلاته ونظرياته ومسلماته ومختبراته: إن هذه النشأة الإنسانية وليدة تطور بدأ من الذرة فالخلية الحية، فالكائنات المركبة طورا بعد طور، حتى تضافرت الصدف، وعوامل البيئة، وضرورة الصراع مع الطبيعة من أجل الغذاء، والصراع بين الأنواع من أجل البقاء، فاكتملت الكائنة سمكة، خرجت من البحر فزحفت، ثم طارت بعض الزواحف، ودبّ بعضها، وتطور حيوانا لبونا، فقردا، فإنسانا.

وأصل هذا كله في نظر العقل العلومي الصدفة المحض التي صنعت الحياة بعد أن انفتق العدم من تلقاء نفسه فأصبح وجودا كونيا.

ينبغي أن نشير هنا إلى أن النشوة العلومية التي أسكرت العقل الباحث المكتشف طيلة القرن التاسع عشر بتاريخ النصارى بدأت تنقشع منذ أواسط القرن العشرين عن شك يتنامى. بدأ العقل المتفرعن المتفنن يتوغل في تخوم الكون اللانهائي في العِظم اللانهائي في الصِّغَر فتتجلى له تفاهته وأنه لا شيء. وبقي المنبهرون المقلدون المتخلفون عن الركب في كل ميدان يعبدون العقل الفرعون. كان العقل الفرعون فيما مضى يحسِبُ أنه هو صنع ما اكتشفه. كأنه هو ركب الذرة ونوياتها وبروتوناتها ونتروناتها، كأنه هو أشرف على تركيب الأفلاك وأعطاها نظامها، وعلى جسم الإنسان وجسم كل شيء فأعطاه خلقه. الآن بدأ الفرعون يتراجع ويشك في قدراته أمام ما كشفه الله تعالى له من عظيم صنعه في الأكوان. والعَبَدَة المقلدون المتخلفون لا يزالون سُكارى من نشوة غيمت على الغرب في القرن الماضي فهي تنكشف عنه.

بعد التلسكوبات الفيزيائية صنع الإنسان التلسكوب الإلكتروني. تراكمت علوم فلكية منذ كبلر وجاليليو، بل منذ عالم المسلمين العظيم ابن الهيثم، فيستطيع

الإنسان اليوم أن يقيس رياضيا وفيزيائيا أن قُطر الكون المنكشف لآلاته يُناهز عشرين مليار سنة ضوئية. أي مسافة يجري فيها الضوء مدة عشرين مليار سنة بسرعة ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية. في الدقيقة الواحدة يقطع الضوء مسافة ثلاثمائة ألف كيلومتر مضروبة في ستين. الحاصل ثمانية عشر مليون كيلومتر. واحسُبي يا أخت الإيمان كم يقطع الضوء في ساعة، ويوم، وشهر، وسنة، إلى مائة سنة، إلى ألف، إلى مليون، إلى مليار.

منذ سبعين سنة عاش العقل الباحث المدجج بالعلوم والآلات على نظرية «الانفجار الضخم» تقول هذه النظرية العجيبة المحيرة: إن هذا الكون الهائل، الذي يعجز خيال الإنسان عن مجرد تصوره، بدأ مما يشبه العدم. هذه النظرية يقبلها العقل الباحث المتراجع شيئا فشيئا عن فرعونيته. تقبلها حساباته، ويعمل على أساسها ويبْني.

نظرية «البيج بانج» صاغها الروسي ألكسندر فريدمان سنة 1922 بتاريخ النصارى، وأكدها من بعده الأمريكي إدوين هُبْلْ سبع سنوات بعد ذلك وحرَّر قياساتها.

مضمن هذه النظرية أن هذا الكون العظيم يتمدد بسرعة كبيرة تبعد النجوم والمجرات بعضها عن بعض كما تبتعد شظايا قنبلة انفجرت. كل هذا الامتداد نشأ من كتلة أقل ملايين المرات من نواة الذرة، وأكثر حرارة ملايين المرات من قلب الشمس، وأثقل وزنا من كل ما يتصوره العقل.

في لحظة واحدة انفجرت هذه الكتلة. انفجرت في جزء من ملايير الأجزاء من الثانية الأولى من عمر الكون. في اللحظة عشرة أُس خمسة وثلاثين، أي واحد عن يمينه خمسة وثلاثون صِفرا.

يحسُب أصحاب النظرية أن حجم النواة المنفجرة تمدد إلى قدر حبة لوبيا بعد انقضاء واحد بالمائة من الثانية الأولى. بعد انقضاء ثانية واحدة على بدء الانفجار

صار حجم الكتلة مثل حجم الشمس. عندئذ تكونت الجزيئات المعروفة الآن مثل الفوتونات والإلكترونات والبوزترونات والنوترونات وما إلى ذلك. بعد ذلك بثلاثمائة ألف سنة تكونت الذرة، وتكونت معها قوة الجاذبية التي تضم أجزاء الكون بعضها إلى بعض بينما تدفعها قوة الانفجار إلى ابتعاد بعضها عن بعض.

وتكتمل الفرضية المذهلة هذه حين يقدرون أن الكون بعد امتداده هذا المستمر، سيتراجع يوما من عمره ويتقلص حتى يعود إلى ما منه بدأ، كتلةً أصغر من نواة الذرة بكذا وكذا...

هذا العقل الإنساني المتعلم من قوانين الكون يتصور ويحسب ويقيس العدم الكوني بَدْءا ومآلا. لكنه لا يسميه عدما لأنه لا يحب أن يؤمن بموجد خالق غير المادة تصنع نفسها وتنفجر وتمتد وتتقلص. رغم تراجع العقل الباحث عن فرعونيته لا يزال يعيش على المسلمة الدوابية الكفرية. طمس الله القلوب، وطبع عليها، وأصم أذنها عن سماع الحق من مصدر الوحي، وأعمى عينها عن أن تبصر دلائل الخالق في الخلق.

ويُملي الله سبحانه للعقل الكافر فتتوقف معادلاته الرياضية والفيزيائية زمنا عاجزة ذاهلة أمام هوْل ما تقربه الآلات والحساب للتصور البشري الحائر. ثم في سنة 1989 بتاريخهم أطلق الأمريكيون المكوك الفضائي المشهور «سبيس شوتل» واستطاعت أجهزة استماعه العملاقة أن تسرِقَ سمع الانفجار العظيم الذي حدث، حسب النظرية، منذ خمسة عشر مليار سنة. سرق ذلك السمع يوم 23 أبريل 1992 بتاريخهم وحييت النظرية المذهلة بعد سبعين سنة من ميلادها حياة جديدة.

بل استطاعت الأجهزة الفضائية العملاقة أن تلتقط أخيرا أخيرا صوراً لغيمات تخلفت في أقطار السماوات عن الانفجار الأول. فالعقول العملاقة الشاعرة الواعية بقزميتها، المعترفة بحيرتها، منكبة على دراسة ما تسميه «البيضة الفضائية».

وفي مجالات أخرى ينكب العقل الباحث على الحياة ومادتها وأصلها. يشك في معارفه، لكن لا بد له من فرضية ونظرية. ولكيلا تبدُوَ مَعَرّة الشك والجهل بالحقيقة على أبحاثه، يغلفها بعِلميَّة الرياضيات الاحتمالية.

يفترض العقل الأعمى البصيرة المتوقد الذكاء أن الأحماض الأمينية التي تتكون من مادتها الجسوم الحية تركبت بالصدفة في أعماق البحر وشواطئه. وتكونت البروتينات الأولية صدفة لينشأ منها صدفة الخلية الحية الأم الأولى.

ويعزو العقل الأكمهُ إلى إلهه الجديد «الصدفة» معجزة تجميع ألف حامض ضروري لتكوين أبسط أنواع البروتينات. ويفحص ويحسُب ويقدر ويفكر ويستدعي علم الشك وهو رياضيات الاحتمال ليثبت بالأرقام الخيالية التي تضرب خيال الإنسان فتقضي عليه ما لا يقدر الخيال على مجرد مواجهته. يحسب أن فُرَص حدوث نشوء البروتيين الواحد صدفة هو واحد على أصل عشرة أس ألفين. أي واحد عن يمينه ألفا صفر.

ويحسب أننا بحاجة إلى تحريك كل ما في الكون الفسيح من ذرات، وتركيبها الواحدة مع الأخرى ذلك الرقم الخيالي لعلها يُصادف الأليق منها الأنسب فتَتكون البروتينة الواحدة. أما الخلية الأم فهي تتطلب مائة ألف نوع من البروتينات مختلف بعضها عن بعض في الحجم والتكوين النوعي، يتراوح تفاوتها في ذلك من البروتيين ذي الألف حامض أميني إلى البروتيين ذي المائة ألف.

بعبارة ملخصة، بحسب العقل الأعمى عن الحق البصير بظواهر الكون أنه يلزم تحريك ما يساوي ملايين المرات عدد ما في الكون من مادة عضوية، وضرب بعضها في بعض، وتركيب بعضها مع بعض، قبل أن تعثر الصدفة الإلهة على بغيتها في جمع خلية لها مقومات الحياة.

كيف لا يخر هذا العقل ساجدا بين يدي القادر الخالق سبحانه؟ كيف لا يتنازل الفرعون عن تألهه ليتصالح مع الفطرة التي جاءت الرسل من عند

الله تخاطبها بالحقيقة وتعلمها؟ صدق الله ربنا قال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[1].

استغنى العقل المفتش بأدوات تفتيشه، ونتائج علومه، وتراكم خبراته. معقَّد في أسر تعقيداته من أين له أن يتحرر إن لم تأته الهداية من ربه؟ من أين له أن يرجع من أفق المعادلات والحسابات والفضاء المذهل إلى بساطة الإيمان تصديقا للوحي. هذا الإصرار من العقل البشري على كفره آية عظمى من آيات الله تعرضها لتدبرنا الآية الكريمة: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.[2]

هواهُ تصور له وتمثل في نظرية الصدفة. فمنذ اكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية وفتوحاته العلومية اتبع العقل الضرير هوى العباقرة في الدماغ الصم البكم العمي عن الحق، فَسمَّوا نيوتن موسى الجديد، ونصبوا لأنفسهم معابد هي المختبرات، أنبياؤها العلوميون، ووثنها الصدفة.

نظرية دروين في أن الإنسان قرد تطور نجد صداها في رياضيات الاحتمال وعلوم الصدفة. فقد تحدث الرياضيون ولا يزالون يتحدثون عن «معجزة القرد».

مُؤدّى هذه النظرية الاحتمالية، بل هي حساب رياضي، أن وجود هذا الكون صدفة يماثل كتابة قرد لأعمال شكسبير أو تأليفهُ لخزانة كتب.

قرد يخبط على حروف آلة كاتبة فينشِئ صفوفاً من الحروف. احتمال تأليفه لروائع شكسبير أو إنشائه كتب خزانة هو في حدود عشرة أس ألف مليار. أي واحد عن يمينه ألف مليار صفر. لو جئت ترقم هذه الأصفار على الورق لزمك مليون كيلومتر من الورق. لو جئت تنطق بهذه الأرقام لزمك خمسة عشر ألف عام. أي مائة وخمسون قرنا.

(1) سورة العلق، الآيتان: 6-7.
(2) سورة الجاثية، 22.

هذه العلوم تتطور بسرعة. بعد سبع سنوات على أي كشف علومي، يكون الركب تجاوزه وأصبح علما عتيقا لا عمل به. بعد سنوات يَكون عمر الاكتشاف وصلاحيته ثلاث سنوات. ثم، ثم. ثم ماذا؟ إن الذرة التي يشاهدها الباحث في مجهره الالكتروني تكاد تخاطبه وتوبخه على جهله. مشاهدته إياها تحدث فيها اضطرابا، فلا يشاهدها كما خلقها الله، إذ لا سبيل إلى ذلك، وإنما يشاهد فقط اضطرابها، فلا يدري أهي مادة وجوهر أم عرض وتموُّج ضوئي.

ما خلقت هذا باطلا سبحانك. فقنا عذاب النار. أنت الله الخالق الحكيم.

الوحي والنبوة

تقول الكشوفات الشاسعة المنفتحة على قدرة الله التي لا نهاية لها: إن وجود الكون من تلقاء نفسه، وإن وجود الحياة بالصدفة أمران مستحيلان. تقول ذلك بلسان فصيح لو كان من يسمع، كما تقول الفطرة في الأمية العجوز التي تعرف من عجزها قوة خالقها، ومن جهلها علمه، تفوض له وتؤمن. ويبقى الجبار المتأله يتسلى بحسابات شكوكه وفرضياته العمياء.

إن المولى القدير سبحانه طَمس على العقل الباحث العلومي بإفرازات شقيقه العقل الفلسفي. فمنذ الفلسفة اللذاتية عند إبيقور الإغريقي إلى فلسفة الغرائز عند فرويد، ومنذ الماديين الإغريق إلى مادية ماركس، والعقل الفلسفي اللذاتي يراكم على نفسه وعلى شقيقه طبقات بعضها فوق بعض من الرَّيْب والرفض للحق المبين الذي تعرفه الأمية العجوز التي ورثتْ الإيمان في سذاجته وبساطته.

إن الإيمان بالله إما أن يجده العقل في نهاية طريق بحثه إن لم يرتدَّ ويرفضْ الإذعان للقدرة الإلهية، وإما أن يطوي الله له المسافة فيؤمن من أول خطوة مستندا إلى بديهته الفطرية التي تناجيه في الأعماق بوجود خالق قدير عليم رب مريد.

أمر الله الإنسان أن ينظر في الكون وآياته، ويَتدبر، ويتفكر، ويتذكر، ويعقل، ويفقه. وأمره قائلا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.[1]

لولا كفره وطبع الله على قلبه لانقلب العقل الباحث الفلكي الرياضي الفيزيائي الاحتمالاتي خاسئا حسيرا على نفسه من دُواره في مشاهدة العدم

(1) سورة الملك، الآيات: 1-4.

والوجود واللانهاية، ليَعْجب في عماه وبلاهته حين ينسب إلى التلقائية والصدفة معجزات الخلق. لكن هذا العقل في كبريائه عاهر، ينقلب في دعارته العقلية كما يتقلب الحِسيون الماديون في دعارتهم اللذاتية.

العقل الموفق يجد الإيمان في نهاية طريق العلم أو في أول خطوة على عتبة الفطرة. يأتيه من الوحي العلم بالله، وبأسماء الله، وبغيب الله، وبحكمة ترتيب العالم، وبالقصد من الخلق، وببلاء الدنيا، وجزاء الآخرة، وأسباب سعادة الإنسان وشقائه الأبديين.

كرَّم الله تعالى الإنسان إذ خلقه في أحسن تقويم. لا يرى هنا في الدنيا إلا ما تكشف له علوم الطب من بديع صنع الله في جسمه. وينتظره في الآخرة إن آمن واستقام النشأة الكاملة الأحسن تقويما، والنعيم المقيم، والنظر إلى وجه الله.

كرمه الله تعالى بالعقل، وأهَّل هذا العقل بمَلَكة البيان. البيان هو الكشف عما في الضمير لمخاطب تريد إفهامه وهدايته. البيان منة عظمى من مننه سبحانه. هو الواسطة بين الوحي والعقل. ويرتكس العقل الفلسفي فيسمي الإنسان حيوانا ناطقا. نعم، النطق المُعْرِب عن العقل أهم ما يميز الإنسان عن البهيمة، الكلام واللغة من خصائص بني آدم. لكن الكلام واللغة لا ترفع الإنسان عن مرتبة الحيوانية التي يُشْبهها بالجسم ما دام يلغو وينطق ويفلسف على مستوى حيوانيته وجسمانيته وحسه وشهواته وكل ما يلصقه بالأرض ويثبط تطلعه للسماء.

إنما يرفعه عن حضيض الحيوانية الناطقة المتكلمة اللاغية فتح سمعه لتلقي الوحي من الرسل عليهم السلام.

منة السمع، وحاسة السمع، وكرامة السمع، من أعظم عطايا الرب سبحانه. إذ هي القناة التي منها يصل خبر وجود الله، والعلم بالله، والعلم بطريق السعادة وحقائق المَحْيى والممات. يُذكر السمع في القرآن قبل البصر، لأن حاسة الإبصار وما يلتقطه البصر من صور العالم لا تحمل إلى العقل رسالة إلا عن العالم المرئي. لا يخبر البصر عما وراء المرئي ولا عن أصله، ولا عن معناه.

لقاء بيان الرسول الموحَى إليه مع تلقي السمع للبيان. ذاك مجمع الإيمان، وبداية ترقي الإنسان عن حيوانيته. يترقى إن قبِل الحق من الشاهد الرسول، ويبقى مع شر الدواب إن أعرض. لا يُحسب مع العقلاء بالعقل الأصم عن قبول البيان، الأعمى البصيرة بما أطفأ دون قلبه أنوار الوحي. ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.[1]

مؤمنون ومؤمنات قالوا: «سمعنا وأطعنا»، وكافرون وكافرات ومنافقون ومنافقات قالوا: «سمعنا وعصينا». الفرق بين السمع المنجي والآخر المهلك تصديق الرسول واتباعه.

التكريم الأعظم للإنسان هو أن خالقه سبحانه يخاطبُه ببيان الرسول. يدعوه إليه. يبعث إليه رسلا مبشرين ومنذرين. معلمين مربين. حرصين على هداية الخلق صابرين على أذاهم معايشين لهم.

الرسول واحد من أفراد الإنسان اصطفاه الله ليحمل لقوم أو عشيرة خبر السماء. واصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم ليبلغ الثقلين من جن وإنس، ولينير الطريق لأجيال الثقلين إلى يوم القيامة.

محمد جاءه الوحي فجْأَة. تعجب مما حدث له، وفزع، ولجأ إلى زوجه خديجة يقول: زمِّلوني زملوني. دثّروني دثروني. ما كان يدري ما أصابه. نَزَل عليه في القرآن تذكيراً من الله قول الله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾.[2]

ونزل عليه التذكير بأنه عبد من العباد كان يجهل ما يدخره له القدر قبل نزول الوحي عليه، ذكره تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾.[3]

(1) سورة الأنفال، 22-23.
(2) سورة الشورى، 52.
(3) سورة القصص، 86.

هل الوحي فلسفة وعبقرية؟ كلا بل هو خطاب الله لعبد اصطفاه في أزله، واختاره ليكون ترجمانا عنه لمن شاء من عباده. رجل كالرجال قبل نزول الوحي. رجل لا كالرجال بعد ذلك. بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق قبل الوحي وبعده. ويفتتن الجاحدون والحاسدون والكافرون والمنافقون والملأُ المستكبرون بالشبه البشري بينهم وبين ابنهم هذا القائم فيهم ببيان لا عهد لهم به. ويقولون كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾.[1]

يطْلبون معجزات من الرسول. ولكل رسول معجزة تتحدى العقل البشري في الحقل الذي برّز فيه العصر. العصا لموسى عليه السلام في بيئة ساحرة. إبراء الأكمَه والأبرص وإحياء الموتى في بيئة تقدم فيها الطب لعيسى عليه السلام. وهكذا.

ومن محمد صلى الله عليه وسلم سأل الظالمون الجاحدون تنزل الملائكة حتى يروها جنودا تخفُره، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة في جبال مكة القاحلة. وكان لمحمد صلى الله عليه وسلم معجزات جمة حسية مثل شق القمر، ونبع الماء من أصابعه، ونصره بالرعب، وتكثيره للطعام، والهيبة التي يقذفها الله في قلب من يواجهه عدوا كان أو صديقا. ومعجزاته صلى الله عليه وسلم كثيرة. يسكت عنها قوم يزعمون أن معجزته القرآن فقط. يفعلون ذلك على أثر المستشرقين ليقولوا معهم صراحة أو تلويحا ما قاله الظالمون الأولون عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾.[2]

الوحي والنبوة في بَساطة ظهورهما يلخصهما السؤال البسيط الساذج الفطري السليم الذي طرحه الحارث بن هشام على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويلخصهما جوابه صلى الله عليه وسلم. قال الحارث: يا رسول الله! كيف ياتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أحيانا يأتيني مثلَ صلصلة الجَرَس-**

(1) سورة الفرقان، 7-8.
(2) سورة الفرقان، 4.

وهو أشدُّه علي- فيفصِم عني (ينفصل عني) وقد وَعيت ما قال. وأحيانا يتمثل لي الملك، فيكلمني، فأعي ما يقول». رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها.

هكذا يتنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم على مدى ثلاث وعشرين سنة بالقرآن البيان، وبالحكمة ينطق بها سنة ويبين للناس بها ما نُزّل إليهم. كل ذلك وحي لأنه صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوَى، إنما ينطق عن الحق. إذ هو ترجمان الحق جل وعلا.

ويموت محمد صلى الله عليه وسلم ويلتحق بالرفيق الأعلى. وتبقى معجزته الخالدة متمثلة في القرآن الذي حفظه الله ويحفظه إلى قيام الساعة. خُتِمت الرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم فما انقطع بذلك الحبل الرابط بين الخالق وعباده. الحبل باق متمثل في الوحي من كتاب وسنة.

القرآن نزله الله بلسان عربي مبين. فهو المعجزة العظمى التي تتحدى العقل البشري في كل ميدان إن كانت معجزات الرسل تحدته في نطاق معين. تتحداه وتهديه وترشده. وتدعوه إلى الإيمان والتوبة. وتفصل له الشريعة المنجية.

معجزة القرآن تُفحم العقل وتقنعه. أو يتردى فيجحد.

القرآن نُزِّل بلسان عربي مبين على رسول عربي. فالتلازم بين القرآن ولسان العرب أبدي. من لا يحسن اللسان لا يفهم القرآن. ما هي عصبية قومية لكن مسؤولية يتحملها كل من انكب من عرب وعجم على لسان القرآن يتعلمه ويدرُسه ويُدَرّسه ويتقنه.

هؤلاء القوميون العرب خانوا القرآن إن هم زعموا أن الإسلام زهرة العروبة وثمرتها. ما هم من لسان القرآن في شيء هؤلاء الذين بضاعتهم ثقافة عامة، لا يعرفون اللسان العربي في نحوه وصرفه وبلاغته وبيانه لا يعرفون علوم العربية ولا لهم من سليقة العرب الأولين حِس.

لسان القرآن لسان كامل محفوظ. حفظه القرآن، ما هو حفظ القرآن. لسان كامل وغيره ناقص ولو كانت الحروف عربية والثقافة يَلهج بها لَغْوٌ من الكلام

يثرثر بلغة الضاد. ناقص مبتور مقطوع من تخلف أو صم أو عميَ عن واحدة من الإشعاعات النبوية الموجودة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾.[1]

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 45-46.

العقيدة

بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة الجامعة الممتدة من لَدُن بعثته إلى يوم القيامة. فالرسالة مودعة في الكتاب الذي حفظه الله ويحفظه. وفي السنة التي عكف على جمعها وتمحيصها وتصحيحها المحدثون المحسنون إلينا جزاهم الله خيرا.

رسالة جامعة أبْلغت لبشرٍ يسعون في الأرض تتنازعهم مع بواعث الإيمان بواعث الكفران، مختلفةٍ ألسنتُهم، بدائيةٍ أفكارُهم أو متطورةٍ، ذَوِي حضارة أو بدوٍ في الصحراء، لهم من خيرات الأرض وكنوزها القليل عليه يتقاتلون، أو الكثير فيه يُترَفُ بعضهم ومنه يحرم الآخرون.

كيف تَلَقَّى الإنسان في ذلك العهد وفي كل العهود، وكيف يتلقى إلى يوم القيامة الرسالة الجامعة؟ إنه إنسان في مجتمع، إنه إنسان يجري به التاريخ، إنه إنسان حتى ولو أسلم وصدق النبي وقبل الوحي، محدود بظروفه الاجتماعية، وقدرته العقلية، ومصادره اللغوية، وأحوال مجتمعه السياسية. لو كان الإنسان فردا في قارورة معقمة في المختبر، روحا مجردة، متعاليا عن الدنيا، لكانت صلته بالنبوة والوحي في صفاء البِلَّوْر. لكنه محبوس في قفص الجسمانية، تتناوشه الغرائز الفطرية، والعقلانية السائدة، والعادات، والموروثات.

رسالة جامعة واحدة تلقاها بنات الدنيا وأبناؤها من زوايا مختلفة، وتناولوها فهما وتأويلا بأدوات عقلية مختلفة، واصطبغ فهمها صبغة الزمان والمكان بكدورات علِقَتْ بالرسالة تصدى علماء المسلمين لتصفية الرسالة منها، وتحرير العقيدة من الخلط الفلسفي، والدس الزَّنْدَقِي، والشعوذات المحلية، والرسوبات الجاهلية.

في هذه الفقرة نريد إن شاء الله أن ننظر في مشروعية الحديث عن العقيدة، وفصلها عن سياق الرسالة، وإفرادها بالأهمية، والتركيز عليها هذا التركيز الذي

يوشك أن يجعل العقيدة وصفاءَها مشكلة المشكلات. ونريد إن شاء الله أن نبحث مع حماة العقيدة وفقهم الله ما هي العقيدة؟ وما حدودها؟ وما يعنون بهذه الكلمة التي اصطلح عليها أهل العلم لقصدٍ قتالي ضد الضلالات، وهذه الكلمة التي لا وجود لها في كتاب ولا في سنة. كيف بدأ قتال العقائد؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بُعثت بجوامع الكَلِم. ونصِرت بالرعب. وبينما أنا نائم رأيتني أتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يَدَيَّ**». روى الحديث الشيخان عن أبي هريرة. قال أبو هريرة بعد أن روى الحديث: «فقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتثلونها». في رواية: «وأنتم تنتقلونها». في رواية أخرى: «تلغثونها، أو تَرغَثونها، أو كلمة تشبهها». وفي نسخة: «تلعبون بها».

ومعنى هذه الكلمات التي اتهم بها أبو هريرة معاصريه بعد عهد النبوة والخلافة الراشدة: وأنتم تلعبون بكنوز الأرض، وترضعونها، وتأخذونها جميعا.

انصبت كنوز الأرض على المسلمين، وانصب عليهم بلاء آخر هو استبداد بني أمية. وتبع ذلك بلاء توافد الأمم والنحل على الإسلام، كل وفد بخلفياته الفلسفية، وعجمة لسانه، وعجمة عقله.

دخلت كدورات الدنيا بخيلها ورَجْلِها على الرسالة وحامليها فحيّرت وفتنت وآلت إلى تشظية العلوم، ومحنة العقل المسلم، ومحنة السياسة المسلمة.

حيرة نجدها في قولة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «نحن مع من غلب». كلمة قالها لما أَمَّ الناس عام قومة علماء المدينة على يزيد بن معاوية ممالئاً بذلك القائمين، مع أنه كان أعطى بيعته بني أمية طوعا وكرها.

ونتابع تشظيَ العقل المسلم وانشطاره تبعا للانشطار السياسي في فتوى الإمام أحمد كما يرويها الحنبلي الفقيه أبو يعلى في كتابه «الأحكام السلطانية». ذلك الكتاب الذي اجتمع فيه مع الفقيه الشافعي من قبله الماوردي في العنوان وفي قضايا أخرى، أهمها فتوى شرعية الاستيلاء على الحكم بالقوة. قال الإمام أحمد

رضي الله عنه كما ينسب إليه أبو يعلى: «من غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمّي أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَبِيتَ ولا يراه إماما. بَرّاً كان أو فاجرا». وقال: «تكون الجمعة مع من غلب». واحتج بقولة ابن عمر عام الحرة.

ماذا حملت معها لفظة العقيدة، وهي مصطلح مستحدث، من خصامات الماضي ومعاركه؟ ولماذا يحارب العقل المنحبس والفقه الواقف البدع والشرك في صفوف الجَهلة من ضعاف المسلمين، ويسكت عن الشرك السياسي، وهو أعظم؟ فتوى الاستيلاء، التي نطق بها سلفنا الصالحون من موقع المحافظة على وحدة المسلمين وتحمل أخف الضررين، لا تزال المرجع الذي يفتي تلامذته بجواز الاستعانة على المسلم الجائر بالعدو الكافر. منطق متجزِّئ مكسور، وفقه انكسرت مرآته فهو لا يستطيع النظر الكلي المباشر إلى الرسالة الإسلامية جميعة، وإنما يقرأها في شظايا الفقه الموروث شتيتة.

إن عوامل التحريف والتكدير والتكسير الفتنوية ليست ترجع إلى علة في العقل المسلم المجرد الذي عجز عن جمع نفسه أمام المفرقات وأمام كنوز الدنيا وأبناء الدنيا وبنات الدنيا وفلسفات الدنيا. العلة سياسية اجتماعية اقتصادية كلية.

بعد فتنة انكسار الشرعية الراشدية، وردت الكنوز المادية، ووردت الأقوام وبنات الأقوام، ومعهم ديانات المانوية والزرادِشتية، والفلسفات الدينية الصابئية، والفلسفة الإغريقية الهلنستية. ومع كل ذلك حقد الزنادقة.

ونشأت مقاومة يضرب فيها علماء المسلمين في وجه الشُّبه والترهات التي أوردها الـمُنْصَبُّون على ملة الإسلام وعلى دار الإيمان. من هذه العلوم علم أصول الدين، وهو علم الكلام والجدَل دِفاعا عن صفاء العقيدة.

السؤال المطروح على عصرنا وما بعده هو: هل نأخذ عقيدتنا من القرآن والحديث مباشرة؟ هل نستطيع ذلك؟ هل يجب علينا ذلك؟ هل يقبل الله منا أن نستقبل ما أخبرنا به ورسولُه بالتسليم والطاعة والعمل باقين على البراءة الأصلية؟ أم لا بد أن نعرضَ عقيدتنا على الرقيب القاضي ونتبرأ أمامه من الجهمية،

والقدرية، والمرجئة، والخوارج، والفلاسفة، والزنادقة، وعباد القبور، والمعطلة، وسائر الملل والنحل، قبل أن يجود علينا الرقيب القاضي، الذي ما نصبه أحد بل نصب نفسه، بشهادة حسن السلوك وصفاء العقيدة.

السؤال هو: هل نتقدم إلى أنفسنا وإلى الإنسانية برسالة جميعة، أم نستأنف المعارك مع أشباح الماضي ناظرين بشظايا مرآة الأموات؟

إن شبه الزنادقة الذين عطلوا الصفات الإلهية، وأنكروا ما نسبه الله تعالى لنفسه من يد وأيْدٍ وعين وأعين ووجه وإتيان وهرولة وأصبعين وما إلى ذلك ليست الشبه التي يزخرُ بها فكر الزنادقة الجدد.

نؤمن بما نسبه الله تعالى لنفسه ونسبه له رسوله، ونفوض في الكيف. لكن شبه الزنادقة الجدد وميادين تحديهم للإسلام لا نستطيع أن نواجهها وندحضها بفتوى فقيه من القرن الثالث أو حكم قاض من القرن الثامن. مهما كانت فضيلة الفقيه وعبقرية القاضي.

يفتك الشرك الفردي بعقيدة المسلمين الضعفاء الأميين، وخاصة الضعيفات الأميات. مع هؤلاء، وبأسلوب غير أسلوب العنف والطرْد والتكفير والتبديع، يجب تعليم الإيمان من جديد لتعلم الضعيفة والأمي والجاهلون بدينهم أن «لا إله إلا الله» تقتضي نبذ السحر، والتمائم، والذبح لغير الله، وعبادة القبور، والفأل، والطِّيرة، والحلف بغير الله، وما إلى ذلك من البدع والكفريات.

لكن عقيدة لا إله إلا الله هي نفس الإيمان بالله، والعمل بما أنزل الله. العقيدة بالقلب جزء من الإيمان. الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله. والمساحة الشاسعة مما حكم الله وفرض، ومما سن رسوله وعرض، لا تغطيها علوم الخصام الكلامية. وإنما تسحب من تحتها البساط لتركز الاهتمام على السلبيات والأمراض والعاهات الفردية. وتفرق ما كان منجمعا فانفصل. وقفت علوم، وكملت علوم.

وقف علم أصول الدين، وهو علم الكلام. وانحبس فقه البدع وقفة أولى في القرن الثامن مع ابن تيمية رحمه الله، ووقف بعدها وقفة ثانية مع الإمام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله.

وكاد علم أصول الفقه أن يبلغ الكمال بعد انبثاقه عن عقل عبقري الفقهاء الإمام الشافعي رحمه الله، وبعد تأصيل الأفذاذ من العلماء بعده. يزيد كماله بالتتويج العظيم الذي أنشأه الغزالي ونظم لؤلؤه الشاطبي رحمهما الله، هذا التتويج المسمى علم مقاصد الشريعة. نكمِّلُ كماله بإيراد مسائل الحكم والشورى وسائر هموم العصر التي كانت غائبة في فقه من ماتوا قبلنا رحمهم الله.

انْحَبَسَ الفقه الفروعي بعد كماله في العبادات الفردية.

بلغ علم النحو شأوا عَظيما لحِلْفِه القوي بالقياس الفقهي على مر العصور. الآن أصحاب اللسنيات يَتناولون لغة القرآن وعلوم اللسان العربي بأدوات صنعت هناك، وبخلفيات لاييكية. زندقة جديدة تريد إبعاد المسلمين دفعة واحدة عن القرآن. أين منها بدع العجوز الأمية الجاهلية المتمسحة بالأضرحة.

المنهج الاستقرائي الذي أسس العلوم الكونية وأقام قواعدها في بلاد المسلمين قبل أن يغنمه منا الغرب، هو سليل القياس الأصولي. نغوص في الكفر بما نشر الله في الكون، وفي بدعة الضآلة والهزيمة، وفي شرك التبعية للكفار، إن لم نسترجع هذا المنهج.

إن الحديث عن العقيدة مجردا عن جمعية الرسالة، ناسين ما حمله علم الكلام من آثار دماء المعارك، واقفين في محطات الماضي، عاجزين عن اقتحام عقبات الزمن وتحدياته، لهو إلهابٌ لمعارك جانبية نتسلى بها لتفاهتنا عن المعركة الشمولية. والله غالب على أمره.

لعب الدنيا

انصبت الدنيا بخيلها ورَجْلِها على الجيل الفاضل القرآني النبوي، جيل الصحابة رضي الله عنهم، فقرأنا في الفقرة السابقة كيف حيرت الدنيا أبا هريرة وعبد الله بن عمر. ونقرأ في كتب الآثار وكتب الحديث حيرة صحابة آخرين مثل حيرة أبي ذر الذي خاطب معاوية في مال الله. فاحتج معاوية بأنه مال المسلمين وأنه هو إمام المسلمين يضع المال أنى يشاء. واعتزل أبو ذر حتى مات بالرَّبَذَة. ونقرأ حيرة صحابة آخرين وتأويلاتهم المختلفة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الواصفة للفتن، الناصحة بسلوك معين أثناء الفتن. ونكرر هنا أن فقه الفتن لا تزال مادته منسية في دواوين الحديث تنتظر من يثيرها ويثير بها تاريخ الإسلام لتستنير أمام المسلمين الطريق إلى مستقبل الخلافة الثانية الموعودة.

انصبت الدنيا على الجيل الفاضل وهم جميعٌ حديثو عهد بالتنزيل، مستنيرو القلوب والعقول بالتربية النبوية، مشحوذو العزائم والإرادات بالجهاد العظيم الذي اقتحموه على عهد الرسالة والخلافة الراشدة.

كانوا منجمعين على الله، حاملين سنة رسول الله، متشبعين بها علما وعملا.

وتنصب علينا الدنيا من ميازيب جارفة تسمى السيطرة الغربية، والغزو الثقافي، والاحتكار الرأسمالي، والمال الربوي، والمال النفطي، واللائحة طويلة قرأناها في فصول سابقة. تنصب علينا ونحن شتات في الفكر، وفي الأرض، وفي الإرادات.

ميازيب تنصب علينا من المياه القذرة الهاطلة علينا وعلى الغرب الكافر بمطر السَّوْءِ الذي فتحه الله عليهم عذابا واستدراجا وعلينا بلاء. كانت كنوز الأرض وثروتها وجها من وجوه الفتنة الأولى في بداية فساد الحكم وانحطاطه. ونحن في نهايات فساد الحكم يعمنا الفقر رغم أن كنوز الأرض وثروة العصر وقِوام الدنيا

تنبع في أرضنا سوداء اللون. أَمَة مستعبدة على أيدي رؤساء العشائر، مهداة إلى عدونا طوعا وكرها.

انصبت الدنيا على الفاضلين الصحابة وهم جميع قلبا وعقلا وعقيدة وعلما وعملا. ونحن تنصب علينا أكثر ما تكون فتكا ونحن شتيت. علوم المسلمين الأقدمين شتات، دار الإسلام شتات، حتى الحركة الإسلامية أملُ الأمة شتات.

ما السبيل إلى تجاوز التفتت ومقاومة عوامله وجمع ما تفرق واستعادة الذات القوية القادرة على الصمود والاقتحام؟ هذه بين أيدينا علوم زاخرة من الفقه المنحبس كيف نطلق سراحنا منها لنجتهد لزماننا ومكاننا؟ هذه أصول منهاجية للبحث مؤصلة ثمينة، هل تصلح سُلَّما نَرْقَى به إلى كتاب الله وسنة رسوله لنعتصم بالعروة الوثقى؟ أم أن تسلقنا من أسفل السلالم لن يؤدي بنا إلا إلى مزيد من التشظي والتمزق؟

إن أي تسلق عقلي يتمسك بأهذاب سلَفٍ مضت دنياهم، لعبوا بها ولعبت بهم، اجتهدوا لها وجاهدوا قدر استطاعتهم ومبلَغ علمهم وتقديرهم للمصلحة والضرورات والظروف، لن يغني عنا في فهم دنيانا ومصلحتنا وضروراتها وظروفها.

هذه الدنيا حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر منها القرآن. قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.[1]

حذر القرآن الجيل الأول من متاع الغرور، وفطمتهم التربية النبوية عن حب الدنيا. فآثروا الله وما عند الله، فكانوا المجاهدين الأخيار.

(1) سورة الحديد، 20.

سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الدنيا حلوة خضرة. وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء**». رواه مسلم والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. اتقوا الدنيا، واتقوا النساء. لأن النساء ومكانة النساء في المجتمع ودرجتهن في التقوى، ودَرَكَتهن في الانحطاط، معيار لنهوض الأمة وسقوطها، معيار لصلاح الاستخلاف وبواره. النساء حلاوة الدنيا وخضرتها. إما يكن المتاع الصالِحَ فيها والرفيق الودود لعبورها، وإما يتخذن أداة للارتكاس في الدنيا وشهواتها.

قال الله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾.[2] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**». رواه مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ذم رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا في أحاديث كثيرة: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالما ومتعلما**». رواه الترمذي عن أبي هريرة. «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**». أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

كان زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا وتقلله منها مثالا تأسى به الصحابة. وكان زهد كبار الصحابة وتقللهم بعد أن انبسطت عليهم الدنيا وانصبت كنوزها آية في العزوف عن زينتها. عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وعلي بن أبي طالب قمتان شامختان في التقوى والعلم والعدل، ونموذجان فريدان في نبذ مظاهر الدنيا ومتاعها وزينتها، وهما كانا أميرين للمؤمنين على مساحة تشغلها الآن عشر دول من الدويلات القطرية الممزقة.

ورأى التابعون ومن تبعهم زهد الصحابة، ورووا أحاديث التحذير من الدنيا، وقرأوا آيات الصرف عن الدنيا، وتغلغل الإيمان في قلوبهم. ورأوا فساد الدنيا

(2) سورة آل عمران، 14.

وإفسادها متجسدا في لعب أبناء الدنيا بالدنيا من أمراء السيف وعتاة الحكام، ولعبها بهم. فانصرفوا عن الدنيا جماعات ووُحدانا، واعتزلوا الفتنة كما اعتزلها الصحابة. إذ كانت السياسة دنيا، وكانت السياسة فتنة، وكان الأمر العام لا مجال فيه لقول كلمة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نشأت حركة الزهد، وما لبث أن تولد عنها علم التربية الانعزالية المسمى تصوفا. أسَمّيه علما لأن أجيال الهاربين بدينهم من الدنيا أَثّلُوا شهادات عن مواجيدهم، وقواعد لسلوكهم، وحكايات عن أفرادهم، وكتبا تداولتها أجيال منهم ولا تزال. أسميه علما وإن كان العلم به تابعا للعمل لا مؤسسا له.

نشأ التصوف إلى جانب علم الحديث، وعلم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، وعلم فروع الفقه، وعلم النحو، وسائر العلوم التي انبثق عنها العقل المسلم، وتفتقت عنها الحياة المسلمة، وغذتها المصادر المسلمة.

وتعايش الصوفية والفقهاء في صلح وانسجام قرونا. يبرز منتقد حنبلي بين الفينة والفينة كابن الجوزي رحمه الله، لا يغير من مجرى الانسجام قيد أُنْملة. واستقر القتال ضد الزندقة والشبه والبدع على مذهب الإمام الأشعري رحمه الله. فالعلماء الحنفية والشافعية والمالكية منذئذ أشاعرة عقيدة، صوفية عاملون يبحثون عن شيخ صوفي يربي قلوبهم بعد أن بلغوا شأوا من العلم المعقول والمنقول، أو مُسَلِّمون للصوفية.

وبقيت الأقلية الحنبلية مناوئة للمذهب الأشعري والسلوك الصوفي، مشاغبة في شوارع بغداد، مقاتلة عن السنة وصفاء العقيدة. ومن بين الحنابلة كان أفذاذ من العلماء تشهد كتب الطبقات بعلوِّ كعبهم في العلوم ورسوخ قدمهم في التقوى.

ويأتي القرن الثامن بنهضة حنبلية أحيت الاجتهاد بعد ركود أربعة قرون. نهضة تزعمها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلامذته من بعده. هذا العَبقري المحدث، الفقيه، الأصولي، المناظر في كل علوم عصره، كان إلى ذلك آية في

الزهد والشجاعة في الحق. جمع إلى الفضائل العقلية فضائل الرجولة. مجتهد مجاهد عابد زاهد.

وكان رحمه الله خصما حاد اللسان قاطع القَلم، مسرعا إلى تبديع من خالفه وتكفيره. وكانت له مسائل عُرفت في زمانه في أوساط العلماء «بمسائل ابن تيمية» شذ فيها وبالغ.

هذا العَلَمُ من أعلام الإسلام لم يمت فقهه، ولم يُرْفَع في رفوف الاعتزاز والفَرادة كما رُفع فقه المجتهد المجدد قبله الإمام ابن حزم. فقهه أحياهُ منذ قرنين ونيف الإمام محمد بن عبد الوهاب في نجد، ثم ركد زمانا حتى أعادت إليه الأموال النفطية حياة جديدة. فرأيه هو العلم، وشذوذه هو الأصل، وجداول العلم من قبله انحدرت حتى انتهت إليه، ثم تعاظمت في أعين التيميين فيتصورون حوض ابن تيمية بحرا زخارا لا ساحل له، ونهرا دفَّاقا من منابعه يُسقى الآخرون.

حملت كنوز الدنيا في عصرنا فقها كان منحبسا في زمانه، شاذا حادا. التفت الدعوة بالدولة ساقاً بساق منذ نصرت سيوف آل سعود دعوة ابن عبد الوهاب. والالتفاف اليوم أشد وَثاقاً بين أموال النفط، أموال الله المنهوبة، وبين الفقه المتألف في طبعات فاخرة وجامعات زاخرة ورابطات كاثرة وفتاوٍ ناهية آمرة.

الائتلاف السَّويُّ بين الدعوة والدولة هو أن تكون الدعوة قائدة لا مقودة، آمرة لا مأمورة. فلما انعكس الوضع السوي يجد الفقهاء التيميون أنفسهم في قبضة الدولة مضطرين أن يصالحوا من صالحت الدولة العشائرية، وأن يقاتلوا من قاتلت. الشيعة روافض كفار بالأمس كما يفتي شذوذ ابن تيمية وكما أرادت الدولة. وهم لا بأس بهم اليوم بعد أن صالحتهم دولة السيف، خلافا للفقه المنحبس.

والأمريكيون أحباب اليومَ كما كانوا أمس. خلافا لابن تيمية الذي جاهد الكفار باللسان والقلم واليد.

أما الصوفية فزنادقة ملاحدة بلا نقاش. خاصة إذا كانوا مجاهدين مثل حسن البنا رحمه الله وتلامذته الذين يقرأون الوظيفة ويخططون لإحياء الإسلام.

الصوفية عند الفقهاء الملفوفين زنادقة قبل أية محاكمة. خلافا لابن تيمية الذي غاص معهم غوصات. وميز وحاكم. رحمه الله رحمة واسعة ورحمنا. آمين.

الاعتصام

لا أريد هنا أن أمثُلَ أمام محكمة نصب فيها بعضُهم أنفسهم قُضَاة وحجة. والخصام بين الصوفية والحنابلة، كالخصام بين الحنابلة والعقيدة الأشعرية، لا ينتهي. كان عندي شهادة حياة بضع وعشرين سنة من الله علي فيها الملك الوهاب بالإقبال عليه على يد شيخ صوفي رحمه الله. وقد أودعتها في كتاب «الإحسان». فهي هناك لمن لا يكتفي في معرفة الحق بنَبْشٍ يستخرج به بعضُهم ترهات نسبت للصوفية، ومقالات غامضة على من لا يعرف اصطلاحهم، وأخطاء فهم ككل بني آدم خطاءون، وآراء مدسوسة.

من بلاء الله للعباد، ومن مظاهر الحراسة المشددة على أبواب الإنابة، هذا الفقه السطحي المقلد. قرأتَ يا هذا كتيبا أو اثنين، ومقالتين أو ثلاثا، في ثلب الصوفية، وطرحت القضية من حسابك! ما فعل هذا ابن تيمية، وإنما بذل الجهد، وهو الذكي الواسع الاطلاع، ليجمع أطراف الموضوع ويناظر ويحاجج. لكنه لقوة شخصيته لم يجلس إلى أحد يتخذه أستاذ تربية. ففاته من العلم ما لا يؤخذ عن السطور، وإنما يقتبس من الصدور التي نورها الله بنوره. هي هناك الشهادة في كتاب «الإحسان» يا أخت الإيمان.

يميل رجال الحديث أصلحهم الله من الحنابلة إلى تقليد شيخ المحدثين وإمامهم أحمد بن حنبل رحمه الله. وقد قرأنا فتواه في شرعية حاكم الاستيلاء الذي «غلب عليهم بالسَّيف حتى صار خليفة وسُمي أمير المؤمنين». وقرأنا فتواه رحمه الله في أنه «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما، بَرا كان أو فاجرا».

هذه الفتوى ما قلدها ابن تيمية رحمه الله، وإنما نابذ حكام عصره، ومات في سجنهم لتشهد حياته ومماته أنه من طينة غير طينة الإمعات.

ويرث حنابلة محدثون تُقاة أحمال الفقه والفتاوي التي كتب عليها ابن القيم لافتة «ينتهي صلاح استعمالها»، وتتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال. أكان ابن تيمية وتلميذه الذكي الزكي ابن القيم يفتون للأبد؟ لو اطلع ابن تيمية على ما تلعب كنوز النفط ومدافع الأمريكان، وصفقات القرن لشراء أسلحة الأميركان، بفتاويه وفقهه وورثته المقلدين لتبرأ من الفقه.

يستنيم الورثة المنحبسون مع عقل غيرهم، وفقه سلفهم، إلى فتوى الانقياد لمن غلبهم بالسيف، وإلى فتاوي ابن تيمية يقرأونها قراءة سطحية، ليشعلوا نار العداوة والبغضاء بين المسلمين. فالعالم عندهم شطران: شطر يشغله الشيعة والصوفية مع أمثالهم من الزنادقة والبدعيين والمشركين، وشطر يتنزه عن الكفر والبدع والشرك لأنه غلبهم بالسيف، وتسمى أمير المؤمنين. فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يرى الحاكم بالسيف وليا صالحا أو من يبيعه السيف بالصفقات الخيالية وليا حميما، ومن يخِفّ إلى نجدته بالأساطيل النووية والطائرات الخفية والجيوش الجرارة تطأ بلاد الإسلام أبا رؤوفا رحيما.

مع المحدثين الحنابلة كتاب الله وسنة رسوله. لا يقولون: هذا فهمنا ومبلغ علمنا، واستطاعتنا ووُسعنا في الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله. بل يقولون: فهمنا هو الفهم، وعلمنا هو العلم. والعلم آية محكمة، وسنة ثابتة، فهمها السلف الصالح الفهم الصحيح، ودوَّنها رجل هو المرجع والحجة. لا غير!

إن قراءة الكتاب والسنة قراءة من جانب واحد، ومن أسافل التقليد، وعَبْر منظار من عاش في زمانه ومكانه وأحواله ومات، ما هي القراءة الصحيحة.

وإن قراءة الكتاب والسنة بعقول منغلقة مرصودة على اتجاه واحد ضيق، وبقلوب مشتغلة بالغضب على البدع الصغرى، مكلومة ولا شك مكبوتة لأنها لا تستطيع تغيير المنكرات الكبرى، ما هي بالقراءة الصحيحة.

وإن الاعتصام بفهم زيد وعمرو ممن مضى ومات وقُبر فقهه زمانا، ما هو الاعتصام بالكتاب والسنة. إنما هو اعتصام بمجتهد أخطأ وأصاب.

وإن الاعتصام بالكتاب والسنة عمل إرادي طاقته ونوره الانبعاث القلبيّ الكاشف لخطوات الاقتحام والعقل. والعقل والقلب هما جوهر الإنسان يُثقلهما الغرائز والشهوات، والضغوط السياسية، والحالة الاجتماعية، وطموح الحاكم، وانخناس المحكوم. عقل وقلب وإنسان تثقله الدنيا وتفتنه وتلعب به، ويصده هوسها، وشيطان الجن، وشيطان الإنس، عن سبيل الله.

ما الاعتصام شأن من الشؤون البسيطة الفاصل بين الخير فيها والشر، بين الخطإ والصواب، خيط أبيض وسيف يشطر العالم نصفين.

الاعتصام تكليف يحده استطاعة العقل وقوة الإرادة. الاعتصام بشعب الإيمان يسبقه الإيمان. فإن كان العقل الشاطر العليمُ اللسان هو معلـمَ الاعتصام والقلوب فارغة من الوَلاء المطلق لله عز وجل فإنها مهواة.

إنما يصح الاعتصام لمن انجمع على الله فاجتمعت له الرسالة واحدة، واجتمعت له الأمة واحدة، ونظر من أعالي الأمر لا من أسافله إلى الدنيا كيف تنزلت فيها الرسالة، وكيف تفرعت المذاهب، وكيف اختصم أهل الحق مع أهل الباطل، وكيف تناوش أهل الحق فيما بينهم واختلفوا.

تحتاجين يا أخت الإيمان إلى عقل كامل لتتعمقي في أمر دينك حتى لا يحول دونك ودون الاعتصام بالعروة الوثقى خلاف المختلفين.

تحتاجين قبل هذا ومع هذا إلى تصفية قلبك. ومن هذه التصفية بدأ اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم.

استكمال العقل بالاطلاع المعمق على العلوم ومنابعها ومجاريها يهوّن من شأن الخلاف في الفروع. وقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم فيها فما فرق الخلاف الفقهي لهم شملا. بل كان اختلافهم في الفروع الفقهية واختلاف المجتهدين من بعدهم توسعة على الأمة. يقول عمر بن عبد العزيز الفقيه المجتهد: ما ودِدْت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا، اختلافُهم رحمة. رحمة وتوسعة هي الخلافات الفرعية، لا حرج على المؤمنة

أن تأخذ بمذهب من المذاهب مالم تتصيد الرخص. واختيار ابن تيمية رحمة الله من بين أقوال المذهب الحنبلي الأربعة كان الاختيار الأشد فيما يتعلق بالحجاب. لا ضير.

لكن المكروه الغليظ، والمصيبة الجُلَّى، هو أن يَتهم الفقه المعتز بنفسه، الذي نصب نفسه محتسبا على المسلمين، كل من خالف رأيا من آرائه بالمروق عن الدين وفساد العقيدة. أصبح هذا الإرهاب الفقهي غولا يخافها المسلمون وينفر المسلمون من دينهم لما تعيث في الأرض من تهويل وتكفير وتبديع.

والسنة تبشير لا تنفير، والاعتصام بها رحمة لا نقمة، والهداية إليها بالتعليم والمجادلة بالتي هي أحسن، وبالدعوة بالموعظة الحسنة.

تحتاجين يا أخت الإيمان إلى استكمال العقل وإلى تحرير القلب وتصفيته لكيلا يُقلد مُقلد آراء شديدة على نفسها وعلى الناس تحسب هي وتوهم الناس أنها هي لا شريك لها ترجمان السنة الحافظة لمفاتيح العلم الأمينة على الدين. لا حرج على المؤمنات والمؤمنين من تقليد اجتهاد في الفروع الفقهية، يشدد من شاء على نفسه ويأخذ بالأحْوَطِ من شاء وَرعـًا وتقوى. وعلى نفسه يجني المقلد للشدائد إن أصبح يوما دينه كله أحْوَطيات.

فإذا تعلق الأمر بالعقيدة التي عليها سلامة أصل الدين، وإذا تعلق الأمر بسلامة القلب التي تنفع وحدَها عند لقاء الله، فإن تقليد صيغة عقدية رجَّحَتْ وأقامت المحاكم في دائرتها الضيقة ومحنِها التاريخية إنما هو اعتصام بحبال مشتبكة، لا الاعتصام بحبل الله.

هؤلاء الأفاضل المتشددون يأثَمون عندما يسيء بعضهم الظن بالمسلمين، ويضع الناس جميعا في قفص الاتهام حتى يُدلوا ببراءة من جهمية لم يسمعوا بها قط، وحتى يقولوا كلمة عن عقيدتهم في الصفات، وهم آمنوا بالصفات إجمالا وتفويضا، وحتى يشهدوا أن العجوز المتمسحة بالقبور مشركة، وهم يسعون ليعلموا الجاهل لا ليكفروا المسلمين.

مخلصون صادقون هم هؤلاء الفضلاء. كذلك نظن بهم. ونكبر فيهم تعظيمهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمسكهم بالنص، وحرصهم على تحرير مصادره وضبط روايته. هذه إيجابيات مهمة جدا أدخلها التيار التيمي على الحركة الإسلامية. صادقون مخلصون يدافعون عن فهمهم للسنة من حيث يظنون أنهم يدافعون عن السنة.

الشحيحة بدينها، والحريص على سلامة دينه، والخائفون من لقاء ربهم بقلب مريض، الذين تقشعر جلودهم خوفا من أن يخرجوا من الدنيا بسعي خاسر، يجب عليها وعليه وعليهم أن يتحرَّوْا كل التحري، وأن يخصصوا عُمْرهم كله لمعرفة الحق وسلوك المحجة والاعتصام بما تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: كتاب الله والسنة.

أكمل الله تعالى لنا ديننا من يوم نزلت في حجة الوداع آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾.[1]

هذا الدين الكامل والنعمة التامة هو ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه. ويختلف الصحابة بعد موته صلى الله عليه وسلم في فروع الفقه. ومن بعدهم تأتي أجيال اختلفت في أصول العقيدة وقواعد الدين. ونشِبَتْ قتالات بين المحقين والمبطلين حتى تصَفَّتْ الساحة من الزنادقة والباطنية وأصناف المارقين. ودخل الشيعة في سراديبهم السرية قرونا. وانزوى الصوفية مكرمين معززين معظمين زمانا.

شيخ الإسلام ابن تيمية كان يدافع عن الزاهدة الصوفية رابعة العدوية، وكان يذكر بالتعظيم أئمة التربية ومشايخ الطريق، وكان يرفع إلى عنان السماء الشيخ عبد القادر الجيلاني الحنبلي مذهبا الصوفي مشربا. وكان له الموقف الصارم من الرفض والروافض، والكراهية الشديدة للحلوليين وأصحاب الوحدة. فهل يطمع طامع في وحدة المسلمين وفي سلامة دينه وكمال إيمانه دون أن يتبنى الفقه التيمي؟

(1) سورة المائدة، 4.

علماء الآخرة

هل من مطمع أن يصبح المسلمون مسلمين مسلمين، لا مذاهب تتنابز بالألقاب، ويطعن بعضها في عقيدة بعض؟ هل يطمع طامع أن يضع المسلمون تاريخهم تحت المِجهر العلمي ليرصدوا منابع الخلاف المذهبي، وليقبلوا الخلافات الفروعية على أنها رحمة، وليطوقوا الخلافات الأعمق ريثما تنشأ أجيال مؤمنة على السلامة الأصلية والبراءة الفطرية، أجيال طاهرة القلب نيرة العقل تجلس تحت منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تسمع وتطيع وتتعامل مع العالم المتطور بعلم لا يجمد ولا ينحبس ولا يحكم على العالم بالمروق لأنه لا يشبه عالم زمن التنزيل ولا زمن المجتهد الفذ؟ أجيال علماء آخرة لا تلعب بهم الدنيا؟

يُغَيِّم على آفاقنا فيحول بيننا وبين ذلك المجلس الكريم جهلنا أولا وقلة متاعنا من أدوات الاجتهاد والفهم عن الله ورسوله، ثم هذا التراث المجيد الضخم من فقه فطاحل الأئمة، وسمعتهم، ودويّهم. عباقرةً كانوا، فضلهم يمتد على القرون من بعدهم، يحجب عن العقول الأقل كمالا وعن القلوب الأقل صفاء كل شعاع نبوي قرآني لا يطمح أو لا يستطيع أن يأخذه مَن بعدَهم مباشرة.

سمعت من شريط مسجل أحد علماء الدعوة وأفاضلها يجيب من أخبره أن بعض الناس يكثرون من ذكر لا إله إلا الله ويتخذون منها وِردا يوميا. قال الفقيه: مرفوض! مرفوض! ثم سألوه عن التصوف فأشار بقراءة «إحياء» الغزالي، وبضرورة البحث عن تصوف سلفي. وكأن الغزالي مِظلة واقية من الزلل! أو مرجع نهائي يَقف عنده العلم!

إذا حاولنا استكمال ديننا بالتوفيق بين مذاهب فرعية، وإذا أخذنا ديننا ملفقا من مدارس فرعية، وإذا رضينا بتحت التّحتِ نقْبَع فيه دون ذلك المجلس الكريم، فإنما ديننا نُتَفٌ ومُزَقٌ. ومتاهات لا مخرج منها.

الغزالي خاصمه ابن تيمية خصاما شديدا. وحار الناس في فهم كتابه الفخم الضخم الذي جدد به فقه السنة وفقه التربية. في كتابه الحديث عن العلم اللدني والفتح القلبي، وعجائب ما يقذف الله من أنوار في قلوب الذاكرين.

كيف نستمد من الغزالي تصوفا ومن ابن تيمية سنة والرجلان على طرفين شاسعين؟ كيف نأخذ السنة عن ابن تيمية وهو الذي غاص مع الحلوليين والاتحاديين غوصات خرج منها وعلى ثيابه من أوحالها؟

اقرئي أخت الإيمان الجزء الثاني من فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، فستجدين فيه ما يبهر العقول ويحيرها من جولات فارس الإسلام.

عنده في هذا الجزء اتحاد سائغ وآخر لا يجوز. وعنده أن العبد الولي فيه «نوع اتحاد». وعنده أن الاتحاد فيه حق وباطل. وتجدينه يتبنى لغة الصوفية واصطلاحهم فيقول: «فهذه الحال تعتري كثيرا من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق، وفي غير جانبه. وإن كان فيها (في الحال) نقص وخطأ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه، وعن نفسه، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه، وبمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده. فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده. فقد يقول في هذه الحال: أنا الحق، أو سبحاني أو ما في الجبة إلا الله، ونحو ذلك. وهو سكران بوَجْد المحبة الذي هو لذة وسرور بلا تمييز. وذلك السكران يُطْوَى ولا يُروَى».

لا أريد هنا أن أُثقِل وأعودَ لما رويته ولم أطوِه في مكان غير هذا.

إن كان من درس ينفعني من قراءة فتاوي الجهابذة ومؤلفاتهم فهو درس البحث عن الحقيقة، ودرس الصدق في الطلب كما صدقوا. الغزالي وجد الحق مع الصوفية وترك شهادته اللامعة في كتاب «المنقذ من الضلال». وجدها يقينا فالعلماء الأفذاذ لا يلعبون بدينهم. يقين علم منه أن الجلوس إلى أطباء القلوب علماء الآخرة، كما يسمي الغزالي مشايخ الطريق، محطة لا بد منها في السلوك ولو كنت أنت حجة الإسلام فقها وأصولا وسعة اطلاع.

وابن تيمية بحث عن الحق صادقا، وسل صارِمه على كل من تخيل أنه عدو للسنة. وتسلطن عقله الوقاد وذكاؤه الحاد وحافظته العجيبة فلم يجالس أحدا. ولمكان صدقه ومحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ في آخر عمره «ما لم يكن بالحسبان» كما عبر في رسالة من سجنِه الذي مات فيه. في رسائله آخرَ عُمره يتحدث فارس العلماء عن فرحته العظمى بما فتح الله له، ويكتب إمام المعقول والمنقول إلى تلامذته أنه يَنقصهم الوجد.

ما لِي أتغذى من فُتات موائد الكرام ولا أبحث كما بحثوا لأزاحم بالركب!

كبار الصوفية كالغزالي ينظرون في اللوح المحفوظ، فما مُقامي أنا في ظُلمة الجهل! وابن تيمية يقرأ في اللوح المحفوظ وينبئُ بغيب المستقبل. كيف! لوح محفوظ! وعلم غيْب! وابن تيمية!

إِي نعم! لا أذكر لك الصفحة والجزء لكي تقرئي كتاب مدارج السالكين لتلميذ ابن تيمية الذكي الزكي الذي قص كيف راجع شيخه حين أخبره شيخه أن المسلمين ينتصرون في معركة مع التتار. وأخبره شيخه أنه رأى ذلك في اللوح المحفوظ.

أريد من أخت الإيمان أن تقرأ كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم رحمه الله لتنظر كيف يشرح فيه ويوجه مؤلَّفا اسمه «منازل السائرين» لشيخ الإسلام الحنبلي أبي إسماعيل الهروي. كان الهروي من مشايخ الطريق، ترك للحنابلة المحدثين كتابه هذا المُحرج. روى السبكي عن شيخه الذهبي أن ابن تيمية كان لا يحب هذا الكتاب، ويرمي الهروي بالعظائم بسبب هذا الكتاب الذي يقول إنه مشتمل على الاتحاد. نعوذ بالله من الحلوليين والاتحاديين! «نوع اتحاد» في الولي! يقول ابن تيمية.

كان أبو إسماعيل الهروي فتنة، له مع الأشاعرة حروب. ويأتي ابن القيم لتعالج المدرسة الحنبلية قضية دقيقة في تاريخها. ويخالف ابن القيم شيخه فلا يرمي أبا إسماعيل بالعظائم، لكن يوجه كلامه وشطحاته وينتقده برفق.

أريد من أخت الإيمان أن تقرأ في كتاب «مدارج السالكين» وصفا لعلماء الآخرة العارفين بالله، وشهادة السلفي السني الحنبلي المحدث ابن القيم بشهادة الحق التي يلتقي فيها مع الغزالي ومع أكابر مشايخ التربية. وهي أن العالم أمام العارف كالجاهل أمام العالم.

هل أكون أنا الآخِرُ بالزمن أغبى الخلق وأكثرهم حرمانا من الخير فأترك خلافات العارفين والجهابذة الذين ينظرون في اللوح المحفوظ تحجب عني الحقائق فأعتصم بهذه القولة تارة وأتعصب لهذا المذهب تارة؟ ما لي لا أبحث كما بحثوا، وأصدق كما صدقوا؟

هؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتي أبو بكر بحنظلة الذي اتهم نفسه بالنفاق ليسمعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات تشفي القلوب. ويشكو معاذ في نفسه حاجة فيقول لصاحبه «اجلس بنا نؤمن ساعة**!**» كما روى ذلك عنه البخاري. وابن رواحة يقول للرجل: «تعال نؤمنْ ساعة**!**»، فيتحاكمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمعا أن المجالس التي يحبها ابن رواحة تتباهى بها الملائكة.

كان مسلَّما عند الصحابة، مأذونا به، مشجَّعا، أن يجلس المؤمن لإخوته يذكر بعضهم بعضا، ويذكرون الله واليوم الآخر ليتقوى إيمانهم. وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالِل**»، كما روى ذلك أبو داود والترمذي عن أبي هريرة. وأخبرنا صلى الله عليه وسلم أن أصحابه أمنَة لأمته كما روى ذلك مسلم عن أبي موسى الأشعري. وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النار لا تمَس من رآه أو رآى من رآه كما روى الترمذي عن جابر.

فتقرأ مع حديث الحث على الكتاب والسنة حديث الوصية بمجالسة المؤمنين بَعضِهم لبعض، وحديث اتخاذ الخليل المؤمن الذي تكون على دينه إن صحبته. وحديث السعي لتَرى مَنْ رأى. وتسلسل الرواية والصحبة صاعدة من جيل لجيل

إلى السدة النبوية أهم ما ينكره المستمسكون بالنص المستغنون عن المجالسة القلبية والصحبة الإحسانية.

أية قراءة متوازنة شاملة متكاملة لكتاب الله وسنة رسوله تفيدني ليستمد قلبي من صحبة الصالحين كما يستمد عقلي من مشافهة العالمين؟

عقل يستمد من عقل، هذا يسلم به الجميع. لكن أن يستمد قلب من قلب بالمحبة والمخالطَة والتعاون على سلوك الطريق المقربة إلى الله، هذا لا يريد القابض على أوراقه المستغني بها أن يعترف به.

كان الأمر جميعا متصلا في وعي علمائنا. كانوا يرحلون لطلب العلم من شيخ العلم يتبركون بإجازته ويعتبرونها وَصْلة مباركة برجال سنده. وأينما حلوا كانوا يلتمسون الرجل الصالح المربي. أقلية منهم كانوا يكتفون بتهذيب العقل، ويأنفون من التماس الدعاء الصالح من أحد.

الباب إلى التقرب مِن الله عز وجل مفتوح لمن طرق وأتى البيوت من أبوابها التي يشرعها المولى الكريم سبحانه في الحديث العظيم الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني أعطيته، وإن استعاذ بي أعذته. وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن: يكره الموت وأنا أكره مَساءته**».

هذا الحديث العظيم حير العلماء والمحدثين حتى إن من كبار نقادهم مثل الذهبي من كاد يطعن في صحته لولا هيبة البخاري.

يتحاشى المحدثون قَبولَ الحديث كما جاء مخافة أن يتخذه أصحاب الوحدة المطلقة حجة.

أخطأ وزل من قال بالحلول والاتحاد، وجهل من نادى بوحدة تنفي وجودين للخالق والمخلوق. وتلطخت ثياب من قال إن في الولي نوع اتحاد. الصواب ما نطق به المعصوم الذي أوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم. نأخذه كما جاء ونفوض كيفه إلى الله عز وجل.

وما لي إن تناطَح الناس وتجادلوا وأنا قاعد لم أشمِّرْ لأتقرب إلى الله! الدعوة من المولى عز وجل مفتوحة، والباب مُشرع لمن طرق وصَبر وأتى البيوت من أبوابها. حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه... وبصره... ويده ورجله. الله! الله! الله!

درجات الآخرة

«الكلام صفة المتكلم» كما يقول علماء الكلام. المتدبر لكلام الله تعالى وكلام رسوله يلاحظ الحضور المكثف لذكر الله واليوم الآخر، وما أعده الله من فسيح جناته، ونعيم قربه، لأحبابه. وما أعده من أليم عذابه لأعدائه.

في كتاب الله عز وجل تصنيف للعباد صنفين: أشقياء أصحاب الشمال، وسعداء منهم أصحاب اليمين، ومنهم طبقة عالية هم السابقون المقربون. وينادي كلام الله عز وجل العباد ليسارعوا وليسابقوا. ذلك أن الآخرة درجات، وأن المتقرب إلى الله المقبول عنده المحبوب ما هو في الآخرة كالعابد الذي ينتظر الأجر ولا يطلب وجه الرب.

علماء الآخرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يخافون أشد الخوف من أن تُفسد عليهم دنياهم آخرتهم. كان منهم سيدنا عبد الرحمن بن عوف الذي اتجر وكسب مالا كثيرا. فروى الإمام أحمد حديثا واهيا أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْواً. وهو أحد الأحاديث الأربعة الواهية في مسند إمام المحدثين الذي لا تقل أحاديثه عن درجة الحسن.

أُتِيَ عبدُ الرحمن رضي الله عنه بطعام فتذكر أخاه المهاجر الداعية الرائد سيدنا مُصعَباً بن عُمير حين قتِل بأحُد فكُفِّن في بُرْدَةٍ إن غطي رأسُه بدت رجلاه. تذكر ذلك الثري عبدُ الرحمن فقال: «قتل مصعب بن عمير وهو خير مني (...)، وقُتِل حمزة وهو خير مني (...)، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، وقد خَشِيتُ أن يكون قد عُجِّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام». أخرجه البخاري.

كان ذكر الآخرة ودرجاتها والحنين إلى لقاء الله الفكرة المسيطرة على الصحابة رضي الله عنهم. بوب الإمام مسلم في صحيحه في كتاب التوبة: باب

فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات، والاشتغال بالدنيا. وروى فيه حديث حنظلة مع أبي بكر ورجوعهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. نورد هنا رواية ثانية من رواياته بعد أن أوردنا في فصل سابق روايته الأولى. قال حنظلة: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا فذكر النار. قال: ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة. قال: فخرجتُ فلقِيت أبا بكر، فذكرت ذلك لهُ. فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر. فلقِينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله! نافق حنظلة! فقال: مَهْ!؟ فحدثته بالحديث فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل.

فقال صلى الله عليه وسلم: «**يا حنظلة! ساعةً وساعةً! ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تُسلمَ عليكم في الطرق**».

الجيل الأمانة، الجيل النموذج، كانت قلوبهم تسبح سبْحة في شؤون الدنيا تنسيهم ذكر الله واليوم الآخر، فيعدون ذلك نفاقاً يتطهرون منه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلمة الهادية. وكان الغني منهم يبكي من دنياه خوفا على آخرته ومنزلته من ربه.

خطاب القرآن والسنة المكثفُ فيه ذكر الله واليوم الآخر يُجافيه ويباينه خطاب كثير من الأدبيات الإسلامية التي لا تزال مندهشة بحضور الدنيا ودهاقنتها، فهم يخشون الحديث عن الغيب. أم هي غفلة وانمساح وتسطح؟ أهو الكلام صفة المتكلم، غفلت القلوب عن الله والدار الآخرة، واشتغلت العقول بحركات الأدمغة العدوة تجادلها وتقاتلها من منطلق أن الإسلام نظام للحكم أفضل، وأن تاريخ الإسلام أمجد، وأن لنا أصالة وآباء وأجدادا كراما، وأن لنا حضارة عظيمة تبهر الدنيا؟ ولا يذكر الله واليوم الآخر!

كيف الارتقاء العقلي والقلبي إلى مرتبة علماء الآخرة؟ أمْ هل في ذلك الارتقاء مَطمع؟ أم هل إليه من سبيل؟

استولى اليأس على المسلمين زمانا حين قرأوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المخبر بأن خير القرون قرنه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

استولى اليأس على من فهم أن ذهاب الصالحين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باسترسالٍ هو إيذان بتدهور من أَسْفَلَ لأسفَل إلى يوم القيامة. قرأوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يذهب الصالحون الأوّلَ فالأوّلَ، ويبقى حُفالة كحُفالة الشعير أو التمر، لا يباليهم اللهُ بالة**». رواه البخاري عن مِرداس الأسلمي. الحفالة: النُّخالة. يباليهم بالَة: أي مُبالاة.

ويقرأون مثل هذا الحديث العجيب الذي يصفُ وصْفًا معبرا عن عدم غناء القرآن بدون إيمان، حديث الترمذي بسند حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فشَخَصَ ببصره إلى السماء، ثم قال: **هذا أوَانُ يُخْتَلَسُ العلمُ من الناس، حتى لا يقدرون منه على شيء**. فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيفَ يُختلَسُ منا وقد قرأنا القرآن! فوالله لنقرأَنَّه ولنُقرئنه أبناءنا ونساءنا!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثكِلتْك أمُّك زيادُ! إن كنت لأعُدُّك من فقهاء أهل المدينة! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تُغني عنهم؟**»

ويؤكد الصحابي عُبادةُ بن الصامت حديث أبي الدرداء فيقول: «صدق أبو الدرداء. إن شئتَ لأحدثنك بأول علم يُرفع. أول علم يُرفع من الناس الخشوع. يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلا خاشعا».

استولى اليأس على الناس زمنا وهم يقرأون الأخبار عن خمول الإيمان واختلاس العلم ورفع الخشوع من المساجد.

الآن مع الصحوة الإسلامية المباركة يستولي الحماس والاندفاع الشجاع إلى الجهاد. ونقرأ وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلافة الثانية فيستخفنا

الفرح والتصديق بالوعد. وتُعجبنا قرة العين ونزهة الفؤاد بهذه الأجيال المؤمنة من شباب الإسلام. ويستولي هَمُّ الواجب الجهادي الآتي على هم القرب من الله، وعلى تحرير النية لكيلا يكون جهادنا باطلا وعملنا مُحبطا، ويغيب ذكر الآخرة أو يكاد.

ذلك الذكر الدائم لله والدار الآخرة الذي نقرأه في القرآن والحديث إنما يصبح جزءا من كياننا النفسي القلبي التَّفكري بمجالسة الذاكرين. إن كانت الغفلة عن الله وذكر لقائه أزعجت الصحابة فاتهموا أنفسهم بالنفاق مع أن ما شغلهم ساعة كان مباحا، فإن الغفلة عن الله والدار الآخرة بالانشغال بالتلفزيون والمسلسلات وهوَس الدنيا، والاسترسال في ذلك لهو النفاق بعينه. هذه المغفلات عن الله والدار الآخرة بلاء منتشر، النساء مستهدَفات به والرجال. هذه المغفلات تغزونا وتجرنا وتذهب بنا إن لم يكن في شِغافِ قلوبنا وفكرة عقلنا وخطاب لساننا همّ لقاء الله، والطمع في درجات القرب منه، ومقاعد الصدق عنده.

كيف أتلو سورة الواقعة ولا أهتز شوقا إلى القرب من الله، ولا أجمع شمل إرادتي لأسابِق فأكون من السابقين، ولأتقرب بالفرض والنفل عسى أن أُرفع مع المقربين!

من أول سورة الواقعة شوقنا الله تعالى إلى مقامات القرب منه فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[1]

وفي آخر السورة ذكرنا الله تعالى بمقامات القُرب حين وصَف لنا احتضار أحدنا وهو على عتبة الآخرة، لنستحضر ونحن أحياء تلك اللحظة، ويدخُلَنا الفزع فنسارع لكسب ما يقربنا إليه سبحانه. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ

(1) سورة الواقعة، الآيات: 10-24.

حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.(2)

سبحان ربي العظيم.

أحاديث ذهاب الصالحين، ورفع العلم والخشوع، وبقاء حُفالة كحفالة الشعير، تقابلها أحاديث أخرى تبشر بأن ما ادُّخِر لآخر هذه الأمة من الخير شيء عظيم. كأن انحطاطا يتلوه ارتفاع. والمسألة هي معرفة السلم الذي يَرقى به طالب درجات الآخرة من ذكر وأنثى. ما من مسلمة ومسلم، وناطق بالدعوة وناطقة، وصادق في إيمانه وصادقة، إلا ويقول ويعتقد أن المعراج المقرب إلى الله، الصاعد بالعاملين إلى درجات القرب، هو اتباع السنة واتخاذ القرآن شمسا تضيء الطريق.

ما هو الاتباع الكامل للسنة؟ ما هو الطريق الذي أناره القرآن؟ ما هو الصراط المستقيم الذي ندعو الله في صلاتنا أن يهدينا إليه لنكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين؟

هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صوفيا يلزم الزواية وينفِضُ يديه من الدنيا وتبعاتها؟ كلا وإنما كان وأصحابه والصحابيات الجليلات في جهاد مستمر، ومواجهة للكفر على كل المستويات مدَى عصر النبوة والخلافة الراشدة.

هذه تشد عزمنا على مخالفة الصوفية وتوديعهم. ويُلزِمنا واجب الاتباع أن نطلِّق أساليب التربية ومصطلحات التعبير عن المواجيد التي اصطنعها الصوفية مما يصلح لحياة الانزواء والعيش في دائرة مغلقة، ولا يصلح لحياة الجهاد. يصلح لحياة الجهاد فقط لسان القرآن وبيان السنة. وللصوفية أن يعبروا في

(2) أواخر الواقعة.

دوائرهم المغلقة عن مواجيدهم كما يشاءون كما يعبر أصحاب كل فن عن مكنونات فنهم.

لكن هل كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ذاكرين؟ هل كانوا يكثرون من التلاوة وقيام الليل والصيام؟ هل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» أنها أعلى شعب الإيمان؟ هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم محبوبا حبا لا يقربه حب؟ هل كانت الرحمة والمحبة والولاية والتعاطف فيما بينهم السمة الغالبة على المجتمع الفاضل الأول؟ هل كان حب الله وحب القرب منه فكرة العمر وهم الليل والنهار؟ هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته إلى قيام الساعة بأن ينظر أحدنا من يُخالِلُه ليكون على دينه؟ هل صحبة الصالحين ومجالستهم ساعة نجدد فيها إيماننا من الدين؟

أين نطرح كل هذه الحقائق بدعوى أن الصوفية يفعلون ذلك، وأن الصوفية طعن في عقيدتهم فلان؟ ما هو الدين؟ ما هي السنة إن تخلينا عن الدين؟

إرادة وجه الله

لولا الدار الآخرة وما فيها من جزاء وعقاب ودرجات في الجنة ودركات في النار، ماذا كان يحرك فينا الإيمان بوجود الله والاطمئنان إلى أن الكون له رب خلقه عليم حكيم قادر؟ إنما يحرك المؤمنات والمؤمنين إلى العمل الصالح، وإنما يمسك الأخلاق في المجتمع المسلم، الخوف من عذاب الله والطمع في جزائه في الدار الآخرة.

سمع المسلمات والمسلمون ما ذم الله تعالى به زينة الحياة الدنيا، والترف فيها، والغفلة بها. وعلموا أن وراء الموت بعثا ونشورا وحسابا وميزانا وصراطا وجزاء في الجنة وعقاباً في النار. فاكتفى بحلال الله عن حرامه المؤمنات والمؤمنون، وزهد في الدنيا زهدا شديدا بعضهم. وبكى إشفاقاً من أن تفسد آخرتَهم دنياهم الصديقون مثل عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وسمع المؤمنات والمؤمنون قول الله تعال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾،[1] وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾،[2] فآثروا الآخرة على الدنيا وعملوا بمقتضى هذا الاختيار.

وسمعوا قوله تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾،[3] فتنافسوا وسارعوا وسابقوا. وأرادوا الآخرة. تعلقت همتهم بالآخرة لأنهم يقرأون قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾.[4] تعلقوا بالآخرة ونعم السعادة سعادة الأبد.

(1) سورة الضحى، 4.
(2) سورة الأعلى، 17.
(3) سورة الإسراء، 21.
(4) سورة الإسراء: 18-19.

وطائفة من المؤمنين والمؤمنات استوقفت انتباههم، ثم سكنتهم، آية: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾.(1) يريدون وجهه. يريدون وجهه.

إذا فثَمَّ شيء أسمى وأقدس وأسعد من الجنة ونعيمها! أكد لهم ذلك ولهن الحديث القدسي الذي يدعو الله تعالى فيه العباد إلى أن يتقربوا إليه.

إنها رحلة مجيدة تلك التي ترتفع بالإرادة الإيمانية درجة درجة من الرِّيبة في الدنيا وزهرتها، إلى الزهد في حرامها وشبهاتها، إلى التعلق بالآخرة، إلى إرادة وجه الله. رحلة مجيدة وجد إليها الصحابة رضي الله عنهم الرائد الرفيق المعلم في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبحث التابعون فوجدوا في الصحابة الدليل والصاحب. ووجد كل جيل صالح فيمن قبله أدلاء على الخير أخلاء. معهم من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المرء على دين خليله**». ومعهم من كتاب الله: ﴿**الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ**﴾.(2)

إلى ذلك الـمُقام الكريم تسوق الخُلة بين المتقين، وإلى ذلك الحُبور (وهو الفرح العظيم الدائم) تسوق رفقة الأزواج الصالحة.

في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم إنذار وزجر للنساء، في مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**إن أقل ساكني الجنة النساء**»(3)، وقوله: «**اطَّلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»(4). وعلل ذلك النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأنهن يكْفُرْنَ

(1) سورة الكهف، 28.
(2) سورة الزخرف، الآيات: 67-70.
(3) أخرجه الإمام أحمد عن عمران بن حصين رضي الله عنه.
(4) أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما والبخاري والترمذي عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

العشير. لا يحسن رفقة أزواجهن. تُقرأ هذه الأحاديث الزاجرة مع الأحاديث والآيات التي أُخبرنا فيها أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وأن من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فله عند الله الحياة الطيبة.

وتسأل المؤمنات عن السبب الذي لم يَذكر الله تعالى من أجله نعيم المؤمنات في الجنة كما ذكر ووصف نعيم المؤمنين بالحور العين المقصورات في الخيام. علم ذلك عند الله، ومن الفضول أن نسأل عما أخفاه الله عنا ورسوله. ومن الكفر وقلة الثقة بعدل الله أن تظن مؤمنة أن نعيم الرجل في الجنة أكثر من نعيم المرأة. لكل امرئٍ ما اكتسب، ولكل امرأة ما اكتسبت.

وتأتي مؤمنة أسكرها حب الله، وغمر إرادَتها الشوق إلى الله، وغيب عنها حبه الدنيا والآخرة فتقول:

ليس لي في الجِنان والنار رأي   أنـا لا أبتغـي بحِبـي بديـلا

إنها قولة رابعة العدوية الزاهدة الصوفية رحمها الله. وهي قولة من غلب عليه الحال، وهام في الجمال.

هل تجتمع إرادة الله مع إرادة الجنة؟ فإننا نقرأ في كلام أئمة صالحين مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني أن الزهد في الدنيا والآخرة خطوتان لا بد منهما قبل الطمع في النظر إلى وجه الله. تضع الدنيا خلفك والآخرة ونعيمها أيضا.

معنى هذا أنك تتقربين إلى الله بالزهد فيما حببه إليك؟ إنْ زهدتِ في حرام الدنيا، وتقللت منها، وأطعمت من سعيِكِ فيها الفقير والمسكين، فتلك قربات. أما أن تزهدي في الآخرة بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن فهو جحود وسوء أدب.

إن ما يقصده الأئمة رحمهم الله هو أن تخرجي الدنيا والآخرة من قلبك خروجا كليا. لأن القلب مُطَّلَعُ الرب جلا وعلا. وتبقى النفس وحقها وشهواتها، زين الله لها نعيم الآخرة بالوصف الدقيق وشوَّق، وحلَّى. فله الحمد وله الشكر. نسأله أن يُسعد قلوبنا بمعرفته، ونفوسنا في أعلى درجات الجنة بما وصف لنا من نعيم مقيم.

الإرادة الهابطة الحابطة مع الدنيا وزخرفها يُثاقِل بها رفقاء السوء بعضهم بعضا، كما أن الخلة في الله، وصحبة الصالحين، والصبر مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ترفع الإرادة درجة درجة إلى أن يَتعلق القلب بمولاهُ وهوى النفس بمثواهُ.

يتساءل المؤمنون السعداء في الجنة ويوجهون السؤال للمجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾.[1] «مع الخائضين» هذه أوردتهم موارد الهلاك. فلتنظر نفس مع من هي.

ويتساءل أهل الجنة في الجنة، فيقول قائل منهم: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.[2]

كادت الرفقة الرديئة تردي ذلك السعيد الذي أنقذه الله بنعمته وسابق فضله من براثن قرين السوء.

يدور الحديث فيرجع إلى رفيق وصاحب وخليل يسير معك في طريق السعادة أو إلى قرين يرديك في غياهب الغفلة، وترك الصلاة، وحرمان المسكين، والتكذيب بيوم الدين.

كان صالحون في القرون الفاضلة. فأين الصالحون في زمن الكمبيوتر والهوائيات المقعرة، والصواريخ والذرة؟ أحوج ما نكون إلى الصالحين في ضجة الدنيا وهوسها وجنونها.

إن ما ادخرهُ الله عز وجل في سابق عنايته للآخرين من هذه الأمة لَما يُكافئ صبرهم على بلاء اشتد. عظُمت المِحنة فأُحسنت المنحة. قال رسول الله صلى

(1) سورة المدثر، 41-46.
(2) سورة الصافات، 51-57.

الله عليه وسلم لأصحابه: «**إن من ورائكم أيامَ الصبر. الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر. للعامل فيهن مثلُ أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم**». أخرجه الترمذي وأبو داود. زاد أبو داود في حديثه: «قيل يا رسولَ الله! أجْر خمسين رجلا؟ منا أو منهم؟ قال: **بل أجر خمسين رجلا منكم**».

الأحاديث الـمُنبئة بأنه لن تزال طائفة من هذه الأمة على الحق إلى قيام الساعة كثيرة في الصحيح. وهذا حديث حسن رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مثل أمتي كالمطر، لا يُدْرى آخِره خيرٌ أم أوله**».

باب الكرم الإلهي مفتوح، والشرط في الأمة هو الشرط، سواء فيه أولها وآخرها. الشرط النية والإخلاص والصدق في العمل واتباع الرسول الهادي. أيُّما أمة وفت بالشرط، وأيما عبد، فالنداء الإلهي يصدق عليه. من أراد بنيته وإخلاصه وعمله واتباعه الآخرة ونعيمها فالله لا يضيع أجر من أحسن عملا. ومن سمت به العناية السابقة والهداية التي يخص الله بها من اصطفى من إمائه وعبيده فأراد وجه الله، وصبر على ذلك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، لا يبرَح الباب، يقرع ويتضرع، يدعو دعاء المضطر المنقطع إلى ربه بقلبه، فأولئك من يعنيهم الحديث القدسي الذي جاء به الترجمان صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه قال: «**قال الله عز وجل: إذا تقرب عبدي مني شِبرا تقربت منه ذراعا، وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا -أو بوعا- وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة**». رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في رواية، قال الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني. فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. وإذا ذكرني في مَلإ ذكرته في ملإ خيرٍ منهم**». الحديث.

حسن ظن بالله ورجاء فيه وطمع في قربه. وذكر. ومثابرة. وملأ أخيار. أين هم بعد القرون الفاضلة؟

القرن الفاضل قرن الصحابة. ومن بعدهم سابقون مقربون حن إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان مع أصحابه ذات يوم يزورون المقبرة. ذكَّرهُ لا شك الشهداء من أصحابه والشاهدون طوائف من خيار أمته فقال: «**ودِدْت أن قد رأينا إخواننا**». قالوا: أَوَلَسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «**أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ**». الحديث رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ناس أخيار يأتون من بعده صلى الله عليه وسلم أنزلهم منزلة الإخوان في مرتبة تحاذي مرتبة الصحابة وتقاربها. هم ناس يحبون الله ورسوله المحبة المزدوجة التي هي بمثابة الجناحين لمن أهله الله للتحليق في ذلك الأفق. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مِن أشد أمتي لي حُبا ناس يكونون بعدي، يوَدّ أحدهم لو رآني بأهله وماله**». رواه مسلم عن أبي هريرة.

اللهم اجعلنا منهم بمنك وكرمك.

الفصل الخامس

استكمال الإيمان

- بيعة النساء
- التوبة
- الحلال والحرام
- ليس منا...
- الطهارة
- أركان الإسلام
- القرآن الكريم
- الذكر
- الدعاء
- تجديد الإيمان

بيعة النساء

في الفصل الأخير كنا نحلق في أجواء الإيمان والإحسان، حين يقوَى الإيمان بالله وباليوم الآخر، ويترعرع، ويبعث على الطلب، ويوجه الإرادة إلى ما عند الله وإلى التقرب من الله.

نروم التحليق بلا أجنحة، نبني على غير أساس، إن لم نُحْكِم مبادِئ إسلامنا. إن لم نتخَلَّ عن أَوْضار جاهليتنا كيف نلبس ثوبَ الإسلام؟ إن لم نحافظ على إسلامنا أنْ تلوثهُ الملوثات كيف يصح لنا إيمان؟ إن لم نستكمل إيماننا ونجْمَعْه كيف نزعم لأنفسنا الطموح إلى مقامات الإحسان؟

يبدأ البناء، ويبدأ الترقي من عقد تعقده النساء ويعقده الرجال مع ربهم جل وعلا أن يتخلين وأن يَتخلّوا عما كان ويكون فيهم من أمور الجاهلية. يبدأ الترقي من توبة أمة لله كانت شاردة غافلة، ثم رجعت إلى ربها بتوبة صادقة. هو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطَّوْل. لا إله إلا هو إليه المصير.

كثير من المسلمين والمسلمات يتصورون الدين مرتبة واحدة. كلنا مسلمون، كلنا مؤمنون، كلنا أولياء الله، ولمكان هذه الفجوة الغائرة في العلم بما هو الدين تقعد إحداهن عُمْرَها في إسلام أعرابيٍّ سطحي، أو إيمان ملَفَّق، لم تسمع خبراً عن الإسلام وأركانه، وعن الإيمان واستكماله، وعن مقامات القرب من الله رب المنة والعطاء وشروطه.

أطلبُ إلى المؤمنات الناظرات في هذا الكتاب أن يحفظن حديث جبريل الذي بين فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمة مراتب الدين إسلاما، وإيمانا، فإحساناً. إنْ لاَ تفهم المؤمنات دينهن على أنه مدارج ومعارج للترقي في درجات الآخرة والقرب من الرب الرحيم سبحانه، بطل أمر الله تعالى لإمائه وعباده في قوله: ﴿سَابِقُوا﴾ وقوله: ﴿سَارِعُوا﴾، ووصفه للآخرة أنها درجات يفضُل بعضها بعضا، وتُستحق بالعمل الصالح والنية الخالصة والإرادة السامية.

في مُفتتح فصل «استكمال الإيمان» نرسم مع الحديث النبوي مَرامِيَ الدين في التعامل الإيماني، ثم نبدأ من أسفل السلم خطوة خطوة إن شاء الله لتُرشد المؤمناتُ من ورد عليهن بعد أن يُرشِدن أنفسهن إلى قواعد البناء ومواضع الأقدام.

روى الترمذي حديثا صحيحا انفرد به عن معاذ بن أنس الجُهني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، فقد استكمل إيمانه**».

الحديث يضع في المرتبة الأولى من الاعتبار الإخلاص. فهو يفسر الحديث العظيم الذي يعتبر من أسس الإسلام وقواعد الإيمان ودوافع الإحسان الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**». رواه الشيخان وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كان السلف الصالح رضي الله عنهم حريصين على تفهيم منهاج استكمال الإيمان. كتب عمر بن عبد العزيز إلى عديٍّ بن عديٍّ: «إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا. فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها وإن أمُت فما أنا على صحبتكم بحريص». رواه البخاري في صحيحه.

كيف يحرص على البقاء في الدنيا مؤمن ومؤمنة بذلا الجهد في ذات الله فهما ينتظران لقاءه بحسن ظن أن يغفر ويرحم؟

هاجرت إليكن معشرَ المؤمنات تائبة، فأوّل ما تبدأنها به، بعد تقديمات لطيفة، الإخبار عن بيعة النساء. قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.[1]

(1) سورة الممتحنة، 12.

كان صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين من قريش ينص على أن من هاجر إلى المسلمين يُرد إلى مكة لا العكس. وهاجرت من مكة مؤمنات ذُكِر منهن أم هانئ بنت عقبة بن أبي مُعَيْط رأسِ الكفر. فنزلت الآيات من سورة الممتَحَنة تمنع المسلمين من رد المهاجرات إلى الكفار، وتأمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يمتحنوهن ليعلموا حقيقة إسلامهن، وليعلموا هل طرحن أفعال الجاهلية وتخلين عنها. وليجدد لهم الامتحان والبيعة عقدا مع الله ورسوله أن لا يرجعن على أعقابهن لإتيان شيء من المنكرات التي نشأن عليها.

في الآية ست مرات لا، لا، لا، لا، لا، لا. لا يشركن، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان، ولا يعصين رسول الله صلى الله عليه وسلم في معروف يأمر به أو منكر ينهى عنه.

ستة تُروكٍ تَلُف أمر الجاهلية لترمي به القادمة من جاهلية أو غفلة ظِهْرِيّا. الشرك، والسرقة، والزنى، وقتل الأولاد. ما كانت نساء الجاهلية يشاركن في وأد البنات فالأمومة تمنع من ذلك، وإنما كان يفعله غلاظ القلوب من الرجال، وتصبر الأمهات ويسكتن ولا يقاتِلْنَ عن بناتهن، فعُد ذلك منهن جريمة جاهلية يستأنِفْن التبرّأَ منها عند هجرتهن.

أما البهتان الذي كانت تأتيه الجاهليات بين أيديهن وأرجلهن فهو أن تأتي إحداهن بمولود من حرام ثم تنسبه إلى بعلها كذبا وافتراء.

روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بالآية السابقة الذكر. قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قد بايعتك**»، كلاماً. قالت: ولا والله ما مست يده امرأة في المبايعة قط. ما يبايعهن إلا بقوله: «**قد بايعتكِ على ذلك**».

البيعة عقد عظيم مع الله ورسوله يرفع المسلمة إلى درجة من القيمة والمسؤولية والذمة بجانب المسلم. وتبقى أحكام مميزة لا سبيل إلى خرقها. منها مصافحة الرجال النساء الأجنبيات. المؤمنات ينبغي أن يغتنمن كل فرصة

لإثبات أصول الدين في مجتمعات مسلمة بات دينها غريبا عنها. فبدل أن تستعلي المؤمنة بحجابها وسلوكها الذي يحرم عليها مصافحة الأجانب لتثبت ذاتها زاجرة ناهرة، تتلطف لتشرح بهدوء لزوج الخالة الذي كان أَلِف منها مد اليد، وللرئيس في العمل والزملاء في المكتب أن ذلك مما ينهى عنه الشرع. بلباقة لا يتعذر معها إبقاء الصلات الودية، وبجدية لا تترك مجالا للمخالفة.

سميت بيعة النساء كذلك لورود بنودها في الآية الكريمة. وإلا فهي بيعة كان يعطيها المؤمنون أيضا من أنفسهم. روى الشيخان وغيرهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه في مجلس: «**تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**». وفي رواية: «**ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله. ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له وطُهر. ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عنه فأمْرُه إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه**».

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رفيقا بالنساء في بيعتهن. فيشرح لجماعة منهن أن غش الأزواج من شروط البيعة. وتأتيه عجوز لتبايع، فشرط عليها وعلى من معها من النساء أن لا يُنُحْن على ميتٍ. فقالت العجوز: يا رسول الله! إن ناسا كانوا قد أسعدوني على مصائب أصابتني، وإنهم قد أصابتهم مصيبة، فأنا أريدُ أُسْعِدُهم. قال: فانطلقي فكافِئيهم. فانطلقت فكافأتهم، ثم إنها أتته فبايعت.

ناس أسعدوها، أي ساعدوها في النياحة على موتاها، فيقْدُرُ نبي الله الوالد الحنون قَدْر امرأة حديثة العهد بالإسلام، فيسمح لها بالنواح مع من ناح معها لتكافئهم على عُرْف الجاهلية، انتظارا أن تستأنف البيعة عهدا جديدا، ويدخل الإيمان في القلوب ليطرد رواسب المنكر المألوف.

لم يبلُغْنا أن أحدا من الخلفاء الراشدين بايع النساء هذه البيعة الأساسية التأسيسية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالتائبات والمهاجرات من هذه

الأجيال الصالحة يرفُق بعضهن ببعض، ويرشد بعضهن بعضا إلى أهمية هذا العقد مع الله تعالى. كل منهن تعاهد ربها وتبايعه وتخافه بالغيب.

تساوى المؤمنون والمؤمنات في البيعة التي أسست الإسلام وامتحنت صحة الإيمان. وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالبيعة الجهادية. ما منع هذا التخصيص المؤمنات من المشاركة الفعالة المؤثرة في الجهاد. بل كان لهن من الوفاء والاستماتة ما لم يُسجل مثله للرجال إلا قليلا.

حضرت السيدة الجليلة سيدتنا أم عمارة نسيبةُ بنت كعب الأنصارية بيعة العقبة الثانية يوْمَ أسَّس رسول الله صلى الله عليه وسلم الكيان السياسي للأمة. بايعوه يومئذ وأم عمارة معهم ثانيةَ اثنتين من المؤمنات على أن يمنعوه إن هاجر إليهم مما يمنعون منه أزُرَهم، أي نساءهم على أن لهم الجنة. ووفت أم عمارة بالعهد أتم الوفاء رضي الله عنها.

قال ابن هشام: قاتلت أم عمارة يوم أحد. سألتها أم سعد: يا خالة! أخبريني خبركِ. فقالت: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سِقاء فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو في أصحابه، والدَّولة والريحُ للمسلمين (أي النصر للمسلمين). فلما انهزم المسلمون انْحَزْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقمت أباشِر القتال، وأذُبُّ عنه بالسيف، وأرمي عنه بالقوس، حتى خلَصت الجراح إلَيَّ.

قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جُرحا أجوف له غَوْرٌ. فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قَمِئَةَ أقْمأه الله! (أي أذَلَّه كما يدل اسم أمه على الذل).

قالت أم عمارة: لما ولّى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل (ابن قمئة) يقول: دُلُّوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا!

قالت أم عمارة رضي الله عنها: فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضربني هذه الضربة. ولكن

فلقد ضربته على ذلك ضربات. ولكن عدو الله كان عليْه دِرعان. انتهى كلام المجاهدة العظيمة.

أين رفعتك همتك ورفعك وفاؤك يا نُسيبة الخير. مع الرائد مُصعب ومع أبي دُجانة الذي كان يُتَرِّس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره يقع فيها النبل، ومع سعد بن أبي وقاص المبشر بالجنة. هنيئا لك هنيئا. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. ومن المؤمنات.

التوبة

كانت لتلك الصحابية الجليلة التي قرأنا عنها في الفقرة السابقة قوة الإيمان والوفاء، ثبَّت الله بها أقدامها فقارعت الجبابرة في موقف تزل فيه أقدام الأبطال. كان حبها لله ورسوله من العمق بحيث استهانت بحياتها ليحيى رسول الله ويحيى الإسلام. ولم تكن في الميدان وحدها. بل كان جانبها تأييد بشري يجسد أمامها تأييد الله لجنده.

وخرقت أم هانئ بنت عقبة بن أبي مُعَيط ورفيقاتها في الهجرة موانع التكتل مع العشيرة، ونصرة دين آبائها، والوفاء لذكرى أبيها. كان داعي الإيمان في تلك القلوب التي كشف الله عنها غمة الجاهلية أقوى من المثبطات.

وترِد تائبةٌ على المؤمنات في هذه الأزمنة التي عاد الدين فيها غريبا على جماعة المؤمنات، وليس معها تلك القوة التي تخرق الموانع وتثبت أمام الصدمات. قد تكون الدعوة في قطر أو بلد اشتد عودها ونُشِرَ لواؤها، فلا تجد التائبة من مقاومة البيئة التقليدية ووسوسة الفكر المعادي ما يفوق قوتها على الصمود. بل قد تبلغ الدعوة في قطر ما ومرحلة ما درجة من القوة والانتصار ما يجعل الدافع إلى إعلان المرأة والرجل ولاءَهما للإسلام أقوى من الموانع. وفي هذه الحالة يكون انضمام بعض الناس للحركة الإسلامية ضربا من النزهة أو الانتهازية أو السير مع التيار أو الإمعية السطحية.

إن المؤمنات اللواتي يُعتد بهن في الصف هن من دخلن إلى الحركة من باب التوبة إلى الله لا من باب الحماس والنضالية والإمعية حين تنتصر الدعوة ويكون المغنم الدنيوي السياسي محققا.

التائبة الواردة على المؤمنات ومعها برهان صدقها في أية ظروف، لها على المؤمنات حق التألُّف والترفق والتأييد لكيلا تكسر عزيمتَها مقاومة البيئة التقليدية.

وعلى المؤمنات في مراحل انتصار الدعوة حق للحركة أن يمتَحِنّ الواردات حتى يعرفن أية ريح جاءت بهن، فإن النفاق حرفة سياسية وعاهة إنسانية.

إن رجوع الإنسان على نفسه يشد خناقها ويحاسبها ويردها عن غيها وماضي غفلتها وعصيانها لهو معركة قَلّ مَن يقودها إلى نهاياتها منفردا. فإذا وجدت التائبة وسط الجماعة الحية من المؤمنات مَا يَريشُ جناحها ويشد أزرها من الصحبة الوَدودِ، والتوجيه الرفيق، والملازمة والرعاية، دخل جهادها نفْسَها في سياق يدفعها إلى الأمام ويُخفف عنها الآلام.

التائبة زمنَ غرْبة الدين بحاجة إلى شجاعة لمواجهة النفس بما تكره، ولمواجهة ما يقول الناس وما يعترضون وما يؤذون حين تغير المؤمنة سلوكها، وتعلن تقيدها بالشريعة، وتخرِق إجماع العادات السائدة.

إعلان التوبة اعتزاز وقوة، لا يطيق السائرون مع القطيع الذليل الخاضع للأوضاع المنحطة أن يتحملوا مشهده وخبره. إعلان التوبة استقلال، وتحد للضغوط الاجتماعية، وانسلاخ من الوَلاء لغير الله ورسوله وقرآنه وشريعته.

أول خطوات التوبة الخروج من دائرة النفاق. لا عبرة بامرأة تضع على شعرها خرقة وفي قلبها مثاقيل النفاق. النفاق من الجاهلية. النفاق جاهلية. وبيعة النساء هي عهد مع الله تعالى لا يصح ولا يدل على شيء إن كان النفاق هو الذي أمضى العَقد وسجل الوثيقة.

المنافقات والمنافقون شخصيات مزيفة، نواصٍ كاذبة خاطئة. ومن كانت على شعبة من نفاق فهي نصف منافقة، أو ربعها، أو عشرها. لم تخرج من دائرة النفاق.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدَعها: إذا ائْتُمِن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجَر**». رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عَمرو رضي الله عنهما.

في رواية: «**إذا وعد أخلف**». وعند مسلم حديث فيه آيات النفاق الـمُردية التي لا يخرج الإنسان من النفاق ما لم يدعها «ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم».

الصلاة والصيام وزَعم الإسلام فرائض وأعمال صالحة، يأتيها نفاق العامل فيفسدها. إن التي تكشف شعرها وما أمر الله بحجبه من جسدها ترتكب معصية، لكن التي تكذب الحديث، وتغدِر بالعهد، وتخون الأمانة، وتفجُر في الخصام بناؤها منهار من الأساس. الكاشفة شعرها مع السلامة من الآفات القلبية النفاقية تصيب نفسها بخدوش وجروح، أما المنافقة ومن هي على شعبة من نفاق فالجراثيم المرَضية ساكنة في دمائها، لا يخفى على الله تعالى وعن ملائكته الكَتَبَةِ ما تخون وتكذب وتفجر وتخلف الوعود.

في حديث مسلم وأبي داود والنسائي **عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من مات ولم يَغْزُ ولم يحدث به نفسه مات على شُعبة من نفاق»**. هذه مرتبة أخرى. فبعد تطهُّر المؤمنة من جراثيم النفاق الأساسية تجنَّد لمقاتلة جرثومة القعود عن نصر دين الله في نفسها وفي المجتمع. جرثومة القُعود عن الجهاد والمشاركة في نصر الدين نفاق، شعبة من نفاق.

ميّز أهل العلم بين نفاق التكذيب ونفاق العمل. نفاق التكذيب هو تظاهر المرأة والرجل بالإسلام وهما يُضمران الكفر. ونفاق العمل هو ما ذكرنا مما أخبر به الطبيب الحبيب صلى الله عليه وسلم. نفاق التكذيب يبطل الإسلام. بل هو نقيض الإسلام. ونفاق العمل تصلحهُ التوبة بشروطها.

شروط التوبة أربعة: الإقلاع عن المعصية إقلاعا كاملا، وعقد النية على عدم العودة إليها، وطلب المغفرة من الله. وشرط رابع هوَ طلب السماح من الذين أسأنا إليهم وظلمناهم وأخذنا حقهم.

هذه هي شروط التوبة الظاهرة. أما رُوحها ولبها ومعناها فهو الندم على ما فات، وتألُّم القلب، والصبر مع داعي الفضيلة، وقمع منادي الهوَى، والاكتساء

بأردية العفة، وخشية الله في السر والعلَن، وتقوى الله فيما نأتي وما نذر، وشكره على النعماء، والخوف من سوء الخاتمة.

ما سوء الخاتمة؟ هو أن تُؤَجِّل الواحدة التوبة وتتراخى فيها حتى يدركها الموت –وهو قريب منا في كل لحظة– ويفوت إبَّانُ العمل. لأن التوبة تقبل من الإنسان ما لم يُغَرْغِرْ، أي ما لم تبلغ الروح الحلقوم عند الموت. سوء الخاتمة موتة رديئة، وقبر مظلم بظلام جهنم، قبر هو حفرة من حفر جهنم، ثم سؤال ملكين غليظين شديدين، ثم افتضاح يوم العرض والنشور على رؤوس الأشهاد، أمام الخلائق. ثم الميزان والصراط والعقاب إن لم يغفر الله. نعوذ بالله.

إن هذه الطينة الإنسانية تجذبها الدواعي الشيطانية إلى أسفل، وتجذبها الشهوات، ويريد الهوى أن يستحوذ عليها. وفي القلب صَدَى نداء الملَك، وصدى نداء الرحمن. إن لم تتب العاصية من معاصيها، وتجدد التوبة فالمعاصي تنكت في قلبها نُكَتاً سوداء حتى يعود قلبها أسودَ شيطانيا.

يحب الله التوابين ويفرح بالراجعين إليه الممتنعين عن شيطانية الهوى وشيطنة الإنس والجن. ﴿إِنَّ اللهِ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطِهِّرِينَ﴾.[1] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اَللَه أفرحُ بتوبَة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوِّيَّةٍ** (قاحلة) **مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه. فوضع رأسه فنام نومة. فاستيقظ وقد ذهبت راحلته. فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش –أو ما شاء الله– قال: أرجعُ مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت. فوضع رأسه على ساعده ليموت. فاستيقظ، فإذا راحلته عنده، عليها طعامه وشرابه. فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده**». الحديث رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

اللهم لك الحمد من رب يفرح بتوبة عباده. يا فرحة مؤمنة حملها على التوبة الحياء من كرم الله قبل الخوف من عقاب الله! للنفوس الكريمة توبة كريمة.

(1) سورة البقرة، 221.

عن كبائر الإثم والفواحش تقلع المؤمنة إقلاعا تاما، ومن اللَّمَمِ والهفوات الصغيرة التي ترتكب حالة الغفلة وغلبة النفس وضعف الإرادة توبة تطهر، واستغفار وصلح مع الله. والاستغفار ذِكْرٌ لله وإقرار له بالعبودية. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر الله –وهو المعصوم المغفور له– سبعين مرة في اليوم.

باب التوبة مفتوح. يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله: «اغتنموا باب التوبة وادخلوا فيه ما دام مفتوحا. اغتنموا باب الدعاء فهو مفتوح لكم. اغتنموا باب مزاحمة إخوانكم الصالحين فهو مفتوح لكم. يا قوم! ابنوا ما نقضتم، اغسلوا ما نجستم، أصلحوا ما أفسدتم، صَفّوا ما كدّرتُم، رُدوا ما أخذتم، ارْجعوا إلى مولاكم عز وجل في إِبَاقِكُم وهربكم».

للشيخ عبد القادر اصطلاح للتوبة الكبرى التي تنقل الإنسان من عالم إلى عالم. يسميها قَلْب دولة. يَقلب الإنسان دولة نفسه فيُحكم فيها الشرع لا الهوى.

قال رحمه الله: «اهجر طبعك وهواك وشيطانك ولا تَركَنْ إليهم. إذا ثبت هذا فاجعل بينك وبين أقران السوء عداوة ولا تصادِقهم حتى يوافقوك في حالك. التوبة قلب دولة. من تاب ولم يغير ما كان عليه قبل التوبة فقد كذب في توبته.

ويقول: «توبوا بقلوبكم ثم بألسنتكم. التوبة قلب دولة. تقلِبُ دولة نفسك وهواك وشيطانك وأقرانك السوء. إذا تُبتَ قلبت سمعك وبصرك ولسانك وقَلبك وجميع جوارحك. وتُصفّي طعامك وشرابك من كَدَر الحرام والشبهة. وتتورع في معيشتك وبيعك وشرائك. وتجعل كل همك مولاك عز وجل».

قال: «تزيل العادة وتترك مكانها العبادة. تزيل المعصية وتترك مكانها الطاعة (...) فحينئذ يكون ظاهرك محفوظا وباطنك بربك عز وجل مشغولا. فإذا تَمّ لك هذا فلو جاءت إليك الدنيا بحذافيرها ومكنتك منها، وتبِعك الخلق

بأجمعهم من تقدم منهم ومن تأخر لَمْ يَضرك ذلك ولم يغيرك عن باب مولاك عز وجل».

قلت: هذه التوبة الكبرى هي يقظة القلب وتحفّز الإرادة إلى استكمال الإيمان وقرع أبواب الإحسان. اللهم تب علينا لنتوب إليك.

الحلال والحرام

تتفاوت مراتب التوبة في عمق الندم وحسرة الفؤاد وجدية العودة إلى الله، فتكون أعلاها مرتبة تلك التوبة التحولية الجذرية التي يسميها الشيخ عبد القادر «قلب دولة»، وتكون تحولات أخرى أقل جذرية وأضيق نطاقا. كذلك التوبة من الذنوب والمعاصي يتحتم الرجوع عنها والتطهر منها حسب فظاعتها وشناعتها وما تلحقه من أذى في الدنيا وخزي في الآخرة. فمن التائبين من لا يعلم مراتب الحلال والحرام وأن بعض الحرام أشد من بعض، ومنهم من يمسكه ورَعه عن المحرمات والمكروهات وخلاف الأولى، حتى إنه يَتوب إلى الله من غفلة ساعة أو نهار عن ذكر الله.

يجب أن نعلم مراتب الآثام المُغَلظة والمخففة والمكروهة، وأن نعلَم الحلال والمباح والمستحب، وما يخفف من غِلَظ الحرام أو يكرِّه الحلال. نقرأ ذلك كله بين مبدإ رفع الحرج عن الأمة الذي يمتد حتى إباحة المحظورات عند الضرورات، وَمبدإ الورع الذي يندُب من هم في سَعَةٍ من أمرهم أن يتنَزّهوا حتى عن بعض المباحات.

يجب أن نعلم حدود الحلال والحرام وحركة هذه الحدود بين خط الضرورات وفضيلة الورع. الورع فضيلة فردية وخلق ونسُك، والضرورات تعتري الأفراد وتعترض حياة المجتمع الداخلية والخارجية. لذلك لا بد من فقه الحلال والحرام ومنطقة الشبهات المتحركة بين الحلال والحرام داخل حياة الأفراد، وفي نطاق حياة الأسرة والزوجين والذرية والأقارب، وفي إطار المجتمع المحيط، وفي حدود القطر الإسلامي ما دامت دار الإسلام ممزقة، وما بين الجاليات المسلمة العائشة بين أقوام لا يحللون حلالا ولا يحرمون حراما. ثم بعد هذا وقبله نَفْقه الحلال والحرام في علاقاتنا مع العالم الواسع الذي تربطنا به الضرورة الاقتصادية والفاقة التمويلية، وتربطنا به طوعا وكرها قنوات البث الإعلامي التي تقطر حراما في حرام.

تفرض القوانين الدولية على الدولة المسلمة شروطا منافية للشرع مجافية جاهلة غير عابئة بحلال أو حرام. نأخذ الربا مثلا، وهو من أبغض الحرام إلى الله وأشده ظلما ونكرا. كيف تقيد المارد المالي العالمي الجشِع النَّهِم بقيود الحلال والحرام وهو لا يعرف الله ولا يقر له بوجود؟ كيف تكف الحكومة الإسلامية عن التعامل الربوي مع الأبناك، والصناديق، وكلوبات الأبناك الـمُقرضة، والشركات عابرة القارات، وكل ذلك رِبا في ربا، والتعامل مع كل أولئك ضرورة معاشية نتيجة لاشتباك معايش شعوب العالم؟

تختنق الحكومة الإسلامية وتفشل وتسقط وَشيكا إن هي قطعت، وأنّى لها أن تستطيع قطعا، حبالها مع السوق العالمية، ورامت إبطال هذا الباطل الربوي وطرده من حياتها. يسرع إليها الاختناق والفشل والسقوط خاصة إن كان القطر فقيرا لا يبيع نفطه للعالم بالثمن الزهيد ليستغني قوم مترفون ترف قارون ويموت البنجلادش والصومال جوعا.

من أين يبدأ تغيير المنكرات الحرام؟ من حياة الأفراد وطعامهم وشرابهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، أم من المنكر الأعظم وهو التظالم الفظيع والتفاوت الشنيع والانحطاط الـمُريع الذي يجعل الأمة فئات منها المتسولة على أعتاب الصناديق الدولية، ومنها الممولة للأبناك الربوية العالمية التي تغذي اقتصاد أعداء الإسلام وتحرِم أبناء الإسلام؟

يمكن للأفراد داخل الأسرة أن يشعروا بالخلاص من اللعنة الربوية وينْفُوا خبث الحرام من طعامهم وشرابهم وأخلاقهم. لكن الحرام المنصب من أعلى على شكل سيل ربوي جارف قد تسرب إلى كل مائدة، وإلى كل مَكْسَب، وإلى كل أجرة عامل، وراتب موظف.

الربا المنصب من أعلى لا سبيل إلى التخلص منه بين عشية وضحاها. لا بد من إعادة بناء الهياكل الاقتصادية المالية على نسق إسلامي يكون بديلا لِلأخطبوط الربوي. بديلا يمد يد التعاون بين الأقطار المسلمة الممزقة ريثما تُحرر هذه

الأقطار جميعا من هذه اللعنة العظمى، أو اللعنات، ألا وهي لعنة التمزق، وكبيرة التفرق، والإثم الغليظ المفرق بين أجزاء أمة أرادها الله واحدة، ويريدها الحرام الجاهلي أمما. أرادها الله قوية، ويريدها الإثم السياسي، والكبائر القومية، والمصالح المحرمة، ضعيفة واهية تلعب بها أمم الأرض، وتغزوها، وتُطعمها إن شاءت من فتات صدقاتها.

إن الحديث عن الحلال والحرام في أيامنا هذه التي تُهتَك فيها أمة المسلمين وأعراض المسلمات، ودماء الآلاف في البوسنة رمز هزيمة الأمة، لا معنى له إن وقف عند ما يتعلق من المنكرات بذمة الأفراد.

هذه آثامنا الماضية والحاضرة تُصَغِّرُ من شأننا وتُلجئنا إلى التعامل مع القوي الغني الظالم الصائل في الأرض المفسد فيها.

هناك حرام آخر غير الربا، حرامٌ أنواع وألوان، مشتبك مع الحرام العالمي متصل به اتصالا عضويا: نأخذ مثلا بلدا مسلما كان في قبضة الحكم اللاييكي الذي لا يعرف الحلال والحرام. نفرض أن جزءا قليلا أو كثيرا من اقتصاده كان قائما على صنع الخمور والاتجار في المخدرات.

ذمة المؤمنات ودين المؤمنين يفرضان على الأفراد طرح هذه الخبائث. أمَّا مسؤولية الحكومة الإسلامية فتملِي عليها ضرورة تسيير عجلة الدولة وتحمُّل تبعات النقص في موارد الدولة، وأن تتحاشى خسارة الأسواق الخارجية، وأن تتجنب ما يحدث ثغرات في الميزانية العامة. وأن تجد بديلا عاجلا للتجارة الحرام.

إن كان واجب الحكومة الإسلامية أن تحارب الخبائث في الأسواق الداخلية، وتلاحق التجارة الحرام، وتمحق الربا من ساحاتها بما محقه الله، فإن الضرورة المعاشية للدولة، والتزاماتها الخارجية، وديُونها الثقيلة، يعارض هذا الواجب بتوقع أزمات خانقة تهدد الحكم الإسلامي بالموت والانقراض وقطع الدابر.

إحلال الحلال وتحريم الحرام منوطٌ بذمم متصلة من الفرد المسلم، إلى المجتمع المحيط، إلى الدوائر الحكومية، إلى الدولة القطرية، إلى المصلحة

العليا الإسلامية في العالم. لكل دائرة من هذه الدوائر التزاماتها وأخلاقها وقوانين تعاملها. فلواقع التشابك بين المسلمين وغيرهم في تبادل المصالح، ولضرورة قبول المسلمين طوعا أو كرها قانون السوق العالمية إلى حين، لا يمكن عزل الحلال عن الحرام في لحظة واحدة وبضربة واحدة. نقرأ هنا مرة أخرى شريعة التدرج وضرورة التدرج. ونقرأ مع قانون التدرج خطر الاسترخاء والتسويف والتعويل على الأجيال المقبلة لتحمل عنا تبعات يمكن أن نتحملها أو نصيبا منها نحن.

إحلال الحلال وتحريم الحرام مكلف اقتصاديا، تحدث ثغرات في ميزانية الحكومة الإسلامية، وخسارة في تجارتها، واختلال في موازينها الخارجية، فيتعين إيجاد بديل عاجل حلال للحرام. ما هو استعداد المسلمين لتحمل تبعات التطهر من الخبائث؟ ما هي حدود صبرهم على انخفاض مستوى المعيشة؟ ما هي التضحيات اللازمة؟

إن كان المسلمون يعلقون آمالا على الحكم الإسلامي الذي يأتي معه بالرخاء كما تأتي الريح الباردة بالمطر حين تصادف سحابا ندِيّاً، فعتبة التحمل والتضحية والصبر وضيعة، وخيبة الآمال في الرخاء العاجل قضاء مُبْرَمٌ على الحكم الإسلامي.

لا نقنط من بركة الله وتيْسيره ورفقه، لكن نُبرِز معالم مستقبل إن لم نتبيّن تضاريسه نوشِك أن نقع في المهاوي.

ما شأن التائبة الواردة على المؤمنات، وما شأن المؤمنات بفقه الحلال والحرام على مستوى السياسة والحكم والتعامل مع العالم؟

إن الدعوة الانعزالية التي تكفر العالم وتهاجر من بَطْحائه إلى جبال الرفض هي كالدعوة التي تغُمُّ المرأة وتمنعها من المشاركة الفعالة الأساسية في جهاد التغيير الإسلامي. لا بد من فقه للحلال والحرام أوسع من التدين الفردي. ما أحله الله فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم فهو حرام إلى يوم القيامة. المؤمنة والمؤمن يتقيان الله ما استطاعا. فلا يأكلان خنزيرا ولا يشربان خمرا، ولا يسرقان، ولا

يزنيان، ولا يكذبان، ولا يخونان، ولا يخلفان وعدا، ولا يعَقان والدة وَوالدا. هذه واجبات بينة.

لكن من يُفهم الشعب أن التحول من حكم عاهر فاجر إلى حكم إسلامي طاهر له ثمن؟ من يقوم بتوعية الناس أن المشاركة في إقامة دين الله تقتضي صبرا على انخفاض مستوى المعيشة، وتحملا لضيق طارئ، وتجرعا جماعيا لكأس مُرَّة مرحلية؟ من يفعل ذلك إن كان وعي الدعاة ومكان المؤمنات من الدعوة منكمشا جاهلا بما يجري في العالم، ومن يعنيه تحمل مسؤولية الحكم إن نفضت المؤمنات أيديهن من الواجبات الكبيرة؟

تشرق أنوار الرشاد، وتهب نسائم الهداية على قلب التائبة وعلى قلب الشاب المتحمس، فما دام هو في المعارضة والرفض، وهي في متابعة خطواتها في عالم التوبة، فالحلال نور لا غبش فيه، والحرام ظلام لا نور معه.

تدفع التائبة عن طواعية، وبشجاعة، وبمعية المؤمنات المسعفات ثمن توبتها وتجافيها عن الرفقة السوء والعادات القديمة. تدفع الثمن جفاء من أليفاتها بالأمس، وتنكرا من بيئتها، وسخرية واستخفافا. ويفر الشاب المتحمس بدينه، أغرب الغرائب عنده أن تحدثه عن مسؤوليات الحكم التي تواجهك غدا بضرورات ومحظورات، إما أن تقتحمها وتتجرع غُصَصَها، وإما أن تتجنب هذا العالم الخبيث كله ليصفو لك العيش في عالم المثالية الملائكية غير المسؤولة.

من أجل تفادي البَوح بهذا الوعي الـمُر الحق، ومن أجل اجتناب مسؤولية الوقوع في المحاذير والمحاظير قال الداعية المعروف الناطق بلسان حركة إسلامية معروفة قولته الفصيحة المعبرة: لو عرضوا علي الحكم على طبق من فضة ما قبلت.

لا يكلف الله نفسا إلا وُسعها. وضِيق الأفق شيء آخر غيرُ التقوى.

ليس منا...

نعود من التطلع في آفاق المسؤوليات العامة لنبصر أين نضع أقدامنا، وأين تتعين مسؤولية المؤمنات التائبات والمؤمنين أمام الله تعالى في ترك الحرام واجتناب المنكر. من كان منجسا بالحرام لا ينتظر منه أن يطهر غيره، من تأتي الحرام عارفة بأنهُ حرام فهي آثمة. توبتها مشكوك فيها.

نفتح هذه الفقرة بالنداء الإلهي العظيم الذي رواه مسلم والترمذي عن أبي ذر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أَهْدِكُم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عارٍ إلاّ من كسوته، فاستكسوني أَكْسُكُم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفِر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلُغوا ضَرّي فتضُروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقُص المِخْيَط إذا أدْخِل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوَفّيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه**».

هذا الحديث القدسي العظيم يضاف إلى الحديث القدسي الذي يكشف الله عز وجل لنا فيه طريق التقرب إليه بالفرض والنفل، يضاف إليهما الحديث القدسي الذي يصف فيه الحق سبحانه لعبَاده مراحل التقرب إليه شبرا بشبر وذراعا بذراع. وقد سبق ذكر الحديثين في فقرات من هذا الكتاب.

الخطاب الإلهي في الحديث القدسي المروي معناه على لسان الترجمان النبي يلطف من جلال خطاب الألوهية في القرآن. فلعل تائبات مؤمنات يستجبن لرحمته، ويستأنسن برفقه من هيبة التكليف، ومسؤولية الأعمال وصرامة الحدود بين الحلال والحرام، ريثما يشتد عودُ إيمانهن. ثم إن في الأحاديث القدسية هذه عرض مفتوح على أبواب الإحسان لمن تخلين عن أوزار الجاهلية ببيعة النساء، وبالتوبة عن الهفوات البشرية.

بالانفتاح على العرض الإلهي الكريم، وباستصحاب رحمته وتعطفه وتحببه للعباد تتحول قيود الحِرمة في عين التائبة من قانون عقوبات وفصول زجر إلى سياج وقاية على جانبي طريق المتقربة إلى ربها. تكون هي أحرص الناس على احترامه والسير المسَدّدِ وَفق إشاراته.

ولا ينقص هذا من صرامة الحِرْمة في حق أحد. إنما هي أعمالنا يحصيها الرب الرقيب سبحانه، وتسجلها الملائكة، ولا تجد المؤمنة غدا في حصيلتها شيئا غير ما عملت. واحدة نجت لأنها من وعيد ربها فزِعت، وواحدة اجتهدت في الطاعات فحصدت ما زرعت، وواحدة صدقت وأقبلت ففُتح لها الباب لما قرعت. سبحان من رفع بعضا على بعض درجات.

ذلك الخطاب القدسي المتلطف لا يلغي الخطاب الجلالي في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.[1]

الحلال والحرام سياج يحمي السائرين إلى الله، ويحمي المسلمين من الضياع. طائفة سلكوا إلى ربهم السبيل مستجيبين للعرض القدسي اللطيف، وطائفة اتخذوا إلى ربهم السبيل خوفا من قوارع الأنكال. والسياج هو السياج.

(1) سورة المزمل، الآيات: 11-17.

إرادتُكِ حرة، تطيعين أو تعصين، والسياج ما هو أسلاك شائكة. إنما هو تحذيرات متفاوتة الشدة. هناك الكبائر الموبقة الطاردة من رحمة الله. وهناك أفعال قبيحة شائنة، فظيعة، أدركنا فظاعتها بالتعليل العقلي أو لم ندرك، يخوف الشرع من عواقبها بمثل قوله: «لا يحل لمؤمن»، أو «لا يدخل الجنة من فعل كذا»، أو «ليس منا من فعل كذا»، أو «لعن الله من فعل كذا». وهناك أمور منهي عنها مكروهة تتنزهُ المؤمنات عنها.

الأصل في الأشياء الإباحة والحِلّ، والتحريم استثناء. ما ضيّق الله عز وجل علينا، وإنما حمانا من الخبائث، وخلق لنا عوضا عن كل خبيثة محرمة طيبات لنستغني بالطيب عن الخبيث قال تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾.[2]

قد لا ندرك الحكمة التي من أجلها حُرِّمت علينا بعض الخبائث. فلنثِقْ بالرب الرحيم الذي يرعى مصالح العباد دنيا وأخرى إن أطاعوه.

منذ سنوات كتب باحث فرنسي نتائج فحوصه المخبرية عن مضار لحم الخنزير في ثمانمائة صفحة. نقرأ القرآن الكريم لتصافحَ قلوبَنا الرحمة الإلهية في قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.[3]

الفلاح في اتباع نور الوحي، سواء عقلنا حكمة التحريم أم لم نعقِل. سواء أدركنا لِمَ غُلِّظت الجريمة في هذا وخفّفت في ذلك. وكما يتقرب الإنسان من ربه بالفرض والنفل والطاعة، كذلك يبتعد عنه بالمعصية وخرق سياج الحرام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أيها الناس! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا،**

(2) سورة المائدة، 99.

(3) سورة الأعراف، الآيتان: 156-157.

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.[1] **وقال:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.[2] **ثم ذكر صلى الله عليه وسلم الرجلَ يطيلُ السفَرَ أشعثَ أغْبَرَ يَمُد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربُه حرام، وملبسُه حرام، وغُذّي بالحرام، فأنَّى يُستجاب له!**». رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

من الحرام المغلظ الكبائر الموبقات، وهي الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا حين ذكر الكبائر. فلما وصل إلى الزور جلس. فما زال يكرر: **ألا وشهادة الزور! ألا وشهادة الزور!** حتى قال الصحابة: ليته سكت! ذلك ليركز صلى الله عليه وسلم على عِظَم الخطيئة في شهادة الزور. في حديث متفق عليه أن الزور أكبر الكبائر. ذلك أن الزور والتزوير كذب ونفاق وقلب للحقائق، متى فشا الزور في مجتمع ضاعت الحقوق فضاع الناس جميعا.

من الكبائر قتل النفس التي حرم الله، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والفرار أمام العدو يوم الزحف، والسحر، وقذْف المحصنات الغافلات المؤمنات، واليمين الغَمُوس وهي أن يحلف يمينا كاذبة أمام القضاء ليقتطع بها مال مسلم أو مسلمة. من الكبائر شتم الرجل والديْه. سأل الصحابة رضي الله عنهم الرسول المعلم كيف يشتم الإنسان والديه؟ فقال: يسب الرجلُ أبا الرجل وأمه، فيسب أباه وأمه.

تكون ظروفٌ تزيد المحرمات غِلظا، الزنى حرام، لكنه إن صدر من شيخ لا يخفف وِزرَه فورة الشباب كان أفظع. والكذب حرام، لكنه إن صدر من مَلِكٍ ينتظر منه أن يكون أمينا على ثقة الناس كان أخزى. وهكذا. في صحيح مسلم أن أصنافا من العصاة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يكلمهم، ولهم عذاب أليم. منهم الـمُسْبِلُ (المختال المتكبر الذي يجر ثيابه)، والمنّان، والمنَفّق سلعته بالحِلف الكذب، والشيخ الزاني، والملك الكذاب، والعائل المستكبر، ورجل

(1) سورة المؤمنون، 52.
(2) سورة البقرة، 171.

في فلاة معه ماءٌ فائض عن حاجته يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايَع إماما لا يبايعه إلا طمعا في عطائه: إن أعطاه وفّى له، وإن لم يعطه لم يَفِ.

من الذين توعدهم الشرع بالنار رجال يتخوّضون في مال الله بغير حق.

بهذا تدخل الخيانة السياسية في العهود والأموال في نطاق الكبائر المغلظة.

أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا يدخل الجنة الجَوّاظُ (البخيل المَنُوع)، ولا الجَعْظَرِيُّ (الفظ الغليظ). ولا يدخل الجنة قاطع رَحِم. ولا يدخلها النمام، ولا من كان في قلبه مثقال حبة من كِبْر، ولا المنان، ولا العاق، ولا مدمن الخمر.

وفيما يخص النساء أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا يحل لمسلمة أن تسافر فوق ثلاث ليال إلا ومعها ذو مَحرم.

وأخبر أنه ليست منا من نزعت ثيابها في غير بيتها فهتكت ما بينها وبين الله. وليست منا من تضرب الخدود وتشق الجيوب نياحا على ميت. وليست منا من تدعو بدعوى الجاهلية: أي تدعو لعصبية قومية أو قبلية أو إديولوجية منافية للإسلام. وليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا من رجل أو امرأة.

وجاء التحريم بصيغة اللعنة في حق بعض العاصيات، لَعنة تلحقهن بالكافرين الملعونين، وبإبليس الملعون، وبآكلي الربا الملعونين.

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم باللعنة على الواصلات وهن اللواتي يصِلن شعَرهُن بشعر مستعار. فهو تزوير وتزييف وكذب.

ودعا صلى الله عليه وسلم بلعنة الله على الرجُلة من النساء، وهي التي تتشبه بالرجال في لباسها وتصرفها. فهي مزورة تتنكر لأنوثتها، كما يتنكر لذكورته المخَنث من الرجال الذي يتشبه بالنساء. ولعن صلى الله عليه وسلم «المختفي والمختفية» وهما نباشو القبور. إن كان للسرقة فشناعة، وإن كان للسحر فهي طامة كبرى.

ولعن صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والنامِصَة وهي التي ترقق الحواجب، والمستنمصة، والمتفلّجَة للحسن، أي التي تبرد بآلة ثناياها لتظهر بينها فلْجَة تزيد مظهر أسنانها حسنا. وكذلك لعن النائحة والمستمعة للنواح.

هناك منهيات لم نستقصها في هذه الفقرة، كالتجسس، والرشوة، وهجر المسلم، والغيبة، والتنابز بالألقاب، والتبذير، والإسراف، والقمار، والغش، وتطفيف المكيال والميزان.

الوَرعَة من المؤمنات تتعلم حدود ما أحل الله لكيلا تقع في شبهة أو حرام.

الطهارة

قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[1] لهذا المنع والزجر والتخويف من المعاصي غاية سامية تتجاوز المصلحة الدنيوية التي تحصل مثلا في تجنب أكل الخنزير الذي كتب الباحث في أضراره ثمانمائة صفحة. لهذا المنع والزجر والحظر أهداف اجتماعية اقتصادية سياسية مؤكدة، لو ساد احترام حدود الله، وسادت شريعة الله لصَلُح على ذلك وبذلك ما لا يصلح بغيره. وإن سمُوَّ الوازع الإيماني القرآني الذي يزجر ضمير المؤمنات والمؤمنين عن ظلم الناس، وغصب حقوق الناس، وإلحاق الضرر بالناس، لا يحتاج إلى تنويه. ولا يقارن بالزاجر الخارجي وعقاب القانون.

كل هذا حق. لكن الغاية العُظمى الـمُثلى من فرض الفروض ومنع المحرمات هي تطهير الأمة لتكون في العالمين شاهدة بالحق، وأعلى من هذه الغاية وأبقى تطهير المؤمن والمؤمنة طهارة تصقل كيانه الروحي ليصلُح للسعادة الأبدية.

طهارة هُو المسؤول عن تعهدها في أحواله، يحبه الله إن تطهر، ثم تطهر، ثم تطهر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.[2] توَّاب صيغة مبالغة. وتطهر صيغة استقصاء وتتبع. في آية أخرى: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِين﴾.[3] اطَّهَّر صيغة اجتهاد وتكرار.

إن كانت طهارة القلب وصفاؤه هما الغاية، فإن طهارة الجسم جزء لا يتجزأ من عملية التطهير. طهارة الخبث وطهارة الحدث من وضوء وغُسل، ثم طهارة المكان شروط للصلاة، لا تصح إلا بها. تكون حركات الصلاة سخرية بالدين

---

(1) سورة المائدة، 7.

(2) سورة البقرة، 220.

(3) سورة التوبة، 109.

إن لم تتقن المصلية طهارة بدنها إتقانا يبدأ بالنية، ثم بطهارة الماء، ثم بالكيفيات الواردة في الشرع مما تكمل به الطهارة، أو تَحْسُن أو تنتقض.

الصلاة عماد الدين، فلا دين لمن لا صلاة له. والطهارة مفتاح الصلاة، لا صلاة لمن لا طهارة له. لا دين لمن لا يهتم بجزئيات الطهارة اهتمامه بكليات الدين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مفتاح الصلاة الطُّهور. وتحريمها التكبير. وتحليلها التسليم**». أخرجه أبو داود والترمذي بسند صحيح عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

يطغى على التائبات المقبلات على الحركة الإسلامية كما يطغى على التائبين الاهتمام بالثقافة الإسلامية العامة، وتهمل الفقهيات العبادية. تطغى الأمية الفقهية على العباد، فكأن لسان حالهن يقول: نحن مجاهدات تجاوزنا هذه الأبجديات. تعبث بدينها من لا تتقن «أبجديات» الدين.

من تجاوزَ فرائض عباداته من رجل أو امرأة في أساسياتها فإنما هو دخيل في الحركة الإسلامية، مغبون، مغرور.

الطهارة البدنية في حد ذاتها هدف إيماني. وهي متى اكتملت شروطها الشرعية وسيلة إلى الطهارة الكلية القلبية. لا تفتَح طهارة بدنية ناقصة باب الصلاة وباب الدين وباب الإيمان وباب الإحسان كما لا يفتح الأقفال مفتاح مقطوع الأسنان. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الوضوء والطهارة، ويعلم النساء ما يخصهن في ذلك من أحكام.

تُعذر الجاهلة البعيدة من الدين إن زعم لها شيطانها، أو زعمت لنفسها أن قلبها لا يحمل نجاسة فلا حاجة بها لطهارة ووضوء وهي النظيفة المتعطرة تغسل في حمامها كل يوم. لكن لا تعذر المؤمنات إن لم يعلِّمن بدقة أنفسهن والتائبات الواردات عليهن فقه الطهارة، ومكانتها الأساسية في استكمال الإيمان.

«**الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماء والأرض. والصلاة نور. والصدقة برهان. والصبر**

ضياء. والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغْدو: فبائع نفسه فَمعتقُها، أو مُوبقها». حديث نبوي رواه مسلم والترمذي والنسائي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

في رواية عند الترمذي: «**الطهور نصف الإيمان**». في روايات أخرى: «**الوضوء نصف الإيمان**». أهي طهارة البدن تعدل طهارة القلب، فهي نصفها، وبهما معا يكمل الإيمان؟ أيّا ما كان فطهارة البدن آكد ما تبدأ به من تحب أن تكون من المتطهرين المطَّهرين الذين يحبهم الله.

قصة عن سيدنا الحسن وسيدنا الحسين سِبْطَيْ الرسول صلى الله عليه وسلم ورَيْحانتَيه وسيّدي شباب الجنة. تقول القصة إن السيدين الجليلين رأيا وهما طفلان رجلا لا يحسن الوضوء. فاتفقا على طريقة لطيفة لكيلا يجرحا كبرياء الرجل. قالا له: يا عم! يزعم هذا أنه يحسن الوضوء وأني لا أحسنه، فنرجوك أن تنظر إلينا، وأن تحكم بيننا. فتوضآ أمامه أحسن ما يكون الوضوء. وفهم الرجل وقال: يا بني أنا عمكم الجاهل لا أنتما.

صحت القصة أوْ لم تَصح. نستخرج منها درسين مهمين: أولهما أن تنشئة الأطفال على معرفة الدين وتوقير الكبير قاعدة تربوية إسلامية، والثاني أن النفس البشرية قبل أن تُرَوِّضَها صحبة الأخيار تأنف من الاعتراف بالجهل، ومن طلب العلم، ومن تلقيه من الغير. قبل أن تروّضَ الصحبة التائبة على قبول النصيحة والمحاسبة يؤخذ بِيَدِ أَنَفتها برفق. وتُعلم من طرف خَفي بالمثال والتذكير العام.

بعد الطهارة البدنية السهلة القليلة الكُلفة، تطهير الذمة من الآثام والعادات الرديئة. تكَمَّل الطهارة الشرعية بالنظافة العُرْفية. وإن عادة النظافة والتجمل في البدن والثياب والهيأة لمما يجب أن ينشأ عليه الأطفال ويواخذوا عليه ويتابعوا. على النقيض من العادات الوسخة، هناك تكلُّف الزينة عُجْباً وكبرا وإعجابا بالجسم، أو وسوسة ومبالغة. وكلا الأمرين ذميم.

تأتي التائبة من أفق اجتماعي قد تكون فيه رثاثة الهيأة وقلة العناية ووساخة المظهر ناتجة عن قلة ذات اليد وبؤس المسكن. وقد تأتي من وسط مُترَفٍ تفيض فيه أموال الحلال أو الحرام فيضا، وتعتاد فيه الجسوم رفاهة وزينة ونوعا رفيعا من الكسوة.

تجتمع هذه القلوب التائبة على الولاء لله ورسوله، وعلى الرغبة في المشاركة والحركة والجهاد. لكن الهوة الساحقة بين الطبقات الاجتماعية كما حفرتها الفتنة وكما صنعها القانون اللاييكي الذي يبيح للرأسمالية هذا التفاوت الفظيعَ، لا تسوَّى بالعواطف الرقيقة والنيات الطيبة وتوبة الأفراد الجامعة. فتنفر التائبة من وسط مترف مما تراه من رثاثة أختها التائبة من وسط فقير. وتجفُل الأخرى من فَراهة حال الفارهة.

نظافة الجسم لا تهاون فيها. والماء والصابون وأجرة الحمام أسبق النفقات بعد بلغة العيش. وتستدرج الأخرى التي ألِفت أن يدفع أهلها ثمن عطور باريز بتبذير وإسراف، لتساهم في تخفيف وطأة البؤس عن أخواتها ريثما يسود العدل الإسلامي يوما من أيام مستقبلِ جهادٍ مشترك جامعٍ لجهود المؤمنات.

ما هو المطلوب شرعا من المؤمنات بعد الطهارة والنظافة؟ من الناس من يظن أن التقرب إلى الله لا يمكن إلا بإهمال المظهر، وتكثيف الحجاب، ولبس الأسود الأغبر. ومن الدعاة المتشددين الشاذين من يرغب أن تلبس المؤمنات مُسوحا من الجلد أو من مادة صلبة كما كان يلبس الرهبان. ومن الناس من يقرأ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله جميل يحب الجمال**» (الحديث صحيح رواه مسلم وأبو داود عن عبد الله بن مسعود في شأن الرجل يحب أن تكون ثيابه جميلة). يقرأ هذا الحديث فيستبيح من التجمل ما يتجاوز به الحد.

تتجمل الزوجة لزوجها في البيت ما شاءت. تلك فطرتها، وحقها الشرعي، وواجبها في حسن المعاشرة الزوجية. وتقرأ المؤمنات، بل يحفظن، سورة النور

وتفاسيرها ليقفن على الزينة الظاهرة التي أباح الله لهن إظهارها، وعلى التي لا تظهر إلا للأقارب المحارم.

أما في اللقاء العام، ومجالسة النساء للنساء والرجال للرجال في مجالس الإيمان، وكذلك في بروز المؤمنين والمؤمنات في مجالات المعاش، فالمظهر السني ما كان بين التفحّش والرفاهة. توسط جميل بين رذيلتين.

«**البذاذة من الإيمان**». هذا الحديث رواه أبو داود وابن ماجة عن أبي أمامة الحارثي عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفسر البذاذة بعض أهل العلم بما جاء في بعض الأحاديث من تحسين حال الأشعث الأغبر ذي الطِّمْرين الذي لا يؤْبَه له: والذي لو أقسم على الله لأَبره. ومن المغالاة في تفسير أحاديث البذاذة والطِّمْرَين نشأت الزهادة والدروشة.

السنة ما جمع بين أطراف الحديث. فإلى جانب حديث «**البذاذة من الإيمان**»، نجد أحاديث تحث المسلمين على إظهار نعمة الله عليهم. روى الإمام أحمد والنسائي عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وَعليَّ ثوبٌ دُونٌ. فقال لي: **ألك مال؟** قلت: نعم. قال: **من أي المال؟** قلت: من كل المال أعطاني الله. من الإبل والبقر والغنم والخيل والرقيق. قال: **فإذا آتاك الله مالا فَلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامتِه**». الحديث صحيح.

في حديث عند الإمام أحمد تُسمَّى المبالغة في التقلل والتخشن تَفَحُّشاً. حديث يقول فيه أبو الدرداء: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لنا: «**إنكم قادمون على إخوانكم، فأَصْلحوا رِحالكم ولباسَكم حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة. فإن الله عز وجل لا يحب الفُحش ولا التفحش**».

الشامة بقعة متميزة بلونها وسمتها وهيئتها. تظهر آثار الطهارة والنظافة الظاهريتين لكل ذي عينين. ويميز الله تعالى إماءه المؤمنات وعباده المؤمنين المتطهرين قلبا وقالبا بنور يشع من القلوب فينعكس على الوجوه. وتلك سيما

الصالحات والصالحين التي قال عنها المولى عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.[1]

وعلى وجوه المنافقات والمنافقين تنعكس ظلمة القلوب. قال مولانا عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبْداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه. وقال أمير المؤمنين عمر: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة. إنك أنت الوهاب.

(1) سورة الفتح، 29.

أركان الإسلام

تائبة تتطهر وتصلي لربها تخرج من عالم إلى عالم، يمحو الله عنها الخطايا إن شاء فهو العفو الغفور. روى الشيخان عن مولانا عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن تَوَضَّأَ وُضوءه هذا، ثم يُصلي ركعتين لا يحدث نفسه فيهما بشيء، غُفِر له ما تقدم من ذنبه**». وروى مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما من مسلم يتوضأ فيُحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلا عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة**».

مَا يجعل إفاضة الماء على الأعضاء طهارة ووضوءا هو النية والاقتداء بالشارع في الكيفيات، وما يجعل حركات الصلاة صلاةً مقبولة مشكورة هو إقبال القلب والوجه على الله عز وجل.

من ترك الصلاة فقد أعرض عن ربه عز وجل بوجهه وبقلبه، فخرج بذلك من دائرة الإسلام، وعُدَّ من الكافرين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة**». في رواية: «**بين العبد وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة**». رواه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد. وفي حديث لأحمد وأبي داود والنسائي عن بُريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**».

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئا من الأعمال تركُه كفر غير الصلاة، كما روى ذلك الترمذي. ونقل عنهم المنذري الإجماع في كفر من أخرج الصلاة عن وقتها متعمدا.

واختلف العلماء في كفر تارك الصلاة هل هو كفر مِلة أو كفر نعمة. تشديد يزجر به المتهاونون، وتخفيف على من يُخشى عليه اليأس من رحمة الله والإصرار على ترك الصلاة.

دخلنا بالصلاة في صلب الإسلام وأركانه. الإسلام أساس الدين، له أركان خمسة هي هيكل الدين. لا دين لمن خَرِبَ ركن من بيت دينه: «**بني الإسلام على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان**». حديث نبوي متفق عليه من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

عماد بيت الدين الصلاة. أمة الله عرفت ضعفها وافتقارها لربها وعظمة هذا الرب ورحمته بعباده فأقبلت عليه تعبده بقلبها وجوارحها ممتثلة خاضعة. أي سعادة هذه أن يكتشف المخلوق أن له خالقا قريبا سميعا مجيبا!

إنها يقظة قلبية نفيسة تلك التي تمسح عن القلب ما يغطيه من صَدَإِ المعاصي والغفلات والجهل بمعنى الإنسان ومصيره ووجوده. احتلت المصطلحات الفلسفية، والمذاهب الفكرية، والهموم المعاشية، وصخب الحياة اليومية كل بقعة في عقل إنسان العصر الذاهل الغافل. واحة الإيمان في قلبِكِ لو كنتِ تعلمين! أية فرحة يوم ترشد المؤمنة أختا لها تائهة في صحراء الحياة، منقطعة وسط العلاقات النفاقية الضوضائية، إلى الصلة بالله عز وجل، وإلى شرف الوقوف بين يديْه ومناجاته من قريب!

كان عُتبة الغلامُ رجلا زاهدا معروفًا بوقاره. ذات يوم رأوه يتمايل ويرقص فرِحا. سألوه ما القضية؟ قال: كيف لا أفرح وقد علمت أن لي ربا!

هذه الشياه البشرية التائهة في صحراء حضارة الأشياء، وضجيج الإعلام، وصخب الراقصات على حِراب البؤس وأشواك اللذة البهيمية، المخيبة للآمال، الساقطة بالإنسان عن مستوى إنسانيته، أية فرحة وأية بشارة تحملها المؤمنات إليهن إن ساعدنهن على قطع مراحل قطع حبال الجاهلية، ثم العقد مع الله والبيعة والتوبة، ثم مقاطعة الحرام، ثم الطهارة، ثم الوقوف بين يدي المولى العزيز الحميد وقفة النادم المنبعث إلى حياة الروح بعد الموت، وإلى خصب الحياة بعد الجدب، وإلى عزة الإسلام والطاعة بعد ذل الكفر والمعصية!

قالت المذهبيات الفلسفية، وقالت الثقافة المادية السائدة، وقال معها الفكر الملحد المنهزم: الصلاة رياضة، والزكاة ضريبة، والصيام صحة، والحج مؤتمر سياسي. أما البائسات في الفقر والجهل وأحياء الصفيح فقد أسكت البؤس، أو يوشك أن يسكت، كل صوت يحن في الأعماق إلى الإسلام حق الإسلام، وإلى الإيمان واستكمال الإيمان.

الصلاة تمسك بيد الشاة التائهة لتقيمها على الطريق: القبلة يُقام إليها وجه الجسم، الكعبة جسمانية مقدسة نمتثل أمر الله عز وجل الذي جعلها وِجهةً مفروضة لجسمانيتنا. أما القلب فوِجهته إلى الله وخشوعه إليه وسكونه. يشترك العقل في الصلاة بتفكره، واللسان بتلاوته، والأعضاء بسكونها وانضباطها، والقلب بانصبابه على باب مولاه، تقواه وأشواقه وخضوعه هي مؤهلاته وشفيعته.

يربى الأطفال على الصلاة ويؤمرون بها لسبع سنين ويضربون عليها لعشر.

أما صبيان الإيمان وصَبِيَّاته من التائبين والتائبات فأمامهم وأمامهن مسافات قلبية، يطويها الله لمن يشاء، لكي تصبح صلاتهم مناجاة كما وصفها الحديث القدسي العظيم. روى مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل** -في رواية: **نصفها لي ونصفها لعبدي**- **فإذا قال العبد: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله: مجدني عبدي -وقال مرة: فوض لي عبدي- وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سَأل**».

تجمع الصلاة المسلمات والمسلمين، فتعطي للجسم قبلة، وللقلب مَحَط أشواق وعبادة، وللوقت نظاما يُخرج المصليات والمصلين من زمن سائب تائه

إلى زمَن معالمه أوقات الصلاة. فنهار المصليات والمصلين وليلهم يوم مَحكوم له معنى يتجاوز آليات المعاش الجسمي ووتائره.

وكذلك الزكاة والصوم والحج يكون ميقاتها معالم في سنة المؤمنات والمؤمنين.

تنعقد الأخوة بين المؤمنات والمؤمنين بالتوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وتكاد الفريضتان لا تذكران في القرآن إلا مقترنتين. أخوة تُنبئ عنها الآية الكريمة: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.[1]

المال مالكِ ما دمتِ غافلة عن الله. يوم تتوبين وترجعين إلى ربك واقفَة أمام عظمته، معترفة أنك أمة مربوبة، تدركين ويعلمك القرآن أن الأمة أمته، وأن المال ماله. لك منه مسؤولية الكسب من الحلال، وعليك منه حق هو نصيب أخواتك وإخوانكِ من مال الله. ويتفضل عليك المولى بالجزء الأعظم من هذا المال لتنفقيه في ضرورياتك ونفقاتك. تنفسحين في النفقة على الكماليات فيذهب كل ذلك سُدىً إن كان من حلال في حلال، أو تبذرين في حرام وتمنعين الزكاة فتُكوى بذهبك وفِضتك بعض الجباه العاصية وبعض الجنوب الـمُخلدة إلى الأرض في شحها.

الزكاة صدقة واجبة لها مقاديرها الشرعية ومواقيتها. والصدقة التطوعية نافلة يقبلها الله بعد الواجبة. ويا ما أعظم كرم المولى الذي خلق ورزق ونسب إليك ماله الذي أعطاكِ، ثم يسألكِ أن تعطي في سبيله، ويتلقى عطاءكِ بيده!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما تصدق أحد بصدقة من طيب –ولا يقبل الله إلا الطيب– إلا أخذها الرحمن بيده، وإن كانت تمرة. فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من جبل، كما يُربي أحدُكم فُلُوَّه أو فَصيله**». متفق عليه من حديث أبي هريرة.

نؤمن بما نسب الرحمن إلى نفسه ونسب إليه رسوله من يد وكف وقدم وغير ذلك، دون أن نسأل عن الكيف. ونفهم أن الصدقة من طيب تلقى قبولا منه

(1) سورة التوبة، 11.

سبحانه. يربيها وينميها للمنفقة في سبيله والمنفق كما يربي أحدنا الفُلُوّ (وهو المُهر ولد الفرس) أو الفصيل (وهو ولد الناقة).

في السنة الإسلامية فَصٌّ يزين الزمن كما تزين الحُليَّ الجواهرُ النفيسة. إنه شهر رمضان عيد السنة كما هي الجمعة عيد الأسبوع. ولعمر المسلمة فصٌّ هو عام حجها. شهر رمضان شهر البركات والخيرات والتوبة وتجديد الصلح مع الله وطلب غفرانه وإحسانه وعِتْق رِقابنا من النار. شهر يفطِم الجسمَ عن طبعه من شهوة الطعام، وحاجة الشراب، ولذة الجسد، لتعرف المسلمة الجوع والعطش ولتتعلم ضبط نفسها وإلجامَ هواها. ولتتحكم في أوصافها الحيوانية لتسمُوَ الروح وتتطهر، ولتتدرب المؤمنة على تغليب الأوصاف الملائكية مستقلة عن جاذبية الطين.

سمو روحي يقترب بالصائمة حق الصيام من الملإ الأعلى. حق الصيام هو كف الجسم عن الماديات الممنوعة شرعا، وكذا الجوارح واللسان عن المعاصي، وشغلها بالعبادة لتضفي على القلب روحانية تنسيه أثقال الأرض ليتعلق بمعاني السماء. عن هذا الصيام الكلي يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فهُو لي وأنا أجزي به**». الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحج حركات حسية في أماكن ومبانٍ مقدسة تتعلق بجسمانيتها جسمانيتنا، وبمعناها المقدس الخفيّ عنا معنانا وقلبنا وأشواقنا وروحنا. شعائر وحركات للتعظيم، يأتيها المسلمات والمسلمون من مختلف جهات الشوق، وبقاع الأرض، وألوان الخلق، ودرجات الإيمان. فيُفيض الله تعالى رحمته على العباد، ويغفر الذنب، وتَخرج الحاجة المقبولة بيضاء الصفحة جزاء بما أذعنت وأطاعت ورضيت وفرحت بأعمال تقصر الأفهام عن إدراك مغزاها. ويرفعها الامتثال وروح العبودية في الطواف والسعي والوقوف بعرفة إلى الدرجة العليا من القربات.

ويَخْزَى الشيطان أشد الخزي يوم عرفةِ لما يرى من سَعة رحمة الله، كما يخزى لسماع «لبيك اللهم لبيك» استجابة المؤمنات والمؤمنين لنداء مولاهم.

عبادة هي من أسمى العبادات تجمع المسلمات والمسلمين على صعيد واحد ليتعارفوا ويتشاوروا، ويشهدوا منافع لهم. شُعْثٌ غُبرٌ تجردوا لله عن حولهم وقوتهم وجاءوه يجأرون إليه بالدعاء والتلبية، والتمسح بكسوة بيته، وتقبيل حجره الأسود المقدس.

القرآن الكريم

تقرئين أخت الإسلام في صلاتك بأم القرآن وفاتحته وعنوانه ومقدمته، تقولين: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين لتعلني ولاءَكِ المطلق وحمدك الشاكر لربك العظيم رب العالمين، له الأسماء الحسنى والصفات العُلَى. ثم تتقدمين بطلبك أن يهديكِ ويُدرجَكِ في مدارج الذين أنعم عليهم لتسيري على الصراط المستقيم. ثم تتبرئين وتستعيذين من أعدائه المغضوب عليهم والضالين.

هذا خضوعُكِ لمولاكِ، وطلبُكِ الدائم منه، وهمُّكِ المقيم. وهذا صراط الاستقامة والعبودية الذي خطه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل قوله من حديث رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما قال عبد قط إذا أصابه هم وحزَن: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجِلاء حَزَني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحا**». فقلنا: يا رسول الله! ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات. قال: «**أجَلْ! ينبغي لِمن سمعهن أن يتعلمهن**». تقولين: اللهم إني أمتك وابنة عبدك وابنة أمتك...

الخاصِّية الإلهية النبوية التي أودعها الله تعالى في هذا الدعاء الاستشفاء من الحزَن والهم، ومثلها من خصائص الأذكار والأدعية والآيات والسور، مما تتعلق به نيات المسلمين لقضاء أغراضهم الدنيوية. وهو أمر مشروع، وأسرار حقيقية، ودرجة من درجات تعامل المولى عز وجل بلطفه مع عباده وإمائه. في القرآن والأدعية المأثورة والأذكار الخاصة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم شفاء

لما في الصدور. تسمع المسلمة والمسلم قول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾،[1] وقوله جل شأنه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾،[2] ويسمع مثل هذا الحديث النبوي الشافي، فيصدق، ويمتثل، ويستشفي بالآية والدعاء والذكر لأمراض جسده، لا يتجاوز ذلك.

ذلك حظها إن لَم يَرتفِعْ فهمها لتعلمَ أن الذي في الصدور هو القلب، وأن الاستشفاء بالآية والدعاء والذكر الخاص من أسقام الجسد إنما هو رخصة وصدقة على العباد لا ينبغي أن تعطل ولا أن تزاحم أسباب الاستشفاء من أسقام الجسم التي وضعها الله عز وجل ضِمْن سنته الكونية.

وعلى المؤمنات أن يحترسن غاية الاحتراس من المتجرين في الخرافات الذين يوزعون الأدعية والأحجبة. لا يُسمع كلام مَن يتجر في آيات الله، ومن «يعطي» أذكاراً من عنده للتبرك. فإن الحدود الفاصلة بين ذلك وبين السحر لا تتبيّنها العين المجردة.

تأخذ المؤمنات ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما يخصص هذه السورة وذلك الدعاء، يستشفين به من الأسقام النفسية، فما مثل القرآن والذكر شفاء لما في الصدور، وجلاء لهموم الدين. يأخذن عنه صلى الله عليه وسلم النصائح التي تكشف عن أنوار بعض السور والآيات ليجعلنها في مكان الأسبقية في الحفظ والاستظهار والتلاوة، طالبات بذلك عطاء الله كاملا، وجزاءه مُوَفّىً شاملا. أجزل عطائه سبحانه وأوفى نِعمه وأشملُها عافية القلب من عاهاته. فاتحة الكتاب قال عنها رسول الله صلى الله عنها وسلم: «**هي أعظم سورة في القرآن، وأنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه**» (البخاري). ونزل عليه صلى الله عليه وسلم مَلك بشّرَهُ بأنه أوتي نورَين لم يؤتَهما نبي قبله: الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، وأنه لن يقرأ بحرف منها إلا أعطيه (مسلم). خواتيم البقرة من قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ...﴾ إلى آخر السورة.

(1) سورة يونس، 57.
(2) سورة الإسراء، 82.

وأمر صلى الله عليه وسلم أمته أن تقرأ الزهراوين البقرة وآل عمران، لأن في البقرة بركة، ولأن الزهراوين تحاجان عن صاحبهما يوم القيامة (مسلم).

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن أعظم آية في كتاب الله آية الكرسي (مسلم). وأخبر أن من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصِم من فتنة الدجال (مسلم). وأخبر أن سورة تبارك شفعت لِرَجل حتى غُفر له (أبو داود والترمذي). وأقسم صلى الله عليه وسلم على سورة الإخلاص ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ قائلا: «**والذي نفسي بيده! إنها لتَعْدِلُ ثلث القرآن**». (البخاري). وقال صلى الله عليه وسلم عن المعوذتين: «**ألم ترَ آيات أنزلت هذه الليلة لم يُرَ مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾** ». (مسلم).

وجاءت أحاديث أخرى عن سور وآيات تتفاوت درجات صحة روايتها.

الذي يحصل لنا أن في القرآن الكريم، وكله نور، سورا وآيات فضليات تحرص المؤمنة على حفظهن وتلاوتهن يوميا، التماسا لبركتهن، وتقربا بهن إلى المولى الكريم. فما ناجته أمة أو عبد بمثل كلامه المقدس.

أي جَدْب تعانيه النفوس الجافية الغافلة اليابسة!

عاشت عُمْرا ما فتحت المصحف! ما تطهرت يوما لتمسكه بيدها وتقرأ فيه آية! هجرت كتاب ربها وقرأت روايات الغرام، وقصص الخيال، ورنت آناء الليل وأطراف النهار إلى صور التلفزيون وعهارة تتسلل من الهوائيات. هل سمِعت الغافلة وسط ضوضاء العالم أن لها ربا اعتنى بخلقه، وبعث إليهم رُسلا، وأتم نعمته على من استجاب لدعوته من العباد برسالة؟ من قرأ هذه الرسالة؟ من فتح دِفّة هذا الكتاب؟

شمعة أطفأتها الرياح الهُوجُ تهب على النفوس الخابية من ذات الشيطان الموسوس في الصدور، ومن ذات الشيطان المتحضر، المتبرج بزينة الدنيا. تهرب البائسة الغافلة عن هم الآخرة بهم الدنيا إلى صور مجتمعات الاكتظاظ لتحظَى بساعة أحلام استهلاكية. وتلك البائسة الأخرى المترفة في زينتها وثقافته

وفلسفتها المادية شغلها عن قراءة رسالة ربها قراءة المجلات الورقية الصقيلة والأخرى عابرة القارات على جناح الأثير.

جدب أنى له أن يصبح القرآن ربيع قلبه! وانطفاء ما له من نور إن وضع المصحف على الرف!

تتوب واحدة وتسمع أن الدعاء النبوي يكشف الهم ويذهب الحزن. فتقرأه تعويذة من التعاويذ، لا تتمعن فيه. الدعاء يُسأل الله به أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا. ما دامت التائبة تقرأ الدعاء وتهجر القرآن تلاوة وحفظا ووِرْدا يوميا فهي لم تخط الخطوات الضرورية ليكون القرآن ربيع قلبها. الخطوات التلاوة والحفظ والمداومة. ويذهب الحزن وينجلي الهم متى طرد ترتيل القرآن أشباح الظلام من القبر الخامد المنطفئ الأنوار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر. إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**». رواه مسلم عن أبي هريرة.

أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلوَ القرآن وأن يخبرنا بذلك لنتلُوَ القرآن فيصحَّ إسلامنا: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾.[1] وأمرنا صلى الله عليه وسلم بحفظه وتعهده لكيلا ننساه فيصِحّ علينا قوله تعالى لمن نسي آيات الله: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾.[2] روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تعاهدوا هذا القرآن. فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبِلِ في عُقُلها**».

وشجعنا صلى الله عليه وسلم على حفظه واستظهاره ووعدنا على ذلك الوعود الكبرى. قال: «**الماهر بالقرآن معَ السَّفَرةِ الكرام البررة. والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**». رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها. وروى الترمذي بسند صحيح عن الإمام علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى

(1) سورة سورة النمل، الآيتان: 92-93.
(2) سورة سورة طه، 124.

الله عليه وسلم قال: «**من قرأ القرآن فاستظهره، فأحل حلاله، وحرم حرامه أدخله الله به الجنة، وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار**». وصية بتعاهده تُفهِم أن الأصل أن يحفظ المسلمون كتاب ربهم. ثم هذا الجزاء الكريم للحافظ وأهل بيته.

جاء عند الإمام أحمد وابن ماجة والحاكم بسند حسن عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أهل القرآن أهل الله وخاصته**».

هل لله تعالى من العباد المؤمنين والمؤمنات خاصة اصطفاهم وقربهم؟ نعم، هم الأخيار وأخيار الأخيار المتمسكين بالعروة الوثقى، المرتلين القائمين التالين العاملين بما في القرآن، المتعلمين منه، المعلمين له. عند الإمام البخاري عن مولانا عثمان بن عفان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

في المجتمع المسلم يكون القرآن محور تربية الأطفال، ومرجع علم اليافعين، وجنة إيمان المسلمات والمسلمين. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**». الحديث رواه مسلم.

ويكتسب البيت تجتمع فيه المؤمنات ويرابطن على التلاوة والدرس معنىً من معاني بيوت الله. فكرم الله واسع، والسكينة والرحمة وحفوف الملائكة مما يتفضل به سبحانه على عباده المؤمنين وإمائه المؤمنات، أولئك في المسجد، وهؤلاء في مسجدهن وهو بيتهن.

أفضل التلاوة ما كان في الصلاة فرضا، ثم نفلا في جوف الليل. وللتلاوة آداب مفروضة هي الطهارة التامة. والترتيل والتجويد والتغني بالقرآن وتحسينه بالصوت من المكملات. وعلى المؤمنات أنْ يتعلمن مخارج الحروف وأصوات

الأداء كما حققها علماء القراءات الذين لولا نعمة الله عليهم بخدمة القرآن لتحول لساننا أعجميا أَلْكنَ. جزاهم الله عنا خيرا.

إن القرآن الكريم كتاب الله فينا، كتاب هُدى ويقين، ونور، وحكمة، وتبيان، وتعليم، وبشارة، ونذارة، وتشريع، وبركة. هو حبل الله فينا.

من آداب تلاوته وترتيله نبدأ. ثم نعظم كلام الله ونستحضر كلام مَن هو، ونقف مع آيات الوعد والوعيد، وننصرف بالكلية إليه تاركين الوساوس الدنيوية، ونتدبر آيات خاطبت العقل، وأخرى توجهت إلى العاطفة، وأخرى ضربت الأمثال، وأخرى قصت أحسن القصص، وأخرى شرعت حدود الله، وأخرى حذرت من معاصي الله، وأخرى حملتنا إلى الآخرة لنشاهد نعيم الجنة وعذاب النار وهول الموقف. كل ذلك يا نفسُ موجَّهٌ إليكِ، أنتِ المعنية به لا غيرُكِ. وهو سبحانه أقرب إليكِ من حبل الوريد.

من المؤمنين من لا تسعفه الدمعة الخاشعة وإن كان القلب لينا، وقد يكون من المؤمنات من لا تسعفها الدمعة. لهؤلاء وصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا**».

هذا موكب الأنبياء عليهم السلام وصفهم الله عز وجل بالخشوع في قوله: ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً**﴾.[1] هذا الأثر القلبي هو ثمرة التّلاوة والترتيل والاستظهار والتعظيم.

سيد هذا المقام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. طلب إلى ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، فلما قرأ: ﴿**وَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً**﴾،[2] التفت فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيناه تذرِفان. حديث متفق عليه. اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا.

---

(1) سورة مريم، 58.
(2) سورة النساء، 41.

الذكر

الذكر القرآنُ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.[3] والقرآن ينادي العباد في كل مَحفِل وناد: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾.[4] لكن نادي الموتى لا يسمع. ﴿نَسُوا اللَّه فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.[5] جعلوا بيوتَهم قبورا لم يقرأوا فيها القرآن ولا ذكروا فيها الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مثَل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**». رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري. وروى البخاري الحديث هكذا: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**».

مضى عُمْرٌ لم تفتح المصحف ولا سبحت ولا صلت. رافقت القبور المتنقلة، زارت بيوتا هي في حكم المقابر من حيثُ الروح، صحبت ميّتات القلب فكيف ترجى لها الحياة! قال الشيخ عبد القادر رحمه الله بأسلوبه المباشر ليُسمِع أهل القبور الساعين على رجلين: «أنتَ ميت القلب وصحبتك أيضا لموتى القلوب (...). أنت قبر تأتي قبرا مثلك، ميت تأتي ميتا مثلك. أنت زَمِنٌ (مُقعد) يقودك زمِن مثلك،أعمى يقودك أعمى مثلك. اصحب المؤمنين الموقنين الصالحين واصبر على كلامهم واقبَلْه واعمَل به وقد أفلحت».

قال الله تعالى عن القرآن وعن نبيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.[6] الكافرون صم بكم عمي فهم لا يعقلون. أموات غير أحياء. دواب تمشي على الأرض. والغافلة عن ربها ذهب ما كان معها من باقيات الفطرة أدراج الرياح. عاشت زمنا في مُناخ بارد الإيمان، مكسوف

(3) سورة الحجر، 9.
(4) سورة البقرة، 151.
(5) سورة الحشر، 19.
(6) سورة يس، 68-69.

الأنوار. فلا ترجى لها حياة إلا بصحبة المؤمنات، زمِنة عمياء إن لم تصِل حبلها بحبل المبصرات بنور الإيمان، التاليات الذاكرات.

كان فيما كلم الله به نبيه موسَى عليه السلام قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.(1) وأمر الله هذه الأمة أن تذكر ربها بعد الصلاة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُواْ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾.(2)

بعد الصلاة وأثناء الصلاة ذكر. وفي الحج وبعده ذكر: ﴿ وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾.(3) ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ الله﴾.(4) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾.(5) سبحانك رب تُعلم الغافلين كيف يذكرونك! شأن الجاهلية الأولى الافتخار بمجد الآباء والإكثار من التذكير بمزاياهم وانتصاراتهم وكرمهم وشجاعتهم. تعلمنا، ربِّ، ابتداءً مما نعقِل لكي نكثر من ذكر آلائك على الخلق، وترديد أسمائك الحسنى، والاستشهاد بكلماتك العليا، والإفاضة في التبشير بكرمك وما أعددت لأحبابك، ونشر البلاغات القرآنية النبوية المنذرة بشديد عقابك، وتقريب رحمتك إلى العباد الآبقين من جنابك بذكر واسع مغفرتك. سبحانك!

أخبرتَنا، ربِّ، بأن المنافقين لا يذكرونك إلا قليلا مُذَبْذبين. إن ذكروكَ فإنما هي لقلقةُ لسان تكذِّبها القلوب القاسية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ﴾.(6) أي من عدم ذكره.

لك الحمد مولانا على ما شرحت صدورنا للإسلام. ولك الحمد أنْ هديتنا السبيل لنلحق بأولي الألباب ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ

(1) سورة طه، 13.
(2) سورة النساء، 102.
(3) سورة البقرة، 201.
(4) سورة البقرة، 197.
(5) سورة البقرة، 199.
(6) سورة الزمر، 21.

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.[7]

لك الحمد مولانا أن بعثت فينا رسولا علمنا بِسلوكه، وعلمنا بقوله، وعلمنا بالصيَغ اللائقة بذكر جلالك، وعلمنا بالآداب الفاتحة لفَسحات حضرتك.

أخبرت أمنا عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحواله». أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.

ضرب لنا مثلا صلى الله عليه وسلم بفعله هو لنستبق إلى اللحاق بالموكب النوراني. كان صلى الله عليه وسلم يوما مسافرا مع أصحابه في طريق مكة –لجهاد أو حج لا لسياحة ممتعة– فمروا على جبل يقال له جُمدان فقال: «**سيروا! هذا جُمدان. سبق المفَرِّدُون**؟ قالوا: ومَا المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: **الذاكرون الله كثيرا والذاكرات**». رواه مسلم عن أبي هريرة. والحديث عند الترمذي. قالوا: «وما المفردون يا رسول الله؟ قال: **المستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون الله يوم القيامة خِفافا**».

أولو الألباب يقفون عند هذا الحديث التربوي العظيم ليُعجَبوا بحكمة القائد العظيم الذي أحال جنده، وهم في وَعثاء السفر في سهوب الأرض، على مطالب السماء. في مسيرة مثل تلك يتحدث الغافلون المهتمون بمشقات الأرض مفصولة عن هموم السماء، يتحدثون عن المسافات والمراحل والزاد والرواحل. كان يقول قائدهم: سيروا، سبقَ من له راحلة فارهة! وها هو التعليم الحكيم يوازي ويقارن بين رحلتين لا تنفصلان في ذهن الذاكرين الله كثيرا والذاكرات: رحلة في عمر الدنيا محفوفة بالمشاق، ورحلة من الدنيا إلى الآخرة. زاد تلك ضروري لا بد منه، وزاد الآخرة وراحلتها يُعرفُ بهما المفرِّدون.

ويضرب صلى الله عليه وسلم المثل لنتائج الذكر في الآخرة بنتائج الزرع في الدنيا. قال صلى الله عليه وسلم: «**إذا مررتم برِياض الجنة فارتعوا**». قالوا: وما

(7) سورة آل عمران، 191.

رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: «**حِلَقُ الذكر**». حديث حسن أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

هذه المجَالس التي يتَنادى إليها المؤمنون في بيوت الله، ويلتم فيها شمل المؤمنات في مساجدهن في بيوتهن، هي منازل رحمة الله، ومثال جنة الله وملتقى ملائكة الله. روى مسلم عن معاوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حَلْقة من أصحابه فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا. قال: «**آللهِ ما أجلسكم إلا ذاك؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك! قال: «**أما إني لم أستحلفكم تُهمةً لكم. ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة**».

اختارتْ مختارة ما هو أنسب لها: مجالس تغشاها الملائكة يذكر فيها الله ويحمد فيها على آلائه وهدايته للإسلام، أو مجالس لهو وعبث وفحش تحضرها الشياطين، وترقص فيها الشيطانات!

انظري في قلبكِ يا أخت الإسلام هل تَرْقين بطموحك مع ربك ليلتقي مع طموح الملائكة الذين أخبرنا عن حالهم ووظيفتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر. فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تَنَادَوْا: هلُموا إلى حاجتكم! فيَحُفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم -وهو أعلم بهم-: ما يقول عبادي؟ قال: فيقولون: يسبِّحونك ويكبِّرونَك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك! قال: فيقول: كيف لو رأوني! قال: يقولون: لو رَأوك كانوا أشدّ لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا. قال: فيقول: فما يسألُون؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة! قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربّ ما رأوها! قال: فيقول: فكيف لو رأوها! قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصا، وأشدَّ لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: فَمِمَّ يتعوذون؟ قالوا: يتعوذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما**

رأوها! قال: فيقول: كيف لو رأوها! قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فِرارا، وأشدَّ منها مَخافةً. قال: فيقول: أُشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فُلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة! قال: هم الجلساء لا يشقى جليسُهم». هذه رواية البخاري عن أبي هريرة. وروى مسلم الحديث بلفظ قريب منه.

هذا الفضل العظيم الذي به تعرج أرواح الذاكرين الله مع رفرفة أجنحة الملائكة، ويُغفر لهم ولجليسهم العابر، رغّب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «**لأن أقعد مع قوم يذكرون الله عز وجل من صلاة الغَداةِ حتى تطلُع الشمس أحبُّ إليَّ من أن أعتِق أربعة من ولَد إسماعيل. ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله عز وجل من صلاة العصر إلى أن تغرُب الشمس أحبُّ إليَّ من أن أعتق أربعة**». أخرجه أبو داود بسند حسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

لا أعظم من معية الملائكة وحضورهم مجالس الذكر إلا معية الله تعالى الخاصة، معية الرحمة. وهذا ما يخبر عنه الحديث القدسي الذي يترجم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في مَلإٍ ذكرته في ملإ خيرٍ منه. وإن تقرب إليَّ شِبرا تقربت إليه ذراعا. وإن تقرب إليَّ ذراعا تقربت منه باعا. وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أية ندامة أن تجلس الغافلاتُ على الغيبة والقيل والقال لا يذكرن الله. تنحط عليهن الأوزار، ويبغضهن العزيز الجبار، وتفوتهن غنائم الخيِّرات والأخيار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من قعد مقعدا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله تِرَةٌ** (نقص وتبِعَة). **ومن اضطجع مضجعا لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة. وما مشى أحد مَمْشىً لا يذكر الله فيه إلا كانت عليه من الله تِرة**». رواه أبو داود عن أبي هريرة بسند حسن. وروي أيضا عنه بسند صحيح أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال: «**ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة**».

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه بالمداومة على الذكر في كل الأحوال. قال لرجل سأله أن يدله على باب للخير مُيَسَّر للضعفاء مثله فقال له صلى الله عليه وسلم: «**لا يزال لسانُك رَطْبًا بذكر الله تعالى**». رواه الترمذي عن عبد الله بن يُسر بسند صحيح.

ويعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأذكار وفضائلها، فيبلغهم ويبلغُنا وصية من أبينا إبراهيم عليه السلام ويقول: «**لقيت ليلةَ أُسْرِيَ بي إبراهيم، فقال لي: يا محمد! أقرِئْ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قِيعانٌ** (أرض بسيطة تصلح للغرس)**، وأن غِراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**». أخرجه الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن مسعود.

كان صلى الله عليه وسلم يحب الأذكار الجامعة ويعلمها. مر على امرأة –هي جويرية أو حفصة على اختلاف الروايات– وهي تسبح وتحسب بالحصى والنّوَى (لم يكونوا يعرفون المسبحة)، فعلمها أن تسبح بما هو أيسر وأبلغ فتقول: «**سبحان الله عدد ما خلق في السماء والأرض وما بينهما، وسبحان الله عدد ما هو خالق. والله أكبر مثل ذلك. والحمد لله مثل ذلك. ولا إله إلا الله مثل ذلك. ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك**». أخرجه أبو داود والترمذي بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

ونختم بما ختم به البخاري صحيحه يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**». والحمد لله رب العالمين.

الدعـاء

بلاغٌ من الرب الكريم إلى عباده: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.(1)

أذانٌ منه سبحانه إلى من جفَتْ بابَ ربها، واستغنت عن فضله بما عندها من عطائه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.(2) أذانٌ يؤكده الحديث النبوي ليظهر خطورة جفاء أمة الله وعبد الله باب ربهما عز وجل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من لم يسأل اللهَ يَغْضَبْ عليه**». رواه الترمذي عن أبي هريرة بسند حسن.

مهجورة من هجرت باب ربها لا تقرعه، ولا تُنزل به حاجاتها. محرومة مهددة بغضب الله. ذلك أن كرمه سبحانه فياض، وخزائن فضله زاخرة، فيريد منا أن نستمطر رحماته، وأن نكرر الطلب، ونُلِحَّ، لتَتَلَقَّى عبوديتُنا رأفة ربوبيته، ولِتَلتقِيَ حاجتُنا بوافر عطائه، ولِتَرتوِي نَهْمتنا بهاطل نَعمائه، وليستجيب غناه لافتقارنا، وقوتُه لضَعفنا، وقدرتُه لعجزنا، ووُجده لفقدنا، وكماله لنقصنا.

ما نستشعر عبوديتنا له إلا بتكرار السؤال منه. ولا نُعطي لأنفسنا وله سبحانه برهان خضوعنا لجلاله إلا بالوقوف الخاشع المتضرع. قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.(3) اسْتكبروا عن عبادته في الدنيا، فيجزيهم خِزْيا وذُلا في الآخرة. في هذه الآية الكريمة بيان بأن الدعاء عبادة. بل هو مُخ العبادة وصميمها. وذلك ما جاء في حديث الترمذي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ الآية.

(1) سورة البقرة، 185.
(2) سورة الفرقان، 77.
(3) سورة غافر، 60.

ولا يَألْو النبي صلى الله عليه وسلم ينوِّع أساليب الترغيب في الدعاء والترهيب من الاستكبار عنه. ذلك أن من طبع هذا الغلاف البشري الغليظ أن لا يرى العطاء آتيا إلا من الأسباب الملموسة الـمُحَسَّة. ويغفل عن خالق الأسباب سبحانهُ.

قال صلى الله عليه وسلم: «**ليس شيءٌ أكرَمَ على الله من الدعاء**». أخرجه الترمذي والإمام أحمد وغيرهما بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

من كرَم الدعاء على المولى الكريم سبحانه أن رصَد له ثوابا جزيلا. تأتيه إماؤه وعبيده في هيأتهم الحقيقية أذلاء أمام جلاله، مُظهرين ما يخفيه المستكبرون مِن فاقة إلى نَواله واضطرار إلى خيره، فيُجْزل المثوبة، ويَغرِفُ للسائلين من بحر مُلكه ومَلَكوته.

ويختار المولى سبحانه لإمائه السائلات، وعبيده السائلين أفضل الأحوال. فإما يعجِّلُ العطِية المطلوبة بعينها، وإما يعوض السائلات والسائلين ما هو خير منها وأحسن، ممَّا ينفعهن وينفعهم في الدنيا والآخرة. يروي الترمذي والإمام أحمد بسند صحيح عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرفَ عنه من السوء مثلها، ما لم يدْعُ بإِثم أو قطيعة رحِم**». فقال له رجل: إِذاً نُكثِرُ! فقال صلى الله عليه وسلم: «**الله أكثر!**».

وعن جابر بن عبد الله روى الترمذي حديثا صحيحا يقول فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم: «**ما من عبد مسلم يدعو بدعاء إلاّ آتاه الله ما سَأله أو ادّخر له في الآخرة خيرا منه، أو كف عنه من السوء مثله، ما لم يدعُ لإِثم أو قطيعة رحِم**».

من أفضل ما تسأل الأمة ربها والعبدُ ربه أن يكتبه في ديوان المجاهدين وأن يختم له بالسعادة والشهادة. من سألت ذلك ومن سأل، ثم عمِل عمَل المجاهدين فوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرهُ. أخرج مسلم وأصحاب السنن عن سهل بن حُنَيف رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من سأل الله الشهادةَ بصدق بلّغهُ الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**».

وللدعاء آداب وأوقات تفتح فيها أبواب السماء. فعن أبي هريرة يروي الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يسألني فأُعطيَه؟ من يستغفرني فأغفِرَ له؟**».

أمضى أهل الجَدَلِ في الدين أعمارا بلياليها يرد بعضُهم على بعض في قضية نسبة الجهة إلى الله عز وجل هل ذاك عقيدة صحيحة. وألْزَم المنكرون للجهة خصومهم بأنهم مُجَسِّمَةٌ. والمعركة هاجت بعدما خمدتْ. ونعوذ بالله من التجسيم ومما يُلْزِم به، ومن الخوض فيما لم نؤمر بالانغمار فيه.

وغنِمَ الـمُوَفقات والـمُوَفقون أعمارهم بلياليها. صدقوا الله ورسوله، وسَلّموا وآمنوا وفوضوا. لم يسألوا عن كيْف النزول الإلهي، إنما قاموا في جوف الليل يصلون لله ويدعونه، ويسألونه من خير الدنيا والآخرة. مُقابل العرض الإلهي: «**من يدعوني فأستجيب له؟**»، تنبعث في جوف الليل والغافلون نيام تلبية السائلة الملهوفة والسائل: «أنا يا رب!». واستجابةً لدعوته سبحانه: «**من يسألني فأعطيَه؟**»، تنبري روح أمة الله وروح عبد الله تستبق الخيرات لاهجةً: «أنا يا رب!». وتؤنب أمة الله ويؤنب عبد الله النفس الأمارة بالسوء الخطاءة أطراف النهار، حتى إذا جن الليل، ونام النُّوَم، وخرجت من حانات الليل زبائن الشيطان، ألفيتِ السعداء بمناجاة ربهم ينتظرون السحَر ليحْظَوْا بساعة: «**مَن يستغفرني فأغفر له؟**».

الدعاء عبادة لا تنقطع. المداومة عليها والمواظبة والصبر هي الطريق إلى رضى الله عز وجل، إن كان الإعراض عن الدعاء والتراخي فيه مُعرِّضا لغضب الله. كما لا يرتفع فرض الصلاة عن المكلفات والمكلفين إلزاما، كذلك لا تفتر الموفقات ولا يفترُ الموفقون عن ذكر الله ودعائه والتضرع إليه التزاما مدى الحياة. وإن الله لا يمل حتى تمَلّوا كما جاء في الحديث.

المواظبة، واستغراق الأوقات في الذكر والدعاء، والصبر على ذلك. من نواقض الدعاء ونواقصه الملَلُ والاستعجال. قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، يقول: دعوت ربي فلم يستجب لي**». أخرجه الجماعة إلا النسائي عن أبي هريرة.

يستحب الدعاء خُفيَةً وتضرعا إن كانت الداعية بمفردها. ويستحب لذلك الوضوء، الوضوء الدائم سلاح المؤمنات والمؤمنين. ويستحب استقبال القبلة ورفع اليدين. وتُلح الداعية جازمةً بأن الله عز وجل يسمعها ويستجيب لها مصداقا لقوله: ﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾.[1]

وللدعاء ساعات وأحوال مفضلة. منها وقت السَّحَر، وعند الركوع والسجود، وأثناء الصوم، وفي معارك الجهاد، ودبُر الصلوات، ويوم الجمعة، ويوم عرفة، وليلة القدر ما أعظمها. وتحفظ المؤمنات الأدعية المأثورة لافتتاح الصلاة، وللدخول والخروج من البيت، وللنوم والانتباه، وللصباح والمساء. ولكل الأحوال كالعُطاس، والأكل والشرب، والسفر. ولدعاء الاستخارة مكانة خاصة، تفوض الأمة إلى ربها وتستنجد به بعد تدبير أمورها بحكمة العقل والشرع.

لا شك أن تاج الأدعية وذروة سنامها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: ففي الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: «**من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا**». أي فضل أعظم من هذا يا من تغبن نفسها! وأية هدية أنفس. وأية بشرى أفخم!

لقي التابعي ابن أبي ليلَى الصحابيَّ كعب بن عُجْرَة، فقال الصحابي: «ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج علينا، فقلنا: يا رسول الله! قد علِمْنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: **اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**». متفق عليه.

(1) سورة البقرة، 185.

نورد هنا قصتين تدلان على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير، وتدلان على حَدَب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، واستمالتِه قلوبَهم عن راحات الدنيا ليجتهدوا لآخرتهم. علمهم التسبيح والتهليل والتكبير والحمد. هي أذكار وأدعية جامعة.

جاءه صلى الله عليه وسلم فقراء المهاجرين فقالوا: «قد ذهبَ أهلُ الدُّثور (الأموال الكثيرة) بالدرجات العُلَى والنعيم المُقيم! فقال: **وما ذاك؟** قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتِقون ولا نُعتق! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ألا أعلِّمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبِقون به مَن بعدَكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا إن صنع مثل ما صنعتم؟** فقالوا: بلى يا رسول الله! قال: **تُسبِّحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة**». رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه. واللفظ هنا لمسلم.

ويَسْمَعُ أغنياءُ الصحابة بما تعلمه إخوانهم الفقراء، فيصنعون مثل صنعهم. ويشكو هؤلاء ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء!

ويقُص الإمام علي كرم الله وجهه للتابعي ابنِ أَغْيَدَ هذه القصة الفريدة المفيدة. يقول له: «ألا أحدّثُكَ عني وعن فاطمة بِنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت من أحبِّ أهله إليه، وكانت عندي؟ قال ابن أغْيَد: بلى! قال الإمام: إنها جرَّتْ بالرحَى حتى أثّرت في يدها، واستقت بالقِربة حتى أثرت في نحرها، وكنست البيت حتى اغبرّت ثيابها».

قلت: يا أيتها المنعمات! تُبْتُن إلى الله وعلى رؤوسكن فولارات من حرير باريز، وفي بيوتكن رفاهية الأغنياء المترفين. هل تزُور قلوبَكن نَسمةُ رحمة، وهل تهز شعورَكن هبَّة عزوف عن غُرور زينة الدنيا عندما تقرأن عن أثر القربة في النحر الشريف، وأثر الرحى في اليد الكريمة، وغبار الكنس في الثياب المطهرة؟!

قال الإمام: «فأتى النبي صلى الله عليه وسلم خَدَمٌ، فقُلتُ: لو أتيتِ أباكِ فسألتِه خادما؟ فأَتَتْه فوجدت عنده حُدّاثًا (ناس يتحدثون معه)، فرجعتْ. فأتاها من الغد، فقال: ما كان حاجتَكِ؟ فسكتَتْ. فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله! جرّت بالرحَى حتى أثرت في يدها، وحملت بالقِربة حتى أثرت في نحرها. فلما أن جاء الخدَم أمرتُها أن تأتِيكَ فتستخدمك خادما يقيها جَرّ ما هي فيه. قال صلى الله عليه وسلم: «**اتَّقي الله يا فاطمة، وأدِّي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك. وإذا أخذْت مضجَعَكِ فسبّحي ثلاثا وثلاثين، واحمدي ثلاثا وثلاثين، وكبري أربعا وثلاثين. فتلك مِائة، فهي خير لك من خادم**». قال الإمام: فما تركتُهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ليلة صِفّين، فإني ذكرتها من آخر الليل». الحديث رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

تجديد الإيمان

وهل يَبْلَى الإيمان ويصير قديما مهملا؟ نعم. كيف ذلك؟

وهل يتجدد الإيمان؟ نعم. كيف ذلك؟

نحط رِحالنا بباب المعلم الوالد رسول الله صلى الله عليه وسلم وندخل مجلسه الكريم لنسمعه يحذر صحابته الأبرار قائلا: «**إِنَّ الإيمانَ يخلَق في القلب كما يَخلَق الثوب. فجددوا إيمانكم**». في رواية: «**إن الإيمان لَيخلَق في جوف أحدكم كما يخلَق الثوب. فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم**». رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك.

نبدأ أولا بسؤال الله تعالى امتثالا للأمر النبوي: اللهم جدد الإيمان في قلوبنا. ثم نسجل في الرواية الثانية أن الإيمان يبلَى في داخل الإنسان، في جوفه، في قلبه.

الخُلقان في اللغة هي الثياب القديمة الممزقة الوسخة. فأشبه الإيمان البالي الـمُهمَل شراميط وسخة تظهر على لابسها، فهو هناك داخل القلب تعلوه أكداس من الوسَخ. يمكن للملاحظ أن يبصر أوساخ غيرِه الظاهرَة: يلاحظ السلوك المعوج، والمعاصي، والأخلاق الرديئة، والأقوال الفاحشة. كل ذلك ينم عن مرض في القلوب، وعن عَطَلٍ في التنوير الإيماني القلبي.

تلاحظ الرائية من خارج أعراضَ البِلَى الباطني في غيرها، لكن لا يحس بالداء في الأحشاء إلا الـمُصابة نفسُها إن كانت فيها بقية من خير، أو منّ الله عليها بتوبة ويقظة. من سكن النفاق والكفر في قلبها والعياذ بالله لا تشكو من نقص في إيمانها لأنها استَحْلَت النفاق ومردَت عليْه. أما المنتعشة بتوبة، والراجعة إلى ربها من جفوة وغربة، فإنها تحس وتشكو، وتلمس العلاج كما كان الصحابة يشكو بعضهم إلى بعض نقص الإيمان.

نأخذ معيارا واحدا من معايير كثيرة لنقيس بها بِلَى إيماننا وفتورَهُ واندثاره. في القرآن الكريم والحديث الشريف أوصاف لأهل الإيمان، بعضها آكد من بعض، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»، ومثل قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده**». وغيرُها كثير تصلح معايير لقياس درجة الاندثار في الإيمان.

نأخذ من كتاب الله عز وجل قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾.(1)

ونأخذ قوله عز وجل: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾.(2)

يمكن للملاحِظة أن ترى في غيرها التهاون في إقامة الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، والبخلَ في النفقة في سبيل الله، والتخلّيَ عن الجهاد بالمال والنفس. لكنها لا تطلع على الأفئدة لتعلم هل وَجِلَ قلب هذه لذكر الله، وهل زاد إيمان تلك لما سمعت آيات الله تتلى، ولتُحس ارتياب من ارتابت، وشك من شكت. تعرف ذلك من نفسها. فإليها أهدَى رسول الله صلى الله عليه وسلم النصيحة أن تسأل الله تجديد إيمانها في القلب.

وإليها أهدى المعلم النبي صلى الله عليه وسلم الوصية بتجديد الإيمان.

من أين لنا أن نعلَم كيف يتجدد الإيمان في القلوب إن لم يَأتنا العلم من العالم؟ سألوه صلى الله عليه وسلم وقد قال لهم: «جددوا إيمانكم» قائلين: كيف نجدد إيماننا يا رسول الله؟ قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**». رواه الإمام أحمد والطبراني عن أبي هريرة. دلهم على ذكر الله. فازت من لا يزال لسانها رطبا

(1) سورة الأنفال، 2-4.
(2) سورة الحجرات، 15.

بذكر الله، ومن غشِيت رحمة لا إله إلا الله قلبها فنورته بنور الإيمان، وعمرته بإشعاعات الإيقان! فازت والله!

دلهم على لا إله إلا الله، وهي أعلى شعب الإيمان كما جاء في الحديث، وأفضلها.

إذا تُليت آيات الله على المؤمنين والمؤمنات زادتهم إيمانا. فهناك إذاً رصيد إيماني قبل القرآن. من أين يأتي هذا الرصيد الأول؟ من لا إله إلا الله، ومن أمر آخر سابق عليها دالٍّ عليها. ماهو؟

قال الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لقد عشنا بُرهة من الدهر وإنّ أحدنا يؤتَى الإيمان قبل القرآن. وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وأوامرها وزواجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها. ولقد رأيت رجالا يؤتَى أحدُهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمِره وما زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده: ينثُرُه نثر الدقَل (يرميه كما يُرمَى التّمْر الرديء)». رواه الحاكم على شرط الشيخين وصححه.

ويقول سيدنا عبد الله بن جندب رضي الله عنه: «كنا مع النبيّ ونحن فتيانٌ حَزاوِرَةٌ (نشِطون). فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا». رواه ابن ماجة رحمه الله.

تعلموا الإيمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بِتَلَقٍّ آخر واقتباس آخر غير تلقي الأذن لآيات الله، وغير اقتباس العلم من عقل لعقل. إنه الاقتباس القلبي، يشرب قلب من قلب، الذي دل على أصلِ حقيقته شهادة الصحابة، ودل على أصل حقيقته مِثْلُ قوله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاث مَن كن فيه وجَد بهن طَعْم الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومَن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر -بعد أن أنقذه الله منه- كما يكره أن يلقى في النار**». متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

إنها ثلاث خصال وجدانيات، قلبيات. يتوسطهن حب عبد لعبد أو أمة لأمة لا تحبها إلا لله. هذه هي الصحبة المفتاح. لماذا يهجر الناس القرآن على الرفوف أو يتلونه والقلب رماد بارد، حتى يأتي «مَن» يوقد المصباح. و«من» يحرك الساكن، و«من» يوقظ النائمين، و«من» يحيي الله به موات القلوب؟

دل حديث طعم الإيمان على أصل حقيقة الاقتباس القلبي، ويدل على امتداد هذه الحقيقة قوله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مِائة سنة من يجدد لها دينها**». رواه أبو داود والبيهقي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يَبلَى الإيمان، ويخلَق في القلوب، ويتجدد بلا إله إلا الله وبالمجدد. هذا المجدّد فردٌ أو مدرسة إيمانية أو جيل من الأحياء بحياة إيمان متجدد؟

الإمام الحافظ ابن عساكر رحمه الله عَدَّ عمر بن عبد العزيز مجددا للقرن الأول، والشافعي مجددا على رأس القرن الثاني. ورُوي ذلك عن الإمام أحمد رحمهم الله جميعا. وعد طائفة من العلماء منهم ابن عساكر أبا الحسن الأشعري مجددا على رأس القرن الثالث، وأبا بكر الباقلاني مجددا على رأس المائة الرابعة، والغزالي على رأس المائة الخامسة. نقف هنا، ونُحيل على ذمة الأجيال المقبلة نورها الله الاعتراف بفضل أمثال حسن البنا الذي اعتبره الشيخ محمد الحامد مجدداً للقرون الخمسة الأخيرة.

فسد الحكم فنهض لإصلاحه العَلَم الفذ الراشد سيدنا عمر بن عبد العزيز. وأقبلت الأمة على العلم فشق لها الإمام العبْقري الشافعي أبوابه بمفتاح علم الأصول الذي أنشأه. وهجم الكفر والشك والفلسفات والملل فانبرى لدحضها أئمة علم الكلام أبرزهم الأشعري ثم الباقلاني من بعده. هذه أنواع من التجديد لدين الأمة. تجديد لتدينها وفهمها للدين في مجالات الحكم والعقيدة والفقه. ليس تجديد الدين اختراعا فيه، لكنه إحياء لمواتٍ في قلوب المتدينين وعقولهم.

وانصرف العلماء والعامة والحكام في نهايات القرن الخامس -قرن الغزالي- إلى مواجهة الضلالات العقدية الباطنية. بعضهم يجادل عن الدين، وبعضهم يخوض فيه، وبعضهم يقاتل عليْه. وانمسحت من لوحات الفقهاء وطروسهم ومجالس مناظراتهم وجدلهم المعاني القلبية الإيمانية أو كادت. اشتغلوا بالفروع وازدحموا على مجالس المناظرة، فجف معين القلوب من حيث تضخم صبيب الخصام. وهنا كان تجديد الغزالي حيث لاذ بعلماء الآخرة كما يسمي المربين الربانيين، وصحبهم زمانا. وشكا حال المتسطحين، قال: «كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب (...). وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا العلم دون تفريعات الطلاق والعتاق واللِّعان والسلم والإجارة. فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف. بل التجرد له على الدوام يقسي القلب، وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له».

ونقد الغزالي مظاهر البلَى في إيمان أهل عصره من المتكلمين، مما جره عليهم وسكبه في أوعيتهم الاشتغال بالخصوم والمخالفين والمجادلين، والاستغراق في مناقضتهم وإلزامهم ما منه يتبرّأون. وانتقد الوعاظ الذين قلت بضاعتهم من علوم التفسير والحديث والفقه، فاشتغلوا وشغلوا العامة: «بالقصص والأشعار والشطح والطوام». وانتقد أهل الزهادة وطوائف الباطنية وأهل البدع والضلالات الذين كادوا يهدمون جميع الشريعة «بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم».

ننتقل إلى عصرنا لنستفيد مما نشاهده في عامة الأمة وخاصتها من علماء الرسوم، وخاصة خاصتها من علماء الدعوة وجند الله، حاجة الأمة إلى تجديد الدين. وهي حاجة مستمرة، معترف بها شرعا، مُعْلَن ميقاتها، مأذون في السعي لتحقيق أهدافها بسلطان «**إن الله يبْعث**»، منيرة طريقها بشمس «**جددوا إيمانكم... أكثروا من قول لا إله إلا الله**»، خفاقة راياتها على باب «**وجد طعم الإيمان**».

هل يتجدد دين الأمة بتجديد علومها، وبفقه يُنزل آيات الله على الواقع ليغيره التغيير الإسلامي؟ أم إن تجديد الدين يكون أوّلاً بتجديد الإيمان في القلوب تجديدا تفقه به القلوب وتعقل مثلما يفقه العقل المجتهد في الشريعة ويعقل؟

إن حاجة الأمة مزدوجة لإحياء الفقه الأول الدال على الله، وعلى حب الله، وعلى حب رسول الله، وعلى الدار الآخرة، ولبعث اجتهاد نستقل فيه عن تقليد ما بلِيَ من اجتهاد، خاصة الفقه المكبوت المسكوت عنه: فقه الحكم والشورى والدولة والسياسة.

إن أهم قضايا التجديد هي قضية إحياء الربانية في الأمة. ثم هناك بعدَ ذلك في الاعتبار القضايا الكبرى الجهادية السياسية، وموقفنا من الديمقراطية وحقوق الإنسان، وهي دين العصر. وبديلنا عن النظام الرأسمالي. ونظريتنا وبرامجنا لبناء الدولة الإسلامية. ووسائلنا وجهودنا لتوطين العلوم والصنائع في بلاد المسلمين. وخطتنا لتوحيد الأمة وجمع شتاتها. ثم مشاكلنا الداخلية التربوية التعليميّة الناتجة عن تعددية الحركة الإسلامية. كل هذا يُلح على فكرنا، فنخشى أن ينقلب التجديد الفكري على المطلوب القلبي فيغُمَّه. وقانا الله.

الفهرس

الفصل الثالث

المرأة والبحث عن السعادة

الفصل الرابع

الإيمان بالله وباليوم الآخر

الفصل الخامس

استكمال الإيمان